الصحافة والأدب في مصر

محاضرات ألقاها الدكتور

عبداللطيف حمزة

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٥٤ - ١٩٥٥

الكتاب: الصحافة والأدب في مصر

الكاتب: عبداللطيف حمزة

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

حمزة ، عبداللطيف

الصحافة والأدب في مصر / عبداللطيف حمزة

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٩٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٥٧ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١١٠١٠ / ٢٠٢٠

الصحافة والأدب في مصر





مقدمة

على مدى الخمسة الأعوام الماضية كنت أشتغل بوضع كتاب في ستة أجزاء إلى الآن، موضوعه "أدب المقالة الصحفية في مصر"، وقد اضطرني هذا البحث أن أقصر فيه عنايتي على "فن المقال الصحفي" من حيث هو، كما اضطرني هذا البحث أن أمس به الأجواء الفكرية والسياسية والاجتماعية التي عاشت فيها المقالة الصحفية في جميع الأطوار التي خضعت لها.

وكنت في أثناء هذا كله أجد الصلة قوية كل القوة بين الصحافة من جهة والأدب الخالص– شعره ونثره– من جهة ثانية. غير أني كنت أخشى دائما إن أنا تعرضت لشيء من هذا الأدب الخالص أن أدخل بالقارئ في استطراد يفوت على الغاية من كتابي السابق. وهي هنا العناية التامة بالفن الصحفي للمقال المصري منذ نشأته.

فحين طلب إلي معهد الدراسات العالية بالجامعة العربية أن ألقي عددا من المحاضرات على طلابه في موضوع الصلة بين الصحافة والأدب، وتأثير كل منهما في الآخر، رحبت بذلك كل الترحيب، ووجدت فيه الفرصة التي كنت أصبو إليها والعمل الذي أتربص به.

وقد تأملت هذه الصلة بين الصحافة والأدب تأملا جيداً فراعني حقاً، وأدهشني صدقا أن يكون الأدب المصري الحديث مدينا بحياته ونمائه، بنشأته وذيوعه للصحافة المصرية. واستحوذت هذه الفكرة على نفسي حتى وددت أن أجعل موضوع محاضراتي هذه على النحو الآتي:

"الصحافة المصرية صانعة الأدب المصري الحديث"

غير أن الأستاذ ساطع الحصري مدير المعهد رأى في هذا العنوان أنه أخلق برسالة جامعية منه بمحاضرات عامة فوافقته على ذلك.

وسيرى الذين يقرءون هذه المحاضرات أنني لم أكن مبالغا في دعواي من أن الصحافة المصرية صانعة الأدب المصري الحديث؛ فهم يعلمون أن أهم فنون الأدب في وقتنا هذا ثلاثة: القصة، والقصيدة، والمقالة.

وسينظرون معي في (القصة المصرية) أولا فيرونها نشأت في أحضان الصحافة واتخذت لنفسها الوجهة التي اختارتها لها الصحافة. فإذا أثبت هذا البحث صحة هذه النتيجة نكون قد ربحنا من القضية الأدبية التاريخية التي نحن بصددها مقدار الثلث فقط. ثم إذا أثبت البحث صحة هذه النتيجة نفسها بالقياس إلى (القصيدة الشعرية) نكون قد ربحنا مقدار الثلث الثاني. ثم إذا برهن البحث على صدق النتيجة عينها بالقياس إلى (المقالة)– ولا شك أن هذا الجزء هو أيسر أجزاء الدفاع كله– نكون قد ربحنا الثلث الأخير من هذه القضية ذات الشأن الكبير في تاريخ الأدب الحديث.

وحين رجعت إلى بعض الآداب الأوروبية الحديثة لمست بنفسي صدق هذه النتيجة التي ذهبت إليها، ورأيت القوم هناك وصلوا إلى إلغاء المسافة بين الأدب والصحافة، وأصبحوا لا يرون بين هذين الفنين أكثر من خيط رفيع يوشك أن ينقطع في النهاية.

ولكن: هل في هذا نفع يعود على الأدب؟ أم في هذا ضرر يحيق بمستقبل الأدب؟ ذلك ما جعلني أختم كلامي بمحاضرة موضوعها (مستقبل الأدب في ظل الصحافة)– عالجت فيها هذا الموضوع معالجة عاجلة وأظنها عادلة،

ووقفت عند هذا الحد.

تلك هي خطتي في المحاضرات التي ألقيتها على طلبة الدراسات العالية بمعهد الجامعة العربية. والله أدعو دائماً أن يجعلني خادما لوطني الأصغر– وهو مصر– وخادما لوطني الأكبر– وهو العالم العربي والله ولي التوفيق،

عبد اللطيف حمزة

القاهرة في يناير ١٩٥٥



بين الأدب والصحافة

الصحافة أدب غير خالد

تخيل أحد الأدباء الفرنسيين حوارا لطيفا بين كتاب وجريدة قال فيه الكتاب للجريدة:

– إنك تنعمين بمائة ألف قارئ، ولكنك لا تمكثين إلا ساعة أو بعض ساعة في يد القارئ. ثم لا تلبثين أن تتعرضي للتمزيق أو التلف. وإذ ذاك يلقي بك في سلة المهملات، أو يتخذ منك الناس غلافا لبعض حاجاتهم. وهكذا تولدين سريعا وتموتين سريعا دون أن تتركي أثرا ما في نفوس القراء.

فأجابت الجريدة بقولها:

– نعم أيها الكتاب أنك لتفضلني بطول العمر وبسطة الأجل، ولكن لا تنس أنك تعيش أعمارا طويلة في عالم الظلام ودنيا النسيان: وعندي أن حياة يوم واحد بالمعنى الصحيح أفضل بإشراقها وحركتها وجلالها من حياة مائة عام تقضيها أنت مجهولا من أكثر الناس، مهملا منهم فوق الرفوف التي يعلوها التراب..

ليس وراء هذا الحوار وأمثاله غير معنى واحد، هو أن الصحافة أدب غير خالد، وهذا صحيح في جملته وتفصيله. فإن عمل الأدب في كل زمان ومكان إنما هو تصوير النفس البشرية بوجداناتها الكثيرة، وخواطرها التي لا حصر لها. وعمل الصحافة في جوهرها هو الاهتمام بالجماعات البشرية، وتناقل أخبارها، ووصف نشاطها، ثم توجيه هذه الجماعات إلى ما فيه خيرها ومنفعتها، ثم تسليتها، وتزجية أوقات فراغها آخر الأمر.

فإذا ذكرنا أن النفس البشرية باقية بقاء البشر، وأن حوادث الجماعات الإنسانية متغيرة بتغير أحوالها دائما عرفنا كيف أن الأدب الذي هو منوط بالنفس خالد بخلودها، وأن الصحافة التي هي منوطة بالجماعات على اختلافها لا يمكن أن يكون لها حظ من الخلود.

ومن هنا نستطيع أن نلمح أول فرق من الفروق بين الأديب والصحافي:

(فالأول) – وهو الأديب – رجل ذاتي يعني بنفسه وحدها، فيصف لنا ما يجول بها، أو يتردد في جنباتها، ويسجل حركاتها وسكناتها ويتأمل هذه الحركات والسكنات. وهو في هذا الصنيع إنما يصف النفس البشرية كلها، ويتعمق أسرارها. ويكشف عن حسناتها وسوءاتها، ويكون لأوصافه صدى في نفوس القراء من كل جنس، وفي كل عصر، ماداموا قادرين على قراءته وفهمه، والاستفادة منه. ومن ثم كان الأدباء من أوسع الناس حرية في الواقع. منهم من ينشئون في الجد، ومنهم من ينشئون في الهزل. والقراء أنفسهم أحرار في أن يختاروا ما يقرءون من نتاج هؤلاء وهؤلاء. فمن كان من القراء يؤثر الفضائل العامة، وينشد المثل الأعلى ولى وجهه شطر الأديب الجاد، والكاتب المتأمل، والشاعر الذي يسن للناس خلال الخير، ويرسم لهم طريق الكمال. ومن كان من القراء يجنح إلى اللذة الحسية، ويميل إلى التساهل الخلقي ولى وجهه شطر الأديب الهازل، أو الشاعر الماجن، أو الكاتب الهدام. ولا يكون للدولة في الأعم الأغلب سلطان على الأديب إلا في حالة واحدة تقريبا؛ هي الحالة التي يتعرض فيها الأديب للنظام القائم.

(أما الثاني) – وهو الصحافي – فرجل غير ذاتي لا يستطيع العناية بنفسه، لأنه مسئول عن العناية بالمجتمع من حوله، فتراه يسجل حركات هذا المجتمع وسكناته يوما بيوم، وينهي أخباره إلى القراء في داخل البلد وخارجه. ذلك أن

الصحافة في ذاتها عمل اجتماعي بحت يقوم على تنوير الأذهان، وعلى الاتصال بالرأي العام. ومن ثم كان على الصحافي أن يتأمل الأخبار والأحداث، وأن يعقب عليها ويفسرها، وأن يقصد من هذا العرض والتعقيب إلى الإرشاد والتوجيه. ولكن عليه دائما ألا يفكر في مصلحته الذاتية، أو منفعته الخاصة. وإنما يفكر في مصلحة المجتمع، ومستقبل المجتمع.

وعلى هذا فالصحافة مرآة تنعكس عليها مشاعر الجماعة وآراؤها وخواطرها. أما الأدب فمرآة تنعكس عليها مشاعر الأديب وآراؤه وخواطره. فبينما الصحافي مقيد بهذا القيد الذي هو مصلحة هذا المجموع. إذ بالأديب طليق من كل قيد، لأنه ليس مسئولا في كل وقت عن مصلحة هذا المجموع. ومن ثم وجب على الدولة دائما أن تراقب الصحافي مراقبة جيدة. وفي أثناء الحروب والمحن السياسية– بوجه خاص– يكون من حق الدولة أن تسلط على الصحافة ذلك السيف الرهيب الذي هو "قانون المطبوعات".

وفي حرية الأديب وتقيد الصحافي، يقول الأستاذ عبد القادر حمزة في وصف الأخير:

"ويجب أن يكون الصحفي حاضر البديهة، حاضر الجواب على ما يدعي لأن يكتب فيه. وهو في كل ذلك لا يختار– كما يفعل الأديب – بل الحوادث هي التي تختار له كل يوم ألوانا جديدة، وندعوه إلى أن يتجه إليها، وينتهي به الأمر إلى أن يتسع أفق الأدب والعلم والخبرة عنده فيصبح وكأنه الموسوعة بينما يكون الأديب بجانبه وكأنه كتاب في فن معين[1]".

([1]) مختار الوكيل– محاضرة عنوانها (بين الأدب والصحافة) ص ١٣.

هل احتاجت العصور المتقدمة إلى الصحافة؟

يحدثنا التاريخ أن الصحافة ثمرة من ثمرات "المطبعة" وحسنة من حسناتها وهي كذلك في الحقيقة[1]. فلولا ظهور المطبعة لما ظهرت الصحافة، ولما استطاعت الصحيفة أن تصل إلى آلاف القراء في وقت معين، وعلى نمط معين. ولكن هل معنى ذلك أن الناس في العصور التي سبقت ظهور المطبعة لم يعرفوا لونا من الأدب يشبه الصحافة؟

كلا، فإن الناس في كل زمان ومكان يحتاجون إلى تناقل الأخبار، وإلى التعقيب على هذه الأخبار. وهم بحاجة أيضا إلى المادة التي يقرءونها لكي ينسلوا بها، ويزجوا أوقات الفراغ. وهل ننكر أنه كان لكل بيئة متحضرة من بيئات العالم القديم ما يسمى "بالرأي العام"؟ وهل ننكر أن الأدباء في تلك البيئات المتحضرة هم الذين كانوا يتولون التعبير عن هذا الرأي العام؟ هكذا كان الحال عند الأمم القديمة كمصر واليونان والرومان. وهكذا كان الحال في العصور الوسطى الإسلامية كعصر الخلافة العباسية بوجه خاص. وهل نستطيع أن نتصور أن عصرا كهذا الأخير تعرض لكثير من ألوان الصراع السياسي، والصراع المذهبي، والصراع العقلي، والصراع الأدبي قد خلا من الأدباء الذين تأثروا بهذا الصراع أو ذاك، أو كانوا سببا من أسباب حدوثه آنذاك؟.

"وفي الأدب العربي بنوع خاص وجدنا أن إقناع الرأي العام كان يسلك في البيئات العباسية وغيرها من البيئات الإسلامية المتحضرة طريقة واحدة، هي

---

(1) لولا أن الصحافة الحقيقية ظهرت في أوروبا بعد ظهور المطبعة بنحو قرنين من الزمان لأن الصحافة ترتبط بنشأة الطبقة المتوسطة في المجتمع، وهي الطبقة التي تؤثر في وجود الرأي العام ومن ثم كانت الصحافة في أكثر الأمم رسمية في أول أمرها ثم أصبحت شعبية بعد ذلك والأخيرة هي الصحافة بالمعنى الصحيح.

طريقة (الرسائل الحرة) يكتبها أدباء وعلماء لهم في تاريخ الأدب العربي شهرة واسعة. وكانوا بشهرتهم هذه مصدر خطر على الدولة حينا، ومصدر أمن وصيانة لها حينا آخر. وهذه الرسائل التي كتبها أولئك الكتاب في موضوعات السياسة والدين والأدب والاجتماع هي- مع التجوز القليل - صحافة كاملة بالنسبة للعصور التي ظهرت فيها.

"ولك أن تتصور معي رجلا من كتاب القرن الثالث الهجري كالجاحظ- ما أجدره أن يكون أول صحفي ممتاز لو عاش في عصر كالذي نعيش فيه؟ بل إنني ذهبت إلى إنه كان بالفعل ذلك الصحفي الناجح الذي لم ينقصه يومئذ غير الاسم. كما نظرت إلى الأدب الجاحظي كله على أنه صحافة كاملة لذلك العصر"[١].

وإذا سمحتم لي فإني استطرد قليلا في وصف تلك البيئة العباسية الزاهرة في القرن الثالث. فأقول إننا نجد فيها أدباء ذوي أمزجة مختلفة، ونجد لكل واحد منهم كذلك (أصالته) التي يتميز بها. كما نجد مثل هذا تماما في العصر الذي نعيش فيه الآن.

ففي تلك البيئة العباسية الحية نجد من الأدباء من كان ذا مزاج أدبي خالص (كابن المقفع) صاحب كليلة ودمنة. ومنهم من كان ذا مزاج علمي خالص (كابن قتيبة) صاحب كتاب الشعر والشعراء، وكتاب أدب الكاتب. ومنهم من كان ذا مزاج صحفي خالص (كالجاحظ). وشتان بين هؤلاء الثلاثة الذين ذكرنا.

(فابن المقفع) أديب: وأدبه خلاصة مطالعاته، وتجاربه وتجارب آبائه وأسلافه من الفرس أصحاب الحضارة الفارسية القديمة. وهو يسلك في كتابه

---

(١) أدب المقالة الصحفية في مصر للمؤلف جـ ١ ص ٦ و٧.

أدبه طرقا فنية خالصة: كأن يتحدث على ألسنة الحيوان، وكان يعتمد أحيانا على الصور البيانية الرائعة، ونحو ذلك.

(والجاحظ) رجل شديد الانغماس في المجتمع. وهو في الوقت نفسه غزير الإنتاج إلى درجة تلفت النظر ونتاجه هذا شديد الصلة بالأفكار الشائعة في عصره. بل هو صورة دقيقة لما يحيط به في تلك البيئة العباسية من دين، وسياسة، وثقافة، وأدب، وعادات، وتقاليد اجتماعية راقية بكل ما في هذه الكلمة الأخيرة من معنى.

(وابن قتيبة) رجل عالم في اللغة، وعالم في النقد، وعالم في الحديث والتفسير، وغيرهما من العلوم التي جعلت منه (خطيب أهل السنة). ولكنه رجل حبس نفسه على العلم. ولم يشأ أن يزج بنفسه في المجتمع، كما فعل الجاحظ من قبل. ولم تكن لابن قتيبة موهبة الأدب الخالص كابن المقفع. ومن ثم لم يكن (أديبا) من طرازه. ولا كان صحفيا من طراز (الجاحظ) بالمعنى الذي نفهمه من كلمة الصحافة عند إطلاقها في الوقت الحاضر. وهكذا تحتاج العصور الزاهية من عصور الإنسانية في أية بيئة من البيئات الحضرية إلى رجال ذوي مواهب مختلفة، وأمزجة متباينة، حتى في الفن الواحد فقط كفن الأدب، أو الموسيقى، أو التصوير، أو الحرفة العملية، أو العلم النظري. غاية ما هنالك أن المخترعات الحديثة التي منها (المطبعة) يكون لها أثر واضح في تغيير أساليب الحياة نفسها، ولكنها لا تستطيع مطلقا أن تغير من طبائع الناس ذاتها، ولا أن تؤثر في أمزجتهم التي يولدون بها، ولا أن تعبث بمواهبهم التي فطروا عليها.

بل إني لأذهب إلى أبعد من هذا فأقول أن البيئات المتخلفة لا غنى لها – هي الأخرى– عن نشاط فكري أو أدبي يشبه النشاط الصحفي في مجموعه. فمصر في العصر العثماني– وهو الذي تواضع المؤرخون على تسميته بعصر

الانحطاط – نجد فيها طائفة من الرسائل الحرة التي يتبادلها العلماء المصريون في مسائل مهمة كانت تشغل بال الرأي العام المصري إذ ذاك؛ كمسألة الأضرحة والأولياء، هل هي حرام أم حلال؟ وكشرب القهوة، هل هي حلال أم حرام؟ ونحو ذلك. فإذا عرفنا أن كل رسالة من تلك الرسائل كانت لا تتجاوز عشرين صفحة، وأن كل واحدة منها كانت ردا على رسالة أخرى سبقتها استطعنا أن نسمي ذلك نشاطا صحفيا؛ طريقته الرسالة الصغيرة التي قامت قبل ظهور (المطبعة) مقام المجلة أو الجريدة. وفي هذه الأخبار وأمثالها ما يدل دلالة صريحة على أن العصور الإنسانية على اختلافها لا غنى لها عن النشاط الفكري أو الأدبي الذي لا فرق بينه وبين النشاط الصحافي إلا وجود (المطبعة) وما تؤدي إليه من انتشار الصحف على أوسع نطاق يمكن تصوره.

فنون الأدب وفنون الصحافة وتأثر بعضها بالآخر

كان القدماء يقولون: "من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحدا ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع في العلوم "ومن ثم توسعوا في مدلول الأدب حتى جعلوه مشتملا على أمور كثيرة، عبر عنها أحدهم بقوله. "الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف" وهذا هو الأدب (بالمعنى العام). أما الأدب (بالمعنى الخاص) فهو التعبير عن النفس البشرية وما يصدر عنها من فكرة أو عاطفة. بشرط أن يكون التعبير في ذاته جميلا. وله حظ ما من التفكير الإنساني على أية صورة من الصور. ومتى اتفقنا على هذه الأسس المتقدمة جاز لنا أن نحصر الأدب في فنونه التالية، وهي: فن الشعر، وفن الخطابة، وفن الكتابة. ولهذا الفن الأخير ضروب كثيرة منها:–

فن الرسالة، وفن القصة، وفن المقالة، وفن التاريخ، وفن النقد.

أما (الصحافة) فيمكن أن نحصر فنونها عن طريق فهمنا لأغراضها

وأهدافها. وللصحافة فيما نعلم أهداف رئيسية ثلاثة وهي:-

هدف الإخبار والإعلام، وهدف التعقيب أو الإرشاد، وهدف التسلية. وعلى هذا فينبغي أن يكون للصحافة فنون كثيرة أهمها اثنان، هما فن الخبر أو الإعلام، وفن المقال.

ثم أن المقال الصحفي نفسه أنواع كثيرة منها:

المقال العرْضي (بسكون الراء). وهو الذي يهدف فيه الكاتب إلى عرض فكرة معينة أو مشكلة محددة.

والمقال النقدي، وهو الذي يهدف فيه الكاتب إلى نقد الفكرة أو المشكلة.

والمقال النزالي، وهو الذي يهدف فيه الكاتب إلى مساجلة كاتب آخر حول مذهب سياسي، أو اجتماعي، أو علمي، أو أدبي الخ.

ولا شك أن هناك فنونا صحفية أخرى؛ كفن التقرير الصحفي، وفن التحقيق الصحفي، وفن الحديث الصحفي. ولنشر إشارة عابرة إلى تأثير كل فن من هذه الفنون الصحفية في الأدب.

(فالخبر) – من هذه الفنون – كان معروفا قبل الصحافة. ولكن الأدباء لم يعنوا بغير الأخبار المهمة النادرة. وكانوا إذا وصفوا واحد منها عولوا في ذلك على التهويل والمبالغة. ثم ظهرت الصحافة، وساد المجتمعات روح الاهتمام بالواقع من حيث هو. وأصبح الخبر يكتب بطريقة سهلة لا تكلف فيها إلا من حيث الفن الصحفي في ذاته. ولم يصبح من الضروري أن يكون هذا الخبر الذي تنشره الصحيفة زلزالا في مكان ما، أو معركة حربية دامية في مكان آخر. أو صاعقة من صواعق السماء، ونحو ذلك: بل أخذت الأخبار العادية اليومية تحتل مكانها في الصحف، وتغدو موضعا لعناية الصحفيين على اختلاف آرائهم ونزعاتهم.

وهكذا أصبحت الصحافة قائمة على الحقائق الثابتة، والوقائع المشاهدة. وتخلصت نهائيا من المبالغات التي اتسم بها الأدب القديم، والتهاويل التي اتصف بها. ثم تأثر الأدب الحديث بذلك، فبدأ للناس أدبا واقعيا لا خياليا في أكثره كما كان من قبل.

(والمقال) –كفن من الفنون الصحفية التي أشرنا إليها – كان يكتب قبل ظهور الصحافة بلغة فيها كثير من الوقار والتكلف، ثم أصبح بعد ظهور الصحافة يكتب بلغة فيها قدر كبير من الإيناس والحيوية والتظرف. وسنتحدث عن الفروق بين لغة الأدب ولغة الصحافة في محاضرة أخرى.

وأما موضوع المقال الصحفي فقد أصبح مخالفا كل المخالفة لموضوع المقال الأدبي. كان موضوع الأدب في العصور القديمة يمتاز بالفخامة، ويدور حول أشخاص الملوك والأمراء والسادة، فأصبح موضوع المقال الصحفي يمتاز بالوضوح والبساطة، ويشترط فيه أن يكون لصيقا بالمجتمع ذاته. بل غدا كل شيء – مهما كان تافها في هذا المجتمع – يصلح لأن يكون موضوعا للكتابة في الصحف.

(والتحقيق الصحفي) وهو فن يعتمد اعتمادا كاملا على الدقة التامة وعلى وصف الواقع الملموس، وعلى إيراد الشواهد التي يشتقها الكاتب من الحوادث التي أمامه، وعلى ربط هذه الشواهد كلها بحياة الأفراد في المجتمع الذي ينتظر قراءة هذه المادة، وبفهمها فهما جيدا – هذا التحقيق الصحفي كان ذا أثر بالغ في الاتجاه بالأدب وجهة موضوعية من جانب، واقعية من جانب آخر. وأكبر الظن أن هذه المادة الصحفية كانت أساسا صالحا لنشأة القصة الاجتماعية في جميع الآداب العالمية التي نعرفها اليوم، كما سنوضح ذلك بعد.

(والحديث الصحفي) وهو مظهر من مظاهر الفردية البارزة في المجتمع الديمقراطي– نعني فيه الصحيفة بالنابهين في هذا المجتمع أو البارزين فيه؛ حتى في

النواحي السيئة غير الصالحة، وتحاول الصحيفة أن تنقل آراءهم للجمهور. وفي ذلك ما يدنو بالصحافة من دائرة الواقع الملموس، ويمعن بها إمعانا في هذه الدائرة. وفي ذلك أيضا ما ينأى بالأدب الصحفي عن الفلك الذي دار فيه الأدب القديم؛ وهو الأدب الذي كان يأنف من الاهتمام بالأفراد؛ ما لم يكونوا حكاما أو سادة – كما قلنا.

(والتقرير الصحفي) وهو أكثر موضوعية من جميع الفنون الصحفية، كان هو الآخر تجربة من التجارب التي مر بها الأدب الحديث، وفتحت أمامه آفاقا جديدة، حلت فيها الموضوعات الاجتماعي محل الموضوعات الكلامية، أو اللغوية، أو الفلسفية أو البلاغية، أو الدينية.

والخلاصة أن الأدب الحديث بعد مروره بتلك التجارب الصحفية التي سبق ذكرها، اكتسب لنفسه شكلا جديدا، وقوة جديدة، ونزعة جديدة.

اكتسب لنفسه أسلوباً مخالفاً لأسلوب القدماء، واكتسب لنفسه حيوية جعلته محببا لأكبر عدد ممكن من القراء، واكتسب نزعة لها خطرها وفائدتها في العصر الحديث. وهذه النزعة هي الديمقراطية بدلا من الأرستقراطية مما سنوضحه بأكثر من ذلك في بعض المحاضرات القادمة إن شاء الله..

لغة الأدب ولغة الصحافة

اللغة التي يتكلمها البشر لغتان– لغة التخاطب اليومية، وهي ما اصطلحنا على تسميته (بالعامية)، ولغة الكتب أو الصحف، وهي ما اصطلحنا على تسميته (بالفصحى).

وإذا أنعمنا النظر في هذه الأخيرة وجدنا لها مستويات ثلاثة وهي:–

المستوى الأدبي، والمستوى العلمي، والمستوى العملي أو الاجتماعي: في الأول من هذه المستويات يقف (الأديب) بطالعنا بإحساساته وتأملاته، وموافقة الإنسانية، وتجاربه النفسية معبرا عن كل ذلك تعبيرا أساسه الجمال، وتعبيرا فيه كثير من الذاتية أو الأنانية. والأنانية هنا معناها عناية الأديب بنفسه، وبما يدور فيها من أحاسيس، وما يجول فيها من خواطر، بحيث يخرج لنا من كل ذلك بقصيدة رائعة، أو قصة جميلة، أو مقال أدبي، أو رواية تمثيلية. ونجد نحن في ذلك كله صدى لنفوسنا، ومرآة لإنسانيتنا. وفي (الثاني) من تلك المستويات الثلاثة نرى (العالم) وبيده أجهزة مخالفة كل المخالفة لأجهزة الأول، بها يستطيع أن يقوم بالتجارب، ويفرض الفروض، ويقيم الموازنات، ويخرج لنا من كل هذا بنتيجة علمية، أو بنظرية من النظريات التي يمكن أن تكون أساسا يبنى عليه العلم.

وفي (الثالث) من تلك المستويات يقف (الصحافي) لينظر إلى الأحداث والوقائع نظرة غيرية لا ذاتية. وهي في الوقت نفسه مخالفة لنظرة الأديب ونظرة العالم كل المخالفة. ذلك أن نظرة الصحافي إلى الأشياء قائمة على المنفعة التي تعود على المجتمع. وتعبيره عنها لا يشترط فيه جمال الأدب الخالص، ولا دقة العلم الخالص. لأنه إنما يعبر بلغة الحياة اليومية بكل ما في هذه اللغة من ألفة،

وبساطة، ووضوح، وحيوية. ومن هنا كان الصحافي من أقدر الناس على إفهام الجماهير على أوسع نطاق مستطاع.

وفي ذلك يقول الكاتب الإنجليزي (ديفو)، وهو من أشهر كتاب المقال في القرن الثامن العشر: "إذا سألني سائل عن الأسلوب الذي أكتب به قلت إنه الذي إذا تحدثت به إلى خمسة آلاف شخص ممن يختلفون اختلافا عظيما في قواهم العقلية – عدا البله والمجانين – فإنهم جميعا يفهمون ما أقول".

* * *

مهما يكن من شيء فالذي يعنينا في هذا الفصل إنما هو معرفة الفرق بين أسلوب الأديب، وأسلوب الصحفي. أو بعبارة أخرى معرفة الوسائل التي يعتمد عليها الأول، والوسائل التي يعتمد عليها الثاني[١].

فأما الوسائل التي يعتمد عليها الأديب فكثيرة يمكن أن يقع الكثير منها تحت عنوان واحد؛ هو (الخيال والصورة)، فالأديب هو وحده تقريبا صاحب الحق في أن يعتمد على التشبيه، والاستعارة، والمجاز، والكناية، وعلى ما يسمى عند النقاد المحدثين (بتجسيم المعاني)، وما يسمى عندهم كذلك (بتشخيص الجماد) والأديب هو وحده تقريبا صاحب الحق في أن يعتمد على الخرافات، وفي أن يتحدث على ألسنة الحيوان والطير، وفي أن يصل بخياله إلى حد الوهم أحيانا. فينقلنا – إن أراد – إلى عوامل أخرى، ويسبح بنا فيما شاء من أجواء، ورسم لنا من عوالم.

أما الصحفي فوسيلته في التعبير اللغوي واحدة. قلما يستطيع أن يعدوها

---

(١) سبق أن عالجت هذا الموضوع في كتابي (أدب المقالة الصحفية في مصر) في أجزائه الستة. وللقارئ أن ترجع بنوع خاص إلى الصفحات ٢٤٢– ٢٥٠ من (الجزء الأول) والصفحات ٢١٦– ٢١٩ من (الجزء الثاني) والصفحة ٢١٠ من (الجزء الرابع) والصفحة ٢٣٣ من (الجزء الخامس) والصفحات ٢٨٢– ٢٨٦ من (الجزء السادس).

إلى غيرها من الوسائل الأخرى. وهذه الوسيلة هي – كما قلنا – لغة الحياة الواقعة يتخذها أساسا للتعبير والإبانة، ويعتمد عليها في كتابة الأعمدة الكثيرة في الجريدة. والحياة الواقعة غنية دائما بالألفاظ الكثيرة التي تظهر فيها بين حين وآخر، ونتخذ لها معاني خاصة، وتصبح أقدر على التعبير عن هذه المعاني من الألفاظ القديمة أو الموروثة. وهذه الألفاظ التي تظهر في الحياة الواقعة تكون عامية حينا، وأجنبية حينا، ومنحوتة نحتا جديدا حينا ثالثا وهكذا.

فألفاظ: الديمقراطية، والدكتاتورية، والأرستقراطية، والإستراتيجية، والدبلوماسية. وألفاظ: الحرب الباردة، والتكتيك الحربي، والتكتيك السياسي الخ كلها جائزة الاستعمال في الصحافة. بل أن كاتب الخبر أو المقال في الصحيفة لا غنى له مطلقا عن هذه الألفاظ التي أصبح لها مدلول خاص في حياتنا اليومية، كما أصبح لها كذلك وحي خاص توحي به إلينا؛ بحيث إذا ذهبت تنحت لهذه المعاني ألفاظا عربية سليمة فإنك تفقدها مدلولها من جهة، وتسلبها القدرة على الإيحاء المطلوب من جهة ثانية.

على أنه من الجائز أن يصطنع الصحفي لغة الأدب الخالص أحيانا، ولكن ليس له أن يسرف إسراف الأديب في ذلك. فإذا جاز لهذا الأخير أن يستخدم الأصباغ الفنية الكثيرة في الكتابة؛ من سجع وجناس وتشبيه واستعارة وكناية، فإنه لا يجور للأول أن يفعل فعله إلا في القليل النادر. وإذا أردنا أن نحدد الفرق بين الأديب والصحفي في استخدام الأصباغ الفنية المعروفة، فسنرى أنه كالفرق بين الصورة ذات الألوان الكثيرة، من أحمر، وأصفر، وأزرق، وبنفسجي الخ وتلك صورة الأدب – والصورة ذات اللونين الأبيض والأسود فقط – وهذه صورة الصحافة. وقد سبق لي أن ضربت لكم مثلا يوضح الفرق بينهما في ذلك. ضربت لكم هذا المثل في أدبنا العربي القديم لا الحديث لتعلموا إن هذه

الفروق موجودة بين الناس منذ القدم، وأن الكتاب انقسموا من أجلها هذين القسمين الواضحين؛ وهما كتاب الأدب الخالص، وكتاب الصحف التي ليست من الأدب الخالص. الأولون يمثلهم ابن المقفع، والآخرون يمثلهم الجاحظ.

* * *

الخبر والمقال

سبق لي أن ذكرت لكم أن من أهم فنون الصحافة فنين وهما: فن الخبر وفن المقال. "أما الخبر" فيعتمد في كتابته على طريقة خاصة تبعد به عن طريقة المقال. الخبر عبارة عن حقيقة من الحقائق الواقعة، أو حادثة من الحوادث اليومية ينقلها الكاتب إلى القراء، ويتوخى فيها نوعا من الجذب عند العرض. كأن يكتب العنوان على نحو خاص، ويكتب تحت هذا العنوان عناوين أخرى توضحه وتكتسبه قدرا آخر من التشويق والإثارة، وهكذا.

ثم إنه عند كتابة الخبر ذاته، يتوخى الكاتب كذلك أن يكتبه على دفعتين، وبصورتين مختلفتين. أولاهما أدنى إلى الإيجاز والاختصار، والثانية أدنى إلى الإسهاب والإطالة التي يراد بها شرح ما سبق أن أوجزه الكاتب في صورته الأولى.

والخبر الصحفي – بوجه عام – يجب أن يكون في صورته الأولى هذه جوابا عن أسئلة خاصة تقدر الجريدة أنها في ذهن القارئ عند القراءة. وهذه الأسئلة هي (متى)، و(أين)، و(من)، و(كيف): فمتى حدث الحادث؟ وأين وقع؟ ومن الذي اشترك في إحداثه؟ وكيف كانت طريقة الحدوث؟ الخ. حتى إذا فرغت الجريدة من الإجابة عن هذه الأسئلة بطريقة سريعة وموجزة أصبح لها بعد ذلك أن تعمد إلى تفصيل ما أوجزت، وشرح ما أجملت.

وعلى هذا فكتابة الخبر الصحفي بعيدة في طريقتها عن كتابة المقال. ولا

غرابة في ذلك فالخبر – كما قلنا – حقيقة واقعة، وحادثة مشاهدة تتوخى الصحف أن تنقلها إلى القراء كما هي، وإن اختلفت هذه الصحف بعد ذلك في طرائق العرض من حيث هي.

و(أما المقال) فهو فن التعليق على هذه الأخبار، سياسية كانت أو اجتماعية، أو علمية. أو أدبية. ثم هو فن التوجيه والإرشاد توجيها لا يكون بطريقة الوعاظ والخطباء، ولا بطريقة المعلمين والآباء، ولكنه بطريقة الحديث الذي يكون عادة بين الأصدقاء والخلطاء، لا يستعلي أحدهم على الآخر، ولا يفهمه أنه يعظه أو يعلمه، أو يجره جرا إلى رأي معين، أو فكرة معينة.

ذلك أن الفرق كبير بين الكتاب والجريدة. فأنت مع الأول أمام معلم يعلمك ما لم تكن تعلم، أو يثبت في ذهنك بعض ما كنت تعلم. ولكنك مع الثانية أمام صديق ينهي إليك أنباء المجتمع الذي نعيش فيه، كما ينهي إليك أخبار المجتمعات الأخرى، ولا يقف بك عند هذا الحد، حتى يثير في ذهنك أسئلة كثيرة يساعدك على فهمها، وعلى الإجابة عنها، متوخيا في ذلك كله أن يكون معبرا بوضوح عما يسمى "بالرأي العام"، أو محاولا– جهد المستطاع– التأثير في هذا الرأي العام.

ومع هذا وذاك فلا يزدهر المقال إلا في عصور التقدم العقلي على أية صورة من صوره. فحيثما وجدت عناية تامة بالمقال فاحكم بأن هناك نشاطا فكريا في السياسة، أو العلم، أو الأدب ونحو ذلك. ومن أجل هذا لم تشهد إنجلترا نشاطا في كتابة المقال كما شهدته في القرن الثامن عشر، على أيدي كتاب من أمثال.– ستيل، وأديسون، وديفو، ومن إليهم. كما شهدت مصر نشاطا في هذا الباب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، على أيدي رجال من أمثال: الشيخ مُحَمَّد عبده، والسيد عبد الله النديم، والسيد على يوسف، ومن

نهج منهجهم، وسار على طريقتهم، وشغل بأفكاره الناس والحكومات.

ثم إن المقال الصحفي كان يهدف من قبل إلى مجرد التأثير في المجتمع الذي تعيش فيه الجريدة، فأصبح يهدف في وقتنا هذا إلى التأثير في دول العالم المتحضر كله متى أمكن ذلك. ومن ثم أصبح للمال أهميته البالغة في الدعوة السياسية لرأي معين، أو فكرة خاصة يقصد بها منفعة قطر بعينه، أو منفعة العالم كله. في بعض الأحيان.

* * *

تعريف المقال:

ولكن ما هو المقال الصحفي؟ وما السبيل إلى كتابته؟

سبق لي كذلك أن تعرضت لهذا الموضوع، فقلت عن المقال الصحفي إنه ليس موضوعا إنشائيا، ولا مقامة من المقامات المعروفة في الأدب العربي، ولا قصة، ولا حكاية، ولا فصلا من فصول كتاب أدبي أو علمي، ولا محاضرة من المحاضرات العلمية أو الأدبية، ولا ضربا من هذه الأضرب الأدبية المعروفة لها. إنما المقالة الصحفية عبارة عن فكرة يتلقفها الكاتب من البيئة المحيطة به، ويتأثر بها. وفي هذا الجو الوجداني للتلقف يعبر الكاتب عن هذه الفكرة بطريقة، حظها من النظام قليل، وحاجتها إلى الترتيب والتمحيص والتدقيق والبحث العلمي العميق أقل. فإنما المقالة حديث يوشك أن يكون عاديا، يعرضه الكاتب على قرائه كما يعرض لموضوع من الموضوعات التي يزجي بها وقت الفراغ مع بعض الجلساء. وحسب المحرر الصحفي أن يتحدث إلى قرائه في الأمور الخاصة والعامة حديثا فيه سخرية حينا، وفيه تفكير حينا، وفيه استطراد حينا، وفيه

مراعاة لمزاج القارئ وحاجاته آخر الأمر"[١].

والإنجليز يطلقون على المقال كلمة (**Essay**). ومعناها (محاولة) أي أنها شيء غير مكتمل، شيء يشبه المذكرات الخاصة والخواطر المتناثرة. وعلى القارئ دائما أن يكمل ما بالمقالة الصحفية من نقص، كما يكون على سامع القصيدة الغنائية أن يفعل مثل ذلك عند سماعه بيتا من الأبيات التي تتألف منها"[٢].

وانظر إلى تعريف معجم (لاروس) للمقال:

"هو اسم يطلق على الكتابات التي لا ينعي أصحابها التعمق في بحثها، أو الإحاطة التامة في معالجة موضوعاتها. وكلمة مقال تعني محاولة أو خبرة أو تطبيقا مبدئيا أو تجربة أولية".

وانظر إلى قاموس أوكسفورد كيف وصف المقال فقال:-

"هو إنشاء كتابي معتدل الطول في أي موضوع من الموضوعات، أو فرع من فروع المعرفة. وهو دائما ينقصه الصقل، ولذلك يبدو غير مهضوم ولا منظم الخ" ثم انظر إلى دائرة المعارف البريطانية كيف تقول:-

"المقال- كفن أدبي- هو الإنشاء المتوسط الطول، يكتب بالنثر عادة، ويعالج موضوعا بعينه بطريقة مبسطة وموجزة؛ على أن يلتزم الكاتب حدود هذا الموضوع، ويكتب عنه من وجهة نظره هو. والمقال - كفن صحفي - يهتم بالتفاصيل على حين يهتم المقال كفن أدبي بمجرد القيم".

---

(١) أدب المقالة الصحفية في مصر (للمؤلف) الجزء الثاني ص ٢١٦.

(٢) نفس المصدر المتقدم- الجزء السادس ص ١٨٤.

ويقول الكاتب الإنجليزي جونسون في وصف المقال: "ولا ينبغي أن يكون له ضابط من نظام، بل هو قطعة لا تجري على نسق معين، ولم يتم هضمها في نفس كاتبها" الخ.

مما تقدم نستطيع أن نستخلص الخصائص المهمة للمقال الصحفي في أغلب الأحيان. وهي خصائص يمكن أن نجمعها كلها صفة (العادية) في التعبير و(العادية) في التنظيم والتصميم، و(العادية) في التفكير. ومن هنا وصلت الصحيفة إلى كل يد، ودخلت كل بيت، ووضعت على كل مائدة. وذلك بخلاف الكتاب الذي احتفظ لنفسه بصفة التميز والاختصاص في جميع الظروف والأحوال. ومن ثم كانت الصحافة نعمة على الجماهير وسواد الناس، ولكنها أوشكت أن تكون في الوقت نفسه نقمة على الأدب الخالص، والعلم الخالص، والفن في عليا مراتبه[1].

بم تقدم النثر القديم وبم تقدم النثر الحديث؟

نحن نعرف من تاريخ الأدب العربي أن النشر الفني القديم إنما ولد ونما في أحضان الخلفاء والأمراء والوزراء، وعنيت به الحكومات الإسلامية منذ بداية

([1]) يعجبني في هذا الباب كتاب ألفه الأستاذ موريس هيولت (**Maurice Hewlele**) تحدث فيه عن فن المقالة في الأدب الإنجليزي فاتخذ لكتابه عنوانا في غاية الدلالة وهو (**The May Pole and The Collumn**) والترجمة الحرفية لهذا العنوان يصح أن تكون هكذا: "سارية الربيع والعمود". وبهذا العنوان فرق الكاتب تفرقة واضحة بين المقالة الأدبية والمقالة الصحفية؛ فشبه الأولى بسارية الربيع، وهي ذلك العمود الكبير الذي يتخذه الإنجليز رمزاً لعيد الربيع، يزينونه بالزهور البديعة من كل صبغ، والورود الجميلة من كل لون، فتبدو السارية وكأنها العروس في جلوتها. ثم شبه المقالة الصحفية بالعمود العاري من جميع هذه الزينة. وتأمل معي أيها القارئ لفظ "عمود" وقد استعاره الكاتب هنا للمقالة الصحفية على سبيل التورية. فلهذا اللفظ معنيان "أولهما" العمود بالمعنى المادي المعروف "وثانيهما" العمود بمعنى النهر الذي يكتب في صحيفة من الصحف.

أمرها عناية تامة. فابتنت له دورا وقصورا عرفت باسم "الدواوين" وسمي واحدها حينا باسم "ديوان الرسائل" وحينا آخر باسم "ديوان الإنشاء" وحينا ثالثا بأسماء أخرى.

وكان يتولى الكتابة في تلك الدور أو القصور صفوة من الناس لا يرقون إلى مرتبة الكتابة إلا بعد أن يؤخذوا أنفسهم بثقافة واسعة، ورياضة بالغة يصبح بها رئيس طبقة الكتاب – وهو الوزير في العادة – عنوان أمته في العلم والثقافة، كما هو عنوان أمته في الأدب والكتابة.

ومعنى ذلك باختصار أن النشر الفني العربي إنما نشأ نشأة أرستقراطية لا ريب فيها، وأن الحكومات الإسلامية في تلك العصور كانت تتولى حماية هذا الفن الأدبي منذ نشأته، وتبذل كل ما نستطيع في سبيل حمايته. ذلك كله في العصور الأولى للأدب العربي، أما في العصر الحديث، وهو العصر الذي قال فيه شوقي:

لكــل زمــان مضــى آيــة وآية هـذا الزمان الصـحف

فقد ظهرت الصحافة، والصحافة في ذاتها أداة شعبية ديمقراطية أكثر منها أداة رسمية ديوانية. وإذا كان لديوان الإنشاء أكبر الفضل في تقدم الكتابة العربية في العصور التي تشير إليها، فقد أصبح للصحافة أكبر الفضل في تقدم النشر الفني الصحفي في العصر الذي نعيش فيه. وإن كان الفرق عظيما بين الحالتين:

(الحالة الأولى) حين كان النشر الفني أرستقراطيا يرى نفسه وقفا على خدمة الملوك والأمراء والوزراء، أو يوشك أن يرى نفسه وقفا عليهم دون غيرهم من أفراد المجتمع.

(الحالة الثانية) وفيها أصبح النشر الصحفي ديمقراطيا يجد نفسه وقفا على خدمة الشعب. ومن ثم أصبحت الصحافة في عصرنا هذا سجلا لكل ما يدور بيننا، ومرآة تنعكس عليها آراؤنا وأفكارنا، وحركاتنا وسكناتنا وكتابا تقرأ فيه أخبارنا، وتعرف به آثارنا.

وفي اعتقادي أن هذه الحقيقة الأخيرة فوق أنها تصف لنا نشأة النشر الفني، وتفرق لنا تفرقة واضحة بينه وبين النشر الصحفي، فإنها ستوضح لنا بجلاء صورة الأدب الحديث بموضوعاته المختلفة، وأنماطه المتباينة، كما ستثبت لنا كذلك صدق هذه الدعوى التي سنحاول البرهنة عليها في بحثنا هذا؛ من أوله إلى آخر؛ وهي قولنا: (الصحافة المصرية صانعة الأدب المصري الحديث).

* * *

(وبعد) فإذا كانت "العادية" هي الصفة الغالبة على المقال الصحفي من حيث التفكير ومن حيث التعبير، وإذا كان من أهم أغراض الجريدة – أيا كان منزعها– هو التوجيه السليم والإرشاد القويم، وإذا كانت الصحافة بهذا الاعتبار الأخير "جامعة كبرى" تهدي الشعوب والحكومات سواء السبيل، نقول إذا صح كل ذلك فإن أيسر ما ينجم عنه أن تلتفت الصحف الكبرى في مصر وغير مصر إلى أن عليها دائما أن تستعين بالعلماء والخبراء في كل علم من العلوم وفن من الفنون، متى اتصل هذا الفن بحياة المجتمع، وكان له أثر في تقدمه وتطوره؛ فهؤلاء العلماء والخبراء هم الذين يجدون من أوقاتهم متسعا للتفكير في المشروعات العامة، وهم الذين يجدون من أعمالهم وتجاربهم وخبراتهم ما يمكن أن يهتدى به في تلك المشروعات العامة. أما الصحفيون فليس أمامهم من الوقت متسع لشيء من ذلك بحال ما.

ولكن: حين يكتب العلماء والخبراء لجريدة من الجرائد يتوخون طريقة التبسيط في الكتابة. وبدون ذلك لا يظفرون بالقارئ الذي يستطيع أن يتابع أقوالهم وأبحاثهم، أو ينتفع بتوجيههم وإرشادهم. وذلك في ذاته هو آخر دليل نقدمه على عظم الفرق بين المقال الصحفي من ناحية، والمقال الأدبي أو العلمي من ناحية ثانية،

بيئة الأدب والصحافة

تطلق كلمة "الأدب الحديث" على الآثار الأدبية التي اقترنت بظهور النهضة المصرية أو النهضات الشرقية. فمتى حدثت هذه النهضات؟ وما الدافع إليها؟ وما هي أهم الاتجاهات التي اتخذتها؟.

أما مصر فقد بدأت نهضتها في أوائل القرن التاسع عشر، وهو القرن الذي شهد أحداثا مهمة، منها حادث الحملة الفرنسية التي قادها الجنرال بونابرت إلى الديار المصرية، ومنها حادث ظهور مُحَمَّد علي ومحاولة الاستقلال عن الدولة العثمانية وانشغاله بإصلاح مصر على النظام الذي رآه في الأستانة قبل مجيئه إليها، إلى غير ذلك من الأحداث السياسية والفكرية والاجتماعية التي ستشير هنا إلى بعضها. ومهما يكن من شيء فإن اليقظة المصرية بدأت فعلا برغبة مصر في الانفصال عن الدولة العثمانية، وشعور المصريين يومئذ بحاجتهم القصوى إلى تأييد اللغة القومية؛ وهي اللغة العربية. وفي سبيل هذه الأمنية جاهد المصريون نوابا، وحكاما، وأدباء وصحافيين، وعلماء ومفكرين. وانتهت المعركة بانتصار العربية التي أصبحت لغة الحكومة، والكتابة، والعلم، والصحافة. وهذا النصر العظيم هو الذي حقق للبلاد قوميتها من جهة، ودفع بها إلى الأمام في طريق النهضة الصحيحة من جهة ثانية.

الحملة الفرنسية:

نعم، كانت "الحملة الفرنسية" نوعا من اللقاء بين الشرق والغرب، وذلك عن طريق مصر ذات الموقع الجغرافي العظيم الشأن، وهو الموقع الذي يعينها دائما على أن تقوم بدور الوسيط الثقافي بين الأمم. لكن من الحق هنا أن يقال

إن هذا اللقاء بين الشرق والغرب كان يحدث دائما على صور عدة: منها صورة الجاليات الأجنبية التي اختارت المقام بالديار المصرية وغيرها من الأقطار العربية، ومنها صورة البعثات التبشيرية التي استقر أكثرها في جبل لبنان خاصة، ومنها صورة سياسية كالتي حدثت في تاريخ (علي بك الكبير)؛ فقد استقل هذا الأخير بمصر سنة ١٧٧٧ وفتح اليمن والحجاز، وأصبح يلقب (بسلطان مصر وخاقان البحرين). "وأوفد مندوبين من قبله لمفاوضة البندقية وروسيا بغية عقد محالفات تضمن مصالح الطرفين. وقد حدث كل ذلك قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر بمدة تزيد على ربع قرن"[١] وهكذا.

والحملة الفرنسية هي التي أتت إلى مصر بالمطبعة العربية، والكثيرون من المؤرخين ينظرون إلى هذا الحادث على أنه عظيم الأثر في حياة مصر الثقافية، ولكن هذه الدعوى تفقد شيئا من الأهمية حين نعرف أن الحملة الفرنسية عندما باءت بالفشل عادت إلى بلادها ومعها المطبعة.

على أن للحملة الفرنسية فضلا لا سبيل إلى إنكاره مع ذلك، وهو هذا الكتاب الضخم المشهور بـ "وصف مصر"، وهو كتاب يقع في تسع مجلدات معها صور وخرائط ولوحات تقع في أربعة عشر مجلدا أخرى، غير أن مصر لم تنتفع بهذا الأثر العظيم إلا بعد موت العلماء الفرنسيين الذي قاموا بوضعه – لا خدمة للمصريين أنفسهم – ولكن خدمة للاستعمار الفرنسي كما نعرف.

وإذن فمبلغ القول في الحملة الفرنسية – من الناحية الثقافية – أنها كانت بمثابة هزة قوية شرع المصريون بعدها يعملون ويفكرون، ويفركون أجفانهم بعد نوم طويل. ومن هذه الناحية الأخيرة حق لبعض المؤرخين المحدثين أن ينظروا إلى

(١) آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع للأستاذ ساطع الحصري ص ٨١.

هذه الحملة على أنها سبب من أسباب انتشار الثقافة الفرنسية بالديار المصرية. ذلك أن الحملة وفدت على مصر بصورة فريدة من نوعها وحيدة في بابها – صورة حرص فيها الجنرال بونابرت على أن يكون العلماء الفرنسيون جزءا من الجيش الذي أتى لمحاربة المصريين. وذلك بصرف النظر هنا عن أعمال الوحشية التي اقترفها أولئك الجند، وهي أعمال أظهر الجبرتي اشمئزازه منها، وشدد النكير عليها[1].

ومع هذا وذاك فنحن مع القائلين بأن تأثر المصريين بالفرنسيين لم يكن سريعا كل السرعة، وبأن النهضة المصرية بدأت بشعور من جانب الأهلين بهذه الهزة التي صحبت الحملة. كما نقول عن النهضة أيضا إنها بدأت بداية صحيحة بانفصال الديار المصرية عن الدولة العثمانية. وشعورها يومئذ بمعنى جديد هو معنى (القومية). وقد غذى الأدب والعلم والصحافة فيما بعد هذا الشعور الأخير حتى بلغ غايته، وأتى ثمرته فيما بعد.

ظهور محمد علي

حدثنا التاريخ أن العلماء والأعيان اجتمعوا بمصر في هيئة مؤتمر وطني؛ وذلك في الثالث عشر من شهر مايو سنة ١٨٠٥ وقرروا خلع الوالي القديم "خورشيد باشا" وتعيين مُحَمَّد علي باشا واليا عليهم. وذهب وفد منهم إلى منزله، وأبلغوه القرار، وصاحوا جميعا بصوت واحد: "لا نرضى إلا بك، وتكون واليا علينا بشروطنا". ثم ألبسه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي شارة الحكم، ونودي به واليا على مصر. منذ ذلك الوقت فكر مُحَمَّد علي في أمر يهمه أولا، وهو "إصلاح الجيش"، وكان هذا الإصلاح نواة لجميع الإصلاحات الأخرى

(١) الجبرتي ج ٣ ص ١٠، ٢١، ٣٠، ٣٤، ٣٥، ١٠١، ١٤٣، ١٤٦، ١٦٢، ١٦٨، ٢١٤.

فيما بعد. ومنها إصلاح التعليم، وإصلاح الزراعة، وإصلاح الصناعة، وإصلاح التجارة الخ.

والمهم أن مُحَّد علي أصبح يعتمد في إصلاحاته كلها على الفلاح المصري؛ فخلق منه الجندي، والضابط، والطبيب، والمهندس، والحاكم، والعالم، والصحفي، والأديب الخ.

ولا يعنينا نحن من هذه الإصلاحات غير ما يتصل بالتعليم؛ فقد أراد مُحَّد علي أن يظفر لنفسه بجيش مصري قوي؛ ففكر في إمداده بالضباط، والمهندسين، والأطباء، والمدرسين والإداريين والصناع الفنيين الخ. وأدرك الرجل يومئذ أن من العبث أن يفتقد هؤلاء وهؤلاء في أروقة الأزهر فاتجه تفكيره إذ ذاك إلى إنشاء (المدارس الحديثة) وتنظيم (البعثات العلمية إلى أوربا)، والاعتماد على (حركة الترجمة). وتلك هي الأسس الثلاثة للنهضة الثقافية التي شملت مصر منذ ذلك الوقت.

على أن المدارس الحديثة إنما استمدت تلاميذها أول الأمر من الأزهر، فمنه أخذت مدرسة الطب معظم تلاميذ الدفعة الأولى، ومنه أوفد مُحَّد علي ثلاثة رجال في بعثة إلى أوربا سنة ١٨٢٦. لم ينجح منهم غير فتى له شأن أي شأن؛ هو (رفاعة الطهطاوي). ومن الأزهر استمدت المدارس الحديثة مدرسين للغة العربية. ومنه استمدت حركة الترجمة شيوخا لتصحيح الكتب المترجمة الخ[1].

"من أجل ذلك نعمت مصر في أيام مُحَّد علي بنهضة علمية مباركة التقى فيها التياران الشرقي والغربي. ومن التقائهما معا نشأ الأدب المصري الحديث

---

(١) راجع كتاب تاريخ التعليم في عصر مُحَّد علي: للدكتور أحمد عزت عبد الكريم ص ٥٧٨.

والصحافة المصرية الحديثة في القرن التاسع عشر. كان التيار الشرقي يتمثل في العلوم النقلية، وفي تعليم اللغة العربية، وفي بعض الكتب الأدبية القديمة، من نحو مقامات الحريري، وبديع الزمان؛ ودواوين الشعراء الفحول كالفرزدق وجرير والمتنبي وأبي تمام وأبي العلاء، ومن نحو ديوان الحماسة لأبي تمام الخ.

وكان التيار الأوروبي يتمثل في ترجمة كثير من الكتب التي احتاج إليها التعليم الحديث، وقام بتصحيحها الأزهريون، كما ظهر التيار الأوربي كذلك في ترجمة بعض الكتب الأدبية الأوربية إلى اللغة العربية، وكانت هذه الترجمات ذات صبغة علمية في أكثرها أيام مُحَمَّد علي، لحاجة المدارس الحديثة ذلك، ثم أصبحت ذات صبغة أدبية في أكثرها أيام إسماعيل[1].

* * *

السوريون في مصر

وفي بيان حركة التنوير التي انتفع بها المصريون في ذلك الحين لا ينبغي للباحث المنصف أن يغفل الإشارة إلى (السوريين) الذين نزحوا إلى الديار المصرية ليتمتعوا فيها بحرية نسبية كانوا محرومين منها في بلادهم الأصلية، وفي مصر أعان السوريون على ظهور (الصحافة) واتخذوا منها ومن جهودهم الأدبية الأخرى أداة لنشر الثقافة الأوربية التي تعلموها في بلادهم، وكانت هذه الثقافة الأجنبية فرنسية الطابع في أكثرها. وإن تنسى مصر، لا تنسى لأولئك السوريين اهتمامهم فوق هذا كله بالقصة وبالمسرح، وذلك على النحو الذي ستشير إليه عند الكلام عن (الصحافة والقصة في مصر).

---

(1) آداب المقالة الصحفية في مصر ج ١ ص ٦٦- ٦٧.

ظهور السيد جمال الدين الأفغاني

بين مارس سنة ١٨٧١ وأغسطس سنة ١٨٧٩ ظهر في مصر فيلسوف الشرق جمال الدين الأفغاني، وقضى بها ثمان سنين "كانت من خير السنين بركة على مصر وعلى العالم الشرقي". "لا بما أفاد من جمال مظهرها وحسن رونقها وسعادة أهلها، ولكن لأنه فيها كان يدفن في الأرض بذورا تتهيأ في الخفاء للنماء، وتستعد للظهور ثم الازدهار. فما أتى بعدها من تعشق للحرية، وجهاد في سبيلها فهذا أصلها. وإن وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت في نموها"[1].

في هذه الفترة التي قضاها جمال الدين في مصر أنشئ صندوق الدين ١٨٧٦، وأنشئ نظام الرقابة الثنائية في نفس السنة، وأفضت الرقابة الثنائية إلى تأليف وزارة مختلطة برياسة نوبار. وقد حفزت هذه الظروف وأشباهها همة المصريين، وعلمتهم الاشتغال بالسياسة منذ ذلك الحين.

جاء السيد جمال الدين – وكان من طبعه الانغماس في السياسة – فزاد المصريين اهتمام بشؤون بلادهم، وتفكيرا في التخلص من النفوذ الأجنبي.

وبقي الأفغاني يلقي دروسه على طلبته في الأزهر وعلى أصدقائه في منزله ومنازل الكبراء والفضلاء في عصره، حتى نبغ على يديه طائفة من شباب مصر كانوا أعمدة نهضتها الفكرية والسياسية فيما بعد. ومن هؤلاء على سبيل المثال: مُحَمَّد عبده، وعبد الكريم سلمان، وسعد زغلول، وإبراهيم الهلباوي وأديب إسحق، ويعقوب بن صنوع، وغيرهم.

قرأ السيد مع تلاميذه كتبا في المنطق والفلسفة والتصوف والهيئة الخ. "ويظهر أن هذه الكتب لم تكن لها قيمة في ذاتها، إنما قيمتها في أن كل فصل

---

(١) زعماء الإصلاح للأستاذ أحمد أمين ص ٦٠– ٦١.

من فصولها، أو جملة من جملها كانت تكئة يستند عليها الشيخ في شرح أفكاره وآرائه، ونظرته إلى العالم كوحدة. فهذه الكتب التي قرأها إنما قيمتها في نفس جمال الدين. والدنيا تتلون بلون منظار الرائي. والطبيعة كلها مفتوحة أمام أعين الناس كلهم. ولكن لا يفهمها إلا القليل"[١].

الحق أنه بالتقاء التيار الأوربي بالتيار الشرقي بالتيار السوري، بالتيار الذي أتى به السيد جمال الدين الأفغاني نشأ العقل المصري الحديث، والأدب المصري الحديث.

الصحافة المصرية

ونحن نعرف أن الصحافة نشأت في مصر على يد الحملة الفرنسية، ولكن ما يقال في المطبعة العربية التي أتت بها الحملة إلى مصر، ثم جلت عنها بجلاء هذه الحملة يقال مثله في الصحافة أيضا. فقد كانت هذه الصحافة فرنسية خالصة لا يقصد بها إلا الفرنسيون المقيمون بمصر وحدهم. أما المصريون أنفسهم فلم يكن لهم علم بها، ولا كانت لهم قدرة على فهمها. ولعله من أجل ذلك فكر القائد (مينو) في إصدار صحيفة باللغة العربية، وعهد إلى الشيخ الخشاب في الأزهر أن يتولى تحريرها بنفسه، ولكن هذه الصحيفة بقيت جنينا في بطن الحملة الفرنسية لم يقدر له الخروج منها.

وما إن استقر لمحمد علي الأمر في مصر حتى أخذ يفكر في إنشاء (جورنال الخديو) على غرار الصحف الفرنسية التي صدرت من قبل، ومن هذه الصحف (بريد مصر) وصحيفة العشريات **Les Decades** ثم ما لبث (جورنال الخديو) أن تحول على يد مُحَمَّد علي إلى جريدة (الوقائع المصرية) وكان ذلك سنة ١٨٢٨ ميلادية.

---

(١) المصدر المتقدم ص ٦٣- ٦٤.

وبقيت الصحافة المصرية رسمية على هذا النحو إلى أن ظهرت الصحافة الأهلية أو الشعبية. وكانت هذه – في أول الأمر – صورة من الصحافة الرسمية. ثم استقلت بعد شيئا فشيئا بشخصيتها. وكانت جريدة وادي النيل لعبد الله أبي السعود أولى الجرائد الشعبية ظهورا في مصر سنة ١٨٦٦، وهي السنة التي شهدت (مجلس شورى النواب) الذي أنشأه إسماعيل، وعلى هذا المجلس الأخير، وعلى الصحافة الشعبية التي شجعها إسماعيل اعتمد الرجل في محاربة التدخل الأجنبي ومحاربة الدولة العثمانية. وتوالت بعد ذلك الصحف الأهلية المصرية، وتبع بعضها بعضا في الظهور فكان منها على سبيل المثال:

جريدة نزهة الأفكار لعثمان جلال وإبراهيم المويلحي سنة ١٨٦٩. وجريدة الوطن لميخائيل عبد السيد. وجريدة الأهرام لبشارة تقلا سنة ١٨٧٥. وجريدة روضة الأخبار لمحمد أنسي ابن عبد الله أبي السعود سنة ١٨٧٥. وجريدة مصر لأديب إسحق (بوحي من جمال الدين الأفغاني) سنة ١٨٧٧. وجريدة التجارة لأديب إسحق وسيلم النقاش في سنة ١٨٧٨. وجريدة التنكيت والتنكيت للسيد عبد الله النديم سنة ١٨٨١. وجريدة اللطائف للنديم كذلك سنة ١٨٨٢. وجريدة الأستاذ للنديم أيضا سنة ١٨٩٢. ثم ظهرت جرائد مصباح الشرق لإبراهيم المويلحي، والمؤيد للسيد علي يوسف، واللواء لمصطفى كامل، والجريدة لأحمد لطفي السيد، والأخبار لأمين الرافعي، والبلاغ لعبد القادر حمزة الخ.

وفي أحضان الصحافة الشعبية المصرية نشأ الأدب المصري الحديث على النحو الذي ستشرحه المحاضرات القادمة بمشيئة الله تعالى.

حقيقة كان هناك أدب مصري لا يمت للصحافة بصلة، ومنه الرسائل الإخوانية التي كانت تكتب بلغة أدبية فيها كثير من الزينة اللفظية والمعنوية.

ومنه بعض الكتب، العلمية أو الأدبية التي كتبها أمثال رفاعة الطهطاوي، وعلي مبارك، وعبد الله فكري، وحفني ناصف ومن إليهم.

غير أن هذه الكتب الأخيرة – فضلا عن قلتها إلى درجة كبيرة – كتبت بلغة قديمة، وأساليب غريبة حتى على المثقفين أنفسهم، ومن ثم لم يكن لها من الأثر في عقول المصريين ما يستحق الذكر. نستثني من ذلك كتابا واحدا فقط؛ هو (رحلة الطهطاوي إلى باريس)، وستأتي الإشارة إليها. تلك بعض سمات البيئة الفكرية التي نشأ فيها الأدب الحديث والصحافة المصرية.

بقي أن نضرب المثل على هذه البيئة بشيخ الأدب والصحافة، ورائدهما الحقيقي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ونعني به رفاعة الطهطاوي، ثم نضرب المثل بشيخ الأدب والصحافة وزعيمها الحقيقي في النصف الثاني من ذلك القرن، ونعني به السيد عبد الله النديم، ولا يتسع المجال لأن نضرب أمثلة أخرى.

رفاعة الطهطاوي ١٨٠١- ١٨٧٣

ولد رفاعة بمدينة طهطا من مدن الصعيد، وذلك في السنة الأولى من سني القرن التاسع عشر، فكأن ميلاده كان إيذانا بأن هذا القرن سيشهد نهضة قوية، هي تلك النهضة التي رفع الرجل لواءها، وكان البطل الأول لها، وكان من حسن حظ رفاعة أنه تتلمذ في الأزهر للشيخ حسن العطار، وكان العطار شيخا طلعة، رأى بعيني رأسه آثار الحملة الفرنسية، ودهش لها، وأحس في أعماق نفسه كأن هاتفا يقول له: لا بد أن تتغير بلادنا، ويتجدد لها من المعارف ما ليس لها. وكان الشيخ العطار كلفا بعلم الجغرافيا وعلم التاريخ، فطبع ذلك في نفس تلميذه رفاعة. وحين طلب إلى هذا التلميذ أن يكون إماما لأول بعثة علمية إلى باريس، وذلك في ١٤ أبريل سنة ١٨٢٦ أوصاه أستاذه بتسجيل كل ما تقع عليه عينه في تلك المدينة، وأطاع التلميذ نصيحة أستاذه وطفق يسجل

كل مشاهداته، حتى تألف له منها الكتاب المعروف باسم تخليص الإبريز في تلخيص باريز. أو "رحلة رفاعة" التي أشرنا إليها.

وصف الطهطاوي في كتابه هذا المجامع العلمية الخمسة وهي: أكاديمية اللغة الفرنسية، وأكاديمية العلوم الأدبية، وأكاديمية العلوم الطبيعية والهندسية، وأكاديمية الصنائع الطريفة، وأكاديمية الفلسفة. كما وصف في كتابه دور الكتب والمتاحف العامة، ومعاهد العلم، والمعالم المهمة بالمدينة بوجه عام الخ.

وكان الطهطاوي في أثناء وجوده بباريس حريصا على ملازمة العلماء، وكان أدناهم إلى نفسه وأعلقهم بقلبه، رجلان، هما مسيو شومار، ومسيو شواليه. فعول عليهما، والانتفاع الكامل بهما، وقرأ مع الأخير منهما أكثر من ثلاثة وثلاثين كتابا في التاريخ، والجغرافيا، والهندسة، والرياضة والمنطق، والفلسفة، والاجتماع، والأدب، والقانون، والفنون الحربية الخ.

وأكثر من هذا وذاك أن رأينا رفاعة الطهطاوي – وهو في باريس – يشهد ثورة من ثورات فرنسا المهمة، هي الثورة المعروفة في التاريخ الفرنسي (بالأيام الثلاثة المجيدة). وفيها ثار الشعب الفرنسي على الملك (شارل العاشر) ووزيره (بولنياك). وكان هذان الرجلان ينزعان في فرنسا – مهد الثورة – إلى الملك الاستبدادي، ويهدفان من وراء ذلك إلى قتل بذور الثورة الفرنسية. ولكن الشعب الفرنسي لم يمكنهما من ذلك، بل أطاح بعرش الملك شارل وأقام مكانه الملك لويس فيليب.

ولم يفت الطهطاوي أن يصف هذه الثورة في كتابه هذا فجاء كتابا مملوءا بالمشاهدات العجيبة، والفوائد الجليلة، والآراء الخطيرة: حتى "لننظر نحن إلى هذا الكتاب على أنه من خير الكتب التي كان لها أثر كبير في تكوين العقل المصري الحديث، بما اشتمل عليه من أفكار لا عهد للمصريين بها، ومبادئ

سياسية واجتماعية لا يعرفونها"[1].

وعاد الطهطاوي إلى بلاده ليقود بنفسه (جيش الثقافة)، وكان هذا الجيش يتألف يومئذ من المترجمين، والعلماء، والأدباء، ورجال الصحافة، واشترك الطهطاوي اشتراكا فعليا ورئيسيا في جريدتين رسميتين؛ هما جريدة (الوقائع المصرية) ومجلة تدعى (روضة المدارس). والأخيرة أشبه ما تكون بمجلة جامعة تعني بنشر الفصول الأدبية والعلمية، يكتبها الصفوة المهدية من رجال العلوم والآداب، وتتألف من كل مجموعة منسقة من هذه الفصول كتب يختص بعضها بالطب، وبعضها بالهندسة، وبعضها بالطبيعة، وبعضها بالتاريخ وبعضها بالعقائد، وبعضها بالآثار وهكذا. ويطول بنا القول لو أردنا أن نصف جهد الطهطاوي في النواحي الثلاث: بوصفه أول رائد للنهضة الحديثة، أول رائد للترجمة، وأول رائد للصحافة.

* * *

السيد عبد الله النديم ١٨٤٣- ١٨٩٣

هو ابن نجار أو خباز اسمه (مصباح) قيل أن نسبه ينتهي إلى إدريس الأكبر من أسباط الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ. ولد بالإسكندرية وأتم حفظ القرآن في التاسعة من عمره. ثم ذهب به أبوه إلى جامع إبراهيم باشا حيث درس الفقه والأصول والمنطق. ولكن الفتى لم يصبر طويلا على هذه الدراسة حتى خرج من الجامع إلى الشارع – أو إلى الحياة الواقعة التي كانت له بمثابة الجامعة الكبرى. تعلم فيها، كثيرا ولاحظ فيها كثيرا، ودرس فيها كثيرا، وعرف فيها الناس والأشياء معرفة هيأته لأن تبوأ المكانة التي ادخرها له القدر؛ وهي مكانة الصدارة في الصحافة والأدب.

---

(١) أدب المقالة الصحفية ج ١ ص ٥٥- ٥٦.

وحياة هذا الرجل أوسع من أن تختصر في صفحات، لأنها حياة بنيت على المغامرات والمجازفات والمفاجآت، ومازال الرجل في تقلباته ومغامراته حتى أصبح يوماً ما فإذا به الناس في الإسكندرية- مسقط رأسه- لا يشتغلون بالأسمار والعبث الذي كانوا يشتغلون به قبل ذلك. بل أصبحوا يتحدثون يومئذ في أمور كثيرة، هي أدنى إلى الجد منها إلى اللهو.. فهم يتحدثون في الشورى، وصندوق الدين، والمراقبة الثنائية، والوزارة المختلطة، ثم في الظلم، وفي الجهل وفي الذل والاستعباد والتدخل الأجنبي، والسيطرة الأوروبية الخ.

رأى النديم ذلك فترك اللهو والدعابة، وانغمس فيما انغمس فيه القوم من شؤون الجد والسياسة. وكان أول ما فعله من ذلك أن اشترك- وهو بالإسكندرية- مع أديب إسحق وسليم النقاش في صحيفتي "المحروسة" و"العصر الجديد" اللتين صرحت بهما نظارة الداخلية للأخير.

وأكثر من هذا وذاك أننا وجدنا النديم يشترك في جماعة سرية، هي جماعة "مصر الفتاة" كان من أعضائها أديب إسحق وسليم النقاش، وكانت لها صحيفة باسمها يقوم بتحريرها أديب إسحق ومعه النديم. وأصدرت هذه الجماعة السرية بياناً باسم "اتحاد الشبيبة المصرية" شكت فيه من فساد نظام القضاء، ومن قصور التعليم العام. وطالب البيان بسن قانون ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبالعمل على إيجاد ما يسمى بالمسئولية الوزارية، وبعدم التعدي على الحريات الخاصة والعامة، ومنها حرية الصحافة. كما طالب البيان بإنشاء مجلس نواب يكون كل أعضائه بالانتخاب، والظاهر أن عددا كبيراً من جماعة مصر الفتاة انضموا بعد ذلك إلى الحزب الوطني. وكان أعضاء هذا الحزب في الأصل يكونون جماعة سرية أخرى، قوامها (الفلاحون الضباط) ممن لهم علاقة بالأمير حليم،

وذلك حول سنة ١٨٧٩ وكان من بينهم أحمد عرابي، وعبد العال، وعلي فهمي[1].

والمهم أن النديم استطاع فيما بعد أن يخرج (مصر الفتاة) من السر إلى العلانية وأن يطلق على هذه الجمعية السرية اسم "الجمعية الخيرية الإسلامية". وهي غير الجمعية الخيرية المعروفة الآن في مصر بهذا الاسم. وأعلن النديم يومئذ أن الغرض من إنشاء هذه الجمعية إنما هو إنشاء مدرسة لتعليم الفقراء بالمجان، وأن من أغراضها كذلك بث الروح الوطنية في البلاد.

وما زال النديم يعمل في ميدان التعليم حتى تركه إلى ميدان الصحافة مرة أخرى فأصدر مجلته "التنكيت والتبكيت"، وهي المجلة التي تحولت في أثناء الثورة العرابية إلى "مجلة اللطائف".

ومنيت الثورة العرابية بالفشل، وفر النديم من مصر، وظل مختفيا عنها إلى أن أتى الخديو عباس وأصدر العفو عنه، فعاد النديم إلى بلاده وأصدر صحيفته الثالثة "الأستاذ"، فكانت صورة جديدة من صحيفته الأولى "التنكيت والتبكيت".

عني النديم في صحيفته الأولى بالإصلاح الخلقي والاجتماعي، وفي الثانية بالثورة العرابية. وعاد في الثالثة إلى الإصلاح الاجتماعي، واهتم إلى جانب ذلك بالسياسة ومقاومة الاحتلال.

وكان النديم قبل أن يزج بنفسه في مضمار الصحافة يكتب باللغة القديمة المعروفة، وهي لغة جل اعتمادها على السجع والجناس والطباق والاستعارة، والتضمين والاقتباس ونحو ذلك. ثم منذ اشتغل بالصحافة عدل عن هذا الأسلوب، وكتب بأسلوب آخر؛ هو أدنى إلى الحديث أو الخطابة. ولم يكتف بذلك حتى أخذ يكتب باللغة العامية التي يتكلمها الناس في المدن والقرى.

---

(1) Landou: The Pas1! Mae nto and partieo in Eghtp p, 89.

ونحن حين نراجع العدد الأول من أعداد مجلة "التنكيت والتبكيت" على سبيل المثال نرى الألوان الصحفية الآتية: نرى مقالا بعنوان "مجلس طبي على مصاب بالإفرنجي"[1] دخل به النديم في صميم المسألة المصرية، وهي مسألة الديون التي تكبدها إسماعيل. وعبر بلفظ "الإفرنجي"- وهو اسم لمرض الزهري- عن الخراب الذي حل بالمصريين بسبب الديون.

وكان هذا المقال موجها إلى الخاصة من القراء، ومكتوبا باللغة العربية التي تفهمها هذه الطبقة الممتازة من الناس، ثم يرى القارئ في هذا العدد حكاية صغيرة مكتوبة باللغة العامية عنوانها "عربي تفرنج" وأخرى مثلها عنوانها "سهرة الأنطاع"، وثالثة بعنوان "تخريفة الجنون فنون"، ورابعة بعنوان "محتاج جاهل في يد محتال طامع". وكل هذه الحكايات موجهة إلى العامة، والقصد منها هو تنبيه الأذهان إلى تلك العيوب التي تفشت في الريف المصري بسبب انتشار الجهل بين أهله.

والمقال أو الحكاية في جريدة النديم هذه تنقسم قسمين: قسم "للتنكيت" بمعنى السخرية من هذه العيوب، وقسم "التبكيت" بمعنى التوبيخ الذي توجه به النديم إلى المصريين الذين يوصفون بهذه العيوب. ولن نتسع هذه المحاضرة لإيراد النماذج الكاملة من صحافة النديم بنوعيها الفصيح والعامي، أو الجاد والهازل فليرجع إليها من أراد[2].

ولا تستطيع أن تترك هذا المجال دون أن نشير هنا إلى فكرتين مهمتين كان لهما تأثير مهم في البيئة الأدبية والصحافية أما أولاهما فكرة:

---

(1) سلامة النديم ج ١ ص ٧٩.

(2) سلامة النديم بجزأيه. وأدب المقالة الصحفية في مصر ج ٢ ص ١٤١- ١٦١ و١٧٥- ٢٠٥.

الجامعة الإسلامية

وهي لفظ أطلقه الأوربيون في صحفهم ومؤلفاتهم على نهضة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها قصد إعادة المجد القديم للدول الإسلامية من جهة، والتخلص من الاستعمار الأوربي في ذاته من جهة ثانية.

والحقيقة أن فكرة التكتل الإسلامي كانت بعيدة عن أذهان المسلمين عامة والمصريين منهم خاصة، ولم يكونوا مؤمنين بتحقيقها، ولا أنسوا من أنفسهم القدرة على تحقيقها. ومع هذا فقد وجدنا الإنجليز من دون الأوروبيين جميعاً يظهرون تخوفهم على لسان كرومر من هذا التكتل الذي صرحت الصحف المصرية مرارا باستحالته، وبأن الحروب الصليبية –كما قال السيد علي يوسف في المؤيد– قد انتهت إلى الأبد.

"فالجامعة الإسلامية إذن ليست في الواقع إلا شعورا عاما لدى المسلمين جميعا بالظلم، وشكايات متكررة من وقع هذا الظلم، ورغبة عامة في النهوض بالأمم الإسلامية للتخلص من آثار الظلم إلى الأبد[1].

ولذا فكر المسلمون حقيقة في أن تكون لهم رابطة روحية تربط بينهم، وأن يكون لهذه الرابطة الإسلامية قيادة عامة تقودهم. ومن أولى يومئذ من الدولة العلية بهذه القيادة العليا؟

ولكن الدولة العلية في ذاتها علة العلل في نظر الأوروبيين، وحائل كبير دون الأغراض الاستعمارية التي لهم في الأمم الشرقية. ومن هنا جاءت عداوة الدول القوية للدولة العلية. وكان من سوء الحظ أن هذه الدولة أصبحت من الضعف بحيث أطمعت فيها جميع الدول الأوربية، ومن هنا ظهر في الأفق السياسي

(1) أدب المقالة الصحيفة في مصر ج ٥ ص ٣٠.

"بالمسألة الشرقية"، وأصبحت هذه المسألة جزءًا من فكرة الجامعة الإسلامية.

وكتب الزعيم الشاب مصطفى كامل كتابا في هذه المسألة، وشرحها من وجهة نظره شرحا وافيا ثم قال.

"فواجب المسلمين أن يلتفوا جميعاً حول راية الخلافة الإسلامية المقدسة، وأن يعززوها بالأموال والأرواح؛ ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم. وفي بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية ذاتها"[١].

ذلك إذن هو السر في أن مصر بقيت طيلة القرن التاسع عشر عثمانية النزعة بهذا المعنى. وبهذه النزعة تأثر الأدب المصري والصحافة المصرية؛ فقد آمن بها الشعراء المصريون من لدن أبي النصر، وعبد الله فكري، إلى إسماعيل صبري وحافظ إبراهيم وأحمد نسيم وأحمد شوقي. كما آمن بها الكتاب من لدن أديب إسحق وعبد الله النديم ومحمد عبده، إلى السيد توفيق البكري والسيد علي يوسف ومصطفى كامل وجورجي زيدان. وفي هذا المعنى نفسه كتبت صحف مصر والتجارة والمحروسة والعصر الجديد والأستاذ ومصباح الشرق والمؤيد واللواء والأهرام.

أما في غير مصر من الأقطار العربية فقد آمن بهذه الفكرة كثيرون ومنهم فرح أنطون في مجلة الجامعة العثمانية، وفارس الشدياق والشيخ ناصيف اليازجي وعبد الحميد الرافعي في جرائد أخرى.

القومية المصرية

بقيت الفكرة السابقة مسيطرة على العالم الإسلامي عامة، ومصر خاصة حتى ظهرت في الميدان فكرة أخرى دعت إليها ضرورات سياسية قصوى. وهذه

---

(١) كتاب (المسألة الشرقية) لمصطفى كامل من ٣٠.

الفكرة الأخيرة هي فكرة (القومية المصرية). وكان من أعظم القائلين بها، وأخطر الداعين لها "أحمد لطفي السيد" محرر "الجريدة".

"فكر الأستاذ لطفي السيد طويلا في أوضاع مصر السياسية وخرج من تفكيره هذا بعقيدة جديدة تخالف عقيدة الزعيم الشاب مصطفى كامل، وخلاصتها: أن علينا نحن المصريين أن نترك فرنسا وإنجلترا والدولة العلية، وعلينا أن نعتمد على أنفسنا فقط في الحصول على حقنا في الدستور، وحقنا في الحرية.. لا بد لنا من ذلك وهل لنا أن نطلب من غيرنا أن يأتي ليحرر نفوسنا من الرق، وقلوبنا من عبادة القوى. كأننا كما ظنوا خطأ بنا، نبتغي أن يأتينا الاستقلال ونحن نيام".

وسرت هذه الفكرة في نفوس المصريين، واقتنع بها الكثيرون منهم، وتجاوز تأثيرها الميدان السياسي إلى الميدان الفكري والأدبي والاجتماعي، فمنذ ذلك الحين طفق كثيرون من المصريين يعتزون "بمصريتهم". وغالى بعضهم في ذلك إلى درجة الفخر "بفرعونيتهم" إلى جانب الفخر "بعروبتهم"، وشجعهم على ذلك ما كشف عنه التاريخ المصري القديم من حضارة قدماء المصريين في وقت كانت فيه مصر القديمة محط أنظار العالم المتمدن.

وفي الأدب بنوع خاص سنرى كيف كان الشعراء والكتاب يدعون إلى هذه الفكرة، ويكتبون أحيانا بلغة، مصريتها أكثر من عربيتها، كما كان الحال عند لطفي السيد ومُحَمَّد حسين هيكل وغيرهما.

القصة المصرية في ظل الصحافة

لعلكم تعرفون أن اتصال المصريين والشرقيين بالقصة – بمعناها الصحيح – كان عن طريق الصحافة. والثابت في تاريخ الصحافة أن القصة التي اتصل بها الشرق العربي كانت في أول أمرها مترجمة لا مؤلفة. وأما القصة المؤلفة فقد تأخرت عن أختها في الظهور. وحين ظهرت هذه إلى الوجود لم تأخذ مكان القصة المترجمة في الصحف. فبقيتا معا تشغلان حيزا لا يستهان به في أكثرها.

فهذا هو (عبد الله أبو السعود) صاحب جريدة (وادي النيل) يقوم بترجمة المسرحية المشهورة باسم (عايدة) وذلك في عام **١٨٦١** وهو يومئذ أستاذ للتاريخ بدار العلوم. والأصل في هذه المسرحية أنها إيطالية، ثم ترجمت إلى الفرنسية، وعلى يد أبي السعود نقلت إلى اللغة العربية[١].

ثم هذا هو ابنه (محمد أنسي) صاحب (روضة الأخبار) يعنى عناية خاصة بالقصة المترجمة عن الفرنسية، ولعل أول قصة قدمها إلى قرائه يومئذ هي القصة التي كتبها الأديب الفرنسي المعروف باسم (لوساج) **Les Sage**. وعنوانها (جول بلاز) **Jules Blas** وهو اسم لبطل من أبطال هذه القصة[٢].

ثم هذا هو (محمد عثمان جلال) صاحب (نزهة الأفكار) يقوم بترجمة القصة المشهورة في الأدب الفرنسي باسم (بول وفرجيني). غير أنه عبث عبثا كبيرا بهذا العنوان، وجعله هكذا (الأماني والمنة في حديث قبول وورد جنة). ثم هذا هو أديب إسحق صاحب جريدة (مصر) وجريدة (التجارة) يترجم إلى العربية رواية

---

(١) المسرحية في شعر لحامد شوكت من ٢٠.

(٢) أدب المقالة الصحفية في مصر ج ١ ص ٢٠١.

(أندروماك) ورواية (شارلمان) وروايات أخرى.

ومنذ ذلك الحين أصبح للقصص المترجمة جزء معلوم في كل جريدة من الجرائد المصرية. ومازالت هذه السنة متبعة في بعض الصحف إلى عهد قريب.

ولئن كان هذا صحيحا بالقياس إلى الصحافة المصرية، فإنه أكبر صحة وأصدق قيلا بالقياس إلى الصحافة اللبنانية. ولا غرابة في هذا فإن لبنان لم يحدث بها من الحوادث التي شغلت العقول والأذهان مثلما حدث في مصر. وصدق من قال أن الرواية نشأت في إنجلترا على هذا المقعد المريح إلى جانب اليوم حيث يقضي الرجل والمرأة وأولادهما ومن يتصل بهما جزءًا طويلًا من يومهم لا يجد كل منهم ما يتسلى به غير قراءة القصة القصيرة أو الطويلة.

وإن الباحث ليعجب لهذا السيل الجارف من المجلات والصحف اللبنانية التي عنيت بالقصص المترجمة من اللغات الأوروبية إلى العربية، وتستطيع أن تحصي من هذه المجلات عددا لا يقل من اثنتي عشرة مجلة. منها على سبيل المثال:-

(حديقة الأخبار) لخليل الخوري (بيروت ١٨٥٨).

و(البشير) للآباء اليسوعيين (بيروت ١٨٧٠).

و(النخلة) للويس صابونجي (بيروت ١٨٧٠).

و(لسان الحال) لخليل سركيس (بيروت ١٨٧٧).

و(جريدة لبنان) لإبراهيم الأسود (بيروت ١٨٩١).

وهذا كله عدا الأهرام. مصر ١٨٧٦ وغيرها كثير[1].

([1]) مُحَمَّد يوسف نجم: القصة في الأدب الحديث ص ٦٥.

وثم مجلات ودوريات زادت عنايتها بالقصة إلى أبعد من هذا الحد الذي بلغته الصحف السابقة، ومنها على سبيل المثال:

(مجلة الجنان لبطرس البستاني و(المقتطف) ليعقوب صروف، و(اللطائف) لشاهين مكاريوس، و(الهلال) لجورجي زيدان (والمشرق) للآباء اليسوعيين الخ.

ثم لم يقف الأمر بالصحف اللبنانية عند هذا الحد، حتى ظهرت مجلات وقفت نفسها على القصة وحدها من دون الفنون الأدبية أو الصحفية الأخرى، ولم تشغل نفسها بشيء غير ذلك. وعدد هذا النوع الأخير من المجلات يربو على خمس عشرة مجلة. منها على سبيل المثال:

(ديوان الفكاهة) لسليم شحاذة وسليم طراد (بيروت ١٨٨٥).

(والنفائس) لأنيس عيد الخوري (بيروت ١٩١٠).

(ومنتخبات الروايات) لإسكندر كركور (القاهرة ١٨٩٤).

(وسلسلة الروايات) لمحمد خضر وبشير الحلبي (القاهرة ١٨٩٩).

(والروايات الشهرية) ليعقوب الجمال (القاهرة ١٩٠٢).

(ومسامرات النديم) لإبراهيم رمزي وعزت حلمي (القاهرة ١٩٠٣).

(ومسامرات الشعب) لخليل صادق (القاهرة ١٩٠٥).

(والفكاهات المصرية) لعبد الله غزالة الحلبي (القاهرة ١٩٠٨).

(والراوي) لطانيوس عبده (بيروت ١٩٠٩).

(والروايات الجديدة) لنقولا رزق الله (القاهرة ١٩١٠).

(والسمير) لقيصر الشميل (الإسكندرية ١٩١١).

(والروايات الكبرى) لمراد الحسيني (القاهرة ١٩١٤) الخ.

"هكذا ساعدت الصحافة اللبنانية على نشر القصة بين قراء العربية[١]. وهذا كله بالقياس إلى القصص المترجمة.

* * *

أما القصص غير المترجمة فإن نظرة واحدة ترينا أنها قد اتجهت منذ أول الأول اتجاها اجتماعيا خالصا، فما الذي وجه القصاصين المصريين واللبنانيين هذا الاتجاه؟ وما الدور الذي لعبته الصحافة المصرية – بنوع خاص – في توجيه الكتاب الشرقيين نحو هذا الاتجاه؟.

وبعبارة أخرى – هل كانت القصة الاجتماعية في مصر – على وجه أخص – حدثا أدبيا أو صحفيا مفاجئا؟ أو كانت هذه القصة الاجتماعية أمرا له مقدمات حتمت على القصة المصرية أن تكون ذات صيغة اجتماعية في أول الأمر؟.

هذه أسئلة نريد الإجابة عنها في هذا الفصل، ولعلنا نصل من هذه الإجابة إلى القول بهذه النتيجة المهمة؛ وهي أن القصة العربية في أدبنا الحديث إنما نشأت أولا في أحضان الصحافة. ثم مضى عليها وقت غير قصير حتى شبت هذه القصة نفسها عن الطوق، وظهرت مستقلة عن الصحافة.

* * *

منذ ظهرت الجرائد الشعبية في مصر وهي منبر عام لرجال الإصلاح من

(١) المصدر المتقدم ص ٦٩– ومن أراد أن يعرف القصص التي نشرت ترجماتها بالصحف المذكورة فيرجع إلى المصدر المذكور ص ٧٠– ٨٨.

أمثال مُحَمَّد عبده وعبد الله النديم والمويلحي الكبير والمويلحي الصغير، والسيد علي يوسف ولطفي السيد، ومصطفى كامل ومن إليهم. وقد سعى كل واحد من هؤلاء أن يضع يده على الداء، أو على طائفة الأدواء التي كان يشكو منها المجتمع المصري إذ ذاك، حتى أصبح "الإصلاح" حديث العام والخاص. بل أصبح "الإصلاح، مادة من أهم مواد الصحيفة التي ترجو لنفسها البقاء.

عاب المصلحون على مواطنيهم في الصحف المصرية أمورا شتى: منها تهافتهم على محاكاة الأوروبيين فيما لا يتفق والعادات الشرقية والتقاليد الدينية. ومنها ميلهم إلى تصديق البدع والخرافات مما أتلف دينهم، وران على قلوبهم، وجعل على أبصارهم غشاوة.

ومنها سكوت بعضهم عن التدخل الأجنبي الذي استفحل شره في بلادهم، وكاد يفقدهم قوميتهم وشخصيتهم، كما أفقدهم حريتهم واستقلالهم، ومنها البؤس الاقتصادي الذي قسم البلاد قسمين أو طبقتين متباعدتين: طبقة الفقراء الذين لا حظ لهم من مال أو ثروة، وطبقة الأغنياء الذين لهم كل المال والثروة. ومنها الجهل الذي حرم سواد الأمة العلم، وكان من أيسر مظاهره أن بقيت المرأة المصرية حبيسة دارها، مقهورة على أمرها، لا تعرف من شأن الحياة الاجتماعية خارج الدار أكثر مما يعرفه الصبي.

عاب المصلحون على المصريين كل ذلك، وعابوا عليهم أكثر من ذلك. وصوروا لهم الحكومة المصرية عاجزة كل العجز عن إصلاح القضاء، والتعليم، والأمن، والصحة. كما صوروا لهم حالة الموظف المصري وقد استبد بقلبه اليأس، وغلب عليه الشعور بالذل، ومد يده إلى الرشوة لصغر راتبه الشهري، وبنى حياته على (المحسوبية) لأنها الطريق الوحيد إلى الترقي!.

وجاءت كتابات النديم، ومُحَمَّد عبده، وبشارة تقلا، وعلي يوسف،

ومصطفى كامل، ولطفي السيد وغيرهم مشخصة هذا الداء القاتل، منادية بطلب الإصلاح العاجل، مرغبة جميع المصريين في الأخذ بأسباب التقدم الصحيح حتى لا تبقى مصر متخلفة عن الدول الأخرى!

ثم إن الكتاب الكبار ممن أشرنا إليهم أفادوا من نقد الأجانب للمصريين في كتبهم التي كتبوها عن مصر، كما أفادوا من تقارير الوكالة البريطانية التي اعتادت أن تكتبها عن المصريين كل سنة. ونظر الصحفيون إلى هذه الأقوال والتقارير نظرة عاقل حكيم على أنها مرآة لأخلاقنا، ومجتمعنا، وعقولنا. "وكثيرا ما تعرف الشعوب نقائصها على يد أعدائها" كما قال ذلك صاحب الأهرام في مقال له[1].

وعلى هذا فإذا كنا نبحث عن المقدمات الأدبية والتاريخية لظهور القصة المصرية بهذه الصبغة الاجتماعية فلا مفر لنا من القول بأن:

(أولى المقدمات) هي ظهور الصحافة المصرية، فقد كانت هذه الصحافة في ذاتها نشاطا فكريا سبق القصة المصرية، وهذا هو السبب في أن القصص المصري اتجه في أول أمره اتجاها اجتماعيا- كما قلنا. ولعل أول دليل يمكن أن نسوقه على ذلك هو ظهور القصة المعروفة في الأدب المصري "بحديث عيسى بن هشام" للمويلحي. وهي قصة بالمعنى الصحيح الذي اتفق عليه النقاد ومن أجل هذا سنتحدث طويلا عنها- ولكن بعد الفراغ من الحديث عن المقدمات التي سبقتها.

(والثانية من هذه المقدمات) هي جهود الكتاب الأدباء من غير المنقطعين للصحافة، رغبة منهم في إشعار المصريين بتلك العيوب، وبثا لروح الاستياء

---

(1) صحيفة الأهرام بتاريخ ٤ ديسمبر سنة ١٨٩٧.

والكراهية لها، وخلقا الرغبة الصادقة في التخلص منها في أقرب وقت مستطاع.

ومن هؤلاء الكتاب الأدباء على سبيل المثال: مُحَمَّد فريد وجدي، وذلك في كتابه "تطبيق الديانة الإسلامية على النواميس المدنية". وهو الكتاب الذي أعيد طبعه فيما بعد بعنوان "المدنية الإسلامية". وقد يتحدث الكاتب عن فكرة الأوربيين عن الإسلام، ويقيم الدليل على خطأ هذه الفكرة، لأنهم بنوها على علمهم بالبدع والخرافات التي حملت حملا على الإسلام، وجهلهم بالإسلام نفسه على حقيقته.

وهكذا جاء هذا الجهد من جانب الأدباء غير الصحفيين في سبيل الدفاع عن الدين مؤيدا للجهد الذي بذله الصحفيون في سبيل هذه الغاية أيضا.

ثم ومن الكتاب الأدباء "قاسم أمين" ولقد لفت إليه أنظار المصريين بكتاب له عنوانه (المصريون) رد فيه على (دوق داركور) الذي تعرض لذم الدين الإسلامي. ثم عاد قاسم أمين فلفت إليه أنظار المصريين بكتابه العظيم الذي دافع فيه عن المرأة المصرية، وعنوانه "تحرير المرأة" وأحدث الكتابة ضجة كبيرة في مصر، وانقسم المصريون بسببه شيعا من ذلك الوقت.

(وأما ثالثة المقدمات) التي مهدت لظهور القصة الاجتماعية فهي ظهور طبقة المترجمين إلى جانب الأدباء والصحفيين ومن هؤلاء على سبيل التمثيل (أحمد فتحي زغلول)- وقد ترجم كتابا مشهورا للكاتب الفرنسي (أدمون ديمولاند) بعنوان: "بم تقوم أفضلية الإنجليز السكسونيين، ترجمة فتحي زغلول عام ١٨٩٩ أعني في نفس السنة التي نشر فيها كتاب قاسم أمين ونشر فتحي زغلول ترجمته فصولا وعلى هيئة مقالات جاءت تباعاً في صحيفة المؤيد، وذلك على نحو ما نشر قاسم أمين كتابه (تحرير المرأة).

ونظر المصريون إلى الكتاب الذي ترجمه فتحي زغلول على أنه يمسهم، ويصور حالهم، ويصف داءهم. وقد جعل المترجم عنوان الكتاب الذي ترجمه هكذا "سر تقدم الإنجليز السكسونيين". وكتب فتحي زغلول لهذه الترجمة مقدمة كانت أشهر من الكتاب نفسه، وأعظم منه تأثيرا في نفوس المصريين خاصة. جاء فيها قوله: "نحن ضعاف أمام الغرب: ضعاف في الزراعة، ضعاف في الصناعة، ضعاف في التجارة، ضعاف في العلم، ضعاف في العزيمة، ضعاف في الألفة والمودة، ضعاف في النخوة والشعور الملي (يريد الديني)، ضعاف في الجامعة القومية، ضعاف في الخيرات، ضعاف في طلب الحقوق وأداء الواجبات، ضعاف في حفظ ما ترك الآباء، ضعاف في التحصيل، ضعاف حتى أصبحنا نرجو كل شيء من الحكومة" الخ. ثم ختم كلامه بقوله: "ودواؤنا في التربية، وسلامتنا في نشر العلوم والمعارف". وهكذا كانت الترجمة طريقا من الطرق المؤدية إلى ظهور القصة التي تعنى عناية خاصة بالمجتمع.

(ورابعة المقدمات) التي أدت إلى ظهور القصة الاجتماعية هي التقارير التي صدرت عن الوكالة البريطانية، ونخص بالذكر منها تقارير اللورد كرومر، ذلك الرجل الذي عاش في مصر وحكمها حكما فعليا زهاء خمس وعشرين سنة استطاع في أثنائها أن يدرس المجتمع المصري من جميع الوجوه، وأن يضع يده على الدمل الذي يشكو منه المصريون على اختلافهم، وهذا الدمل هو الجهل. وعلى الرغم مما اشتملت عليه هذه التقارير من التهم البعيدة عن العدل، والمنافية للحق، وعلى الرغم من التعصب السياسي والتعصب الديني الذي بدا من جانب اللورد في كل وقت، فإن هذه التقارير حركت همم المصريين، وحفزتهم إلى العمل على دحض هذه التهم بطريق الكتب حينا، كما يفعل الأدباء المؤلفون، أو طريق المقالات الصحفية أحيانا، كما فعل كتاب الصحف.

تلك إذن هي المقدمات الأربع التي سبقت ظهور القصة المصرية، ورسمت لها الطريق الذي سارت فيه، والصبغة التي اصطبغت بها، وهي الصبغة الاجتماعية.

ونريد قبل أن نعرض (لحديث عيسى بن هشام) للمويلحي، وهي أولى القصص المصرية الاجتماعية، أن نسوق دليلا على اتجاه التأليف في مصر في ذلك الوقت ناحية العناية بالمجتمع. وهذا الدليل الجديد هو كتاب لفت أنظارنا إليه المستشرق الفرنسي (هنري بيريس)[١] وعنوان الكتاب هو "حاضر المصريين وسر تأخرهم". ألفه أديب مصري يقال له "مُحَمَّد عمر"، وظاهر من عنوان كتابه هذا أنه مطابق كل المطابقة لعنوان الكتاب الذي أشرنا إليه من قبل، وهو "سر تقدم الإنجليز السكسونيين" وذلك الكتاب الذي ترجمه أحمد فتحي زغلول كما قلنا. والذي لا شك فيه أن (مُحَمَّد عمر) قرأ الكتاب الأخير قراءة جيدة، وأنه كان يفكر فيه تفكيراً جيدا، وذلك عندما شرع يؤلف كتابه هذا.

وقد ظهر كتاب "حاضر المصريين وسر تأخرهم" عام ١٩٠٢ في نحو ثلاثمائة صفحة، صور فيها الكاتب وجوه الضعف التي يشكو منها المجتمع المصري، والعجيب أن الذي كتب مقدمة الكتاب هو ذلك الأديب المشهور والعالم القانوني الكبير أحمد فتحي زغلول.

والقارئ للكتاب الذي ألفه مُحَمَّد عمر يرى أنه عمد فيه إلى تقسيم المجتمع المصري إلى طبقات ثلاث: الطبقة الغنية، والطبقة المتوسطة، والطبقة الفقيرة وذهب إلى أن لكل واحدة منها عيوبا تختص بها. وطفق يذكر ما يراه علاجا حاسما لكل عيب منها على حدة.

---

(١) مقال كتبه المستشرق هنري بيريس بالمجلد الحادي عشر من مجلة المكشوف العدد ٣٩٢ سنة ١٩٤٥.

ولقد جاء الجهد الذي بذله أمثال الأديب المصري (مُحَمَّد عمر) في سبيل الإصلاح الاجتماعي مؤيدا للجهد الذي بذلته الصحف في هذا المضمار. ونضرب على هذا مثلا واحدا، وهو موضوع (القمار) الذي فشا في المصريين إلى درجة أنذرتهم بالخطر الحقيقي.

أما مُحَمَّد عمر وأمثاله من المؤلفين الأدباء فقد ألفوا في ذلك الكتب وزودوها بإحصاءات دقيقة لدور اللعب والقمار بالمدن الكبيرة، حتى إنه "في القاهرة وحدها زاد عدد هذه الدور في ثمان سنوات فقط إلى **٧٤٧٥** داراً للعب، وكانت قبل ذلك **٣١٦** دارا فقط. أي أن الزيادة بلغت **٥١٦٩** داراً بالقاهرة"[١].

وأما جريدة المؤيد فقد أزعجتها هذه الظاهرة فانبرت لمحاربة هذه العادة السيئة، ونظم السيد علي يوسف ضدها حملة موفقة أشرك فيها أكبر عدد ممكن من الشعب المصري بطريقة صحفية ناجحة[٢]،

---

(١) نفس المصدر المتقدم.

(٢) وتفصيل ذلك أن جريدة المؤيد عمدت إلى طبع خطاب خاص بالجريدة يمكن للقارئ أن ينزعه منها ويملأ البيانات المكتوبة بهذا الخطاب وتوقع عليه باسمه، ويبعث به إلى جريدة المؤيد أو إلى نظارة الداخلية. ومضت المؤيد تنشر هذا الخطاب أياما عدة. وتوالت الردود عليها وعلى نظارة الداخلية، وكثرت الأصوات المطالبة بإغلاق دور القمار فاضطرت. الحكومة إلى السعي حثيثا في ذلك.

طلائع القصص المصري الحديث وصلته بالصحافة

تحدثنا إليكم فيما مضى عن المقدمات الأدبية لظهور القصة المصرية، وانتهينا من هذا الحديث إلى أن القصة المصرية بتأثير الصحافة الوطنية لم يكن بد لها من أن تصطبغ بالصبغة الاجتماعية. وإليكم أمثلة ثلاثة على ذلك.

الأول (حديث عيسى بن هشام) لمحمد المويلحي، والثاني قصة (زينب) لمحمد حسين هيكل، والثالث كتاب (ليالي سطيح) للشاعر الاجتماعي الكبير حافظ إبراهيم.

حديث عيسى بن هشام

في ذلك الجو المشبع بروح الإصلاح، وفي تلك الغمرة التي عمت الكتاب والأدباء والصحفيين من دعاة هذا الإصلاح ظهر في الميدان أديب ممتاز هو "إبراهيم المويلحي"، وطلع على الناس بجريدته المعروفة (مصباح الشرق) ومعه ابنه (مُحَمَّد) المعروف (بالمويلحي الصغير) يعاونه في التحرير، ويكتب بين آن وآخر فصولا من روايته المشهورة (حديث عيسى بن هشام)" أو (فترة من الزمن)[1].

وسننظر في هذه القصة التي كتبها مُحَمَّد المويلحي لنعرف كيف عالجت مشكلات المجتمع المصري الحديث، ونفهم الطريقة التي سلكها المؤلف في سبيل غايته هذه. وإلى أي حد وفق فيها؟

في حديث عيسى بن هشام بطلان رئيسيان هما الباشا وعيسى بن هشام

---

(١) ظهرت هذه الجريدة في ١٤ ابريل سنة ١٨٩٨.

الذي هو الكاتب نفسه، وتعتبر الصفحات الأربع الأولى من الكتاب مدخلا لهذه القصة، وأما اللغة التي كتبت بها هذه الصفحات فهي صدى للذوق الأدبي العام لتلك الفترة التي ظهرت فيها القصة. ومن ثم كتبها المويلحي بأسلوب عال زانته الأشعار والاستعارات، والأسجاع والمقابلات، وغير ذلك من ألوان الزينة اللفظية والمعنوية. ولكن لندع الأسلوب الذي كتبت به القصة جانبا لنوجز على عجل أهم حوادثها:

رأى عيسى بن هشام في المنام كأنه يتنزه في ليلة مقمرة عند مقبرة الإمام الشافعي، وفيما هو ينتقل بين القبور، ويتأمل في هذا المصير، ويسبح بخياله في تلك الآفاق التي يسبح فيها الشعراء والفلاسفة السابقون ممن سخروا من الإنسان، وضحكوا من اغتراره بالحياة الدنيا إذا بقبر من تلك القبول ينفتح أمامه فجأة ويخرج منه ميت في أكفانه. وتدور محاورة بين الحي والميت، ويعرف عيسى بن هشام إذ ذاك أن الميت الذي يحدثه إنما هو أحد الباشوات الذين عاشوا في أيام مُحَمَّد علي، وأن وفاته كانت حوالي سنة ١٨٥٠ ميلادية وما هو إلا قليل حتى يصبح الرجلان وكأنهما صديقان منذ أمد بعيد، ويخرجان معا من مقبرة الإمام الشافعي، ويسيران في طريقهما إلى مدينة القاهرة، وقد استبدل الباشا بأكفانه معطف عيسى بن هشام نفسه.

ولكن الباشا لا يكاد يمشي بضع خطوات في هذه الدنيا الجديدة حتى يصطدم بأحد المكارين. ويكبر على نفس الباشا أن يرد عليه المكاري. فينهال عليه ضربا ولكما. ويصرخ المكاري، ويخف إليه رجل من رجال الشرطة كان على مقربة من مكان الحادث، يشتغل بملء سلته بأنواع الفاكهة والمأكولات، يأخذها من الباعة بدون مقابل. ثم يقبض الجندي على الباشا وصاحبه على المكاري ويقودهم جميعا إلى (نقطة البوليس).

وهنا يغتنم الكاتب هذه الفرصة ليصف لنا هذا المكان من أمكنة الحكومة، ويشير إلى قذارته، وإلى الموظفين الذين فيه بملابسهم الرسمية المعروفة، وطريقتهم في تسجيل المحاضر، وضرب المجرمين الذين ينكرون التهم المنسوبة إليهم. ثم يصف لنا المفتشين الذين يلمون بهذا المكان بين حين وحين؛ لا لشيء إلا ليتصفحوا السجلات على عجل، ويكتبوا التقارير الشكلية على عجل، ثم ينصرفون وكأنهم مدعون إلى عمل آخر غير هذا العمل الذي ترزقهم عليه الحكومة.

أما الباشا فإنه في حيرة شديدة من أمره لهذه الإهانة التي لحقت شرفه، أو لهذا القدر الذي سخر منه وجعله يقف ومكاريا ساقطا كهذا المكاري أمام رجل من رجال الشرطة، وأخذ يقول في نفسه لابد أن يكون الداوري الأعظم– يريد مُحَمَّد علي– قد غضب على غضبًا شديدا، وأمر بإهانتي على هذه الصورة الشنيعة.

وتتحول القضية إلى النيابة ويقف الباشا بين يدي المدعي العام، ولشد ما يملكه العجب كذلك إذ يرى هذا المدعي العام شابا من أبناء الفلاحين درس الحقوق، ونال شهادة تخول له مزاولة وظيفته. وهذه الشهادة لم تكلف هذا الشاب أكثر من ألف وخمسمائة فرنك. فيسأل الباشا: وما الفرنك؟ فإنه لا يعرف غير القرش التركي. وفي هذه الأثناء يدخل لمقابلة المدعي العام رجلان من أصدقائه، فيعلم الباشا من الحديث الذي جرى بينهما، وكان قد سمع أكثره من وراء الباب– أن الأصدقاء الثلاثة قضوا ليلتهم في بيت من بيوت اللهو والمقامرة، وأنهم خسروا فيه مبالغ طائلة، وأن مرتباتهم في آخر الشهر لن تكفي لسداد الديون. وبالرغم من هذا كله لا يستحي المدعي العام أن يقول لصاحبيه وقتئذ أنه دعا في هذا المساء الآنسة فلانة الممثلة بدار الأوبرا، وفلانا وفلانا من

الممثلين بها لتناول طعام العشاء في أحد المطاعم بميدان الأزبكية. وقال أنه ينوي بعد العشاء أن يدعو ضيوفه إلى غشيان هذا الملهى الذي سهر فيه الليلة الماضية. وأدهى من كل ذلك أن المدعي العام يعترف بأن المال اللازم للإنفاق على العشاء وعلى السهرة سيأخذه من رفيقين له: أما أحدهما فيشتغل بالمحاماة. وأما الثاني فعمدة من أولئك العمد الذين يتهافتون على رجل مرموق المكانة عالي المنزلة كالمدعي العام!

ثم يشير الكاتب إلى الطريقة التي تجرى عليها المحاكمات، والأسلوب الذي يجري عليه الدفاع. ويصل من ذلك إلى الحكم على الباشا بالسجن ثمانية عشر شهرا، ثم إلى استئناف الباشا لهذا الحكم. ثم إلى الحكم له بالبراءة في نهاية الأمر.

وتتلاحق فصول الرواية، وكلها تصف أعمال مُحَمَّد علي الذي يضمر له الباشا كل إعجاب وولاء ثم تصف المحامين العامين، والأمور المخزنة التي تتردى فيها العدالة في المحاكم.

ثم يحدث بعد هذا كله أن يقع الباشا مريضا، فيغتنم المؤلف هذه الفرصة أيضا ليصف لنا الأطباء، ودور الاستشفاء. وإذ ذاك تروج شائعة في البلد بوقوع إصابات بداء الطاعون، فيتحدث عيسى بن هشام عن هذا الوباء حديث الواثق بطرق التغلب عليه، والتخلص منه قبل أن تكون له ضحايا من أبناء الوطن. ولكن الباشا – وقد شهد بنفسه الطاعون الذي أصاب المصريين بين سنتي ١٧٩٠ و١٧٩١ – يتحدث عن الطاعون كأنه مرض من تلك الأمراض التي يأتي بها الجن والشياطين، وأنه لا قبل للأهالي ولا للحكومة بمكافحته!

وهنا ينتهز عيسى بن هشام الفرصة ليشرح لصديقه النظريات الحديثة في الطب والأجهزة الحديثة في العلم، ومنها (المجهر)، ويظل الباشا على شك من ذلك حتى يرى بعينه دنيا الجراثيم من خلال المجهر، فيتعجب العجب كله!.

ويشفى الباشا من المرض، ويعود إلى القاهرة، ولكن لا يكاد يدخلها حتى يفاجأ في هذه المرة بانتشار مرض الكوليرا، فيعتزل الناس في دار قريبة من العاصمة حتى يزول خطر الكوليرا. ثم يخرج من داره ويختلف إلى كثير ممن عرف من المصريين على اختلاف طبقاتهم ووظائفهم، ويشترك في كثير من أحاديثهم الفارغة، ومشاغلهم الهينة. ثم يسوقه الحظ إلى حضور ليلة عرس. وهنا يقف المؤلف ليصف هذا العرس في أكثر من عشرين صفحة، ومن أهم ما حدث في تلك الليلة أن جماعة من الأوروبيين دعوا إلى حضور هذه الحفلة، فدخلوا الدار، وبأيدي نسائهم في تلك اللحظة آلات التصوير الشمسي التي ظنها الباشا هدايا يحملنها إلى العروس. ووقف المؤلف كثيرا عند وصف الوليمة، وعند ذكر الشراب والغناء وتقليد المصريين للأجانب في كثير من العادات التي تنافي التقاليد الشرقية والديانة الإسلامية. ومن تلك العادات معاقرة النساء للخمر، وشربهن أوراق التبغ وظهورهن في تلك الليلة سافرات يرشقن الرجال بنظراتهن الحادة، ويأسرنهم بضحكاتهن العالية. وإذ ذاك تقع المصادمات الكثيرة بين الرجال من أثر الفتنة. وينتهي الأمر بتدخل الشرطة!

قال المؤلف "وتمكن من الباشا حب الاستكشاف والاستطلاع لدرس الأخلاق وسير الطباع" فساقه عيسى بن هشام إلى حديقة الأزبكية فوجدها تغيرت من حال إلى حال. وذلك منذ أمرت الحكومة بألا يدخلها غير الرجال، واسترق الباشا السمع إلى بعضهم، وكان أحدهم عمدة أخذ يشرح لجلسائه كيف اتصل به أحد الموظفين الكبار، وأخذ يجره من مكان إلى مكان، ومن حان إلى حان يشرب هو وأصحابه على حسابه، مادام هو – أي العمدة – في حاجة إلى استرضائهم لقضاء حاجته.

وأخيرا يستمع العمدة إلى بعض جلسائه في الحديقة – وكان خليعا – وهو

يمنيه بسهرة جميلة مع غانية من بنات الباشوات. وإذ ذاك يغتنم الكاتب هذه الفرصة ليصف على لسان العمدة كثيرا من مواطن الشبه في المجتمع المصري، ويندد بكثير من مفاسد هذا المجتمع أيضا.

ثم ينتهي الكتاب بفصل عن الأسباب التي من أجلها تغيرت الأخلاق في مصر، وانتهت إلى هذه الصورة التي لا يرضى عنها الباشا بوجه. وقد ذهب المويلحي إلى أن هذا الفساد الذي أصاب الأخلاق والعادات إنما هو نتيجة لأمر واحد فقط، هو (الحضارة الأوروبية) وتقليد الشرقيين لها تقليدا أعمى.

* * *

وإلى هنا تقف الطبعات الثلاث الأولى من كتاب (حديث عيسى بن هشام)، غير أننا نجد في الطبعة الرابعة التي نشرها المويلحي سنة ١٩٢٧ أن المويلحي أضاف إلى كتابه إضافة جديدة سماها "الرحلة الثانية"، وهي رحلة الباشا إلى باريس لحضور المعرض العالمي سنة ١٩٠٠. وهناك في هذا المعرض تعرف الباشا إلى (الحضارة الأوروبية) بعد إذ بصره بها وبأسرارها صديقه الفيلسوف الشرقي الذي صاحبه في رحلته الأخيرة. ثم عادا معا إلى القاهرة، وقد تفتحت عيناهما على أشياء كثيرة لم تدر لهما على بال، ولا ارتقى إليها خيال. وإذ ذاك أدرك "الباشا" أن الحضارة الأوروبية ليست خيرا خالصا، ولا شرا خالصا، ولكنها مزاج من العنصرين معاً. ومنذ يومئذ طفق يدعو قومه إلى الأخذ من هذه الحضارة بالنصيب الذي يتفق وحاجتهم ويلائم أمزجتهم وطبائعهم، ويكون كفيلا بتقدمهم في مضمار الحياة.

* * *

أرأيت إذن إلى هذه القصة كيف كانت صدى لحركة الإصلاح؟ أرأيت

إليها كيف كانت صدى لكتابي (حاضر المصريين) لمحمد عمر، و(سر تقدم الإنجليز) لفتحي زغلول بنوع خاص؟

أرأيت إلى الغرض الذي رمى إليه الكاتب من عقدته القصصية التي بنيت على بعث "الباشا" من قبره؟ وهذا الغرض هو الموازنة بين فترتين من حياة مصر: إحداهما فترة مُحَمَّد علي، والأخرى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؟

الحق أن الكاتب لم يدع شكوى، ولا دعوة مما دعا إليه المصلحون السابقون من الكتاب والأدباء والصحفيين حتى ذكرها في كتابه، ولفت إليها أنظار القراء في قصته. فنظام الشرطة، ونظام القضاء، ونظام الوقف، وأبناء الأسر الراقية، والأسر الفقيرة، وعادات هؤلاء وهؤلاء، ونظام المحاكم الشرعية، والدين، وعلماء الدين، وأخلاق الأعيان والتجار والحكام والرؤساء، ومفاتن الحضارة الأوروبية، والأمراض والأوبئة، كل هذه الأمور كانت مما يشكو منه الناس في أواخر القرن الماضي، وكل هذه الأمور كانت مما يتناقش فيه النواب في المجالس شبه النيابة[1] وكل هذه الأمور كانت تتناولها تقارير الوكالة البريطانية، وكلها كانت موضوع الكتب الأدبية المؤلفة والمترجمة، وموضوع الصحف كما رأينا.

وقد أقام المستشرق الفرنسي (هنري بيريس) موازنة بين (حديث عيسى

(1) من ذلك أن الجمعية العمومية بعد أن برئت من النكسة التي أصابتها بالإنفاق الودي سنة ١٩٠٤، بحثت في جلسة واحدة استمرت أربعة أيام متوالية، ثمانين اقتراحا وشكاة منها شكوى تختص بدنشواي، وأخرى تطالب بحكومة دستورية صحيحة في البلاد، وثالثة تطالب بتعيين المصريين في الوظائف الرئيسية. ورابعة تشكو من ارتفاع أجور التعليم. وخامسة تطالب أن يكون التعليم باللغة العربية وسادسة تطالب بإصلاح المحاكم الشرعية؛ وسابعة تطالب بإصلاح نظام الوقف الخ.

بن هشام) وكتاب (حاضر المصريين) فذكر وجوها عديدة من وجوه الشبه بينهما:

منها أن الكتابين اشتركا في وصف الأغنياء وسوء تصرف أبنائهم بعد موتهم. كما اشتركا في وصف رفقائهم، ووصف لهوهم، وعبثهم، ومجونهم، ونفاد ثروتهم، والدعاوى التي تقام عليهم بسبب ذلك، والعلاقات التي بينهم وبين الأعمام، وبينهم وبين أبناء الأشقاء، والبحث عن الذهب باستخدام الكيمياء الخ.

كما اشتركا في وصف الأعراس ونفقاتها الباهظة، وموقف المدعوين والزائرين من هذه الأعراس، ووصف المغنيات والراقصات، والفوضى التي تشيع بسببهن في هذه الحفلات. كما اشترك الكتابان في وصف الأوبئة والأمراض والطريق إلى مكافحتها إذ ذاك. واشتركا كذلك في وصف الصحافة في مصر بما لها من عيوب وحسنات. وكثيرا ما تشابه الكتابان في بعض تفاصيل الرواية، وفي بعض الكلمات المستعملة فيها. ومن ذلك على سبيل المثال: اتفاقهما في ظهور الأجانب في حفلات الأعراس، ومعهم آلات التصوير الشمسي التي يحسبها الحاضرون حقائب، ويسميها المويلحي في كتابه "أسفاطا".

بل أن المستشرق بيريس أخذ يحصي وجود الشبه بين (حديث عيسى بن هشام) وبعض الكتب الأخرى – فيما خلا كتاب مُحَمَّد عمر – وذلك مثل كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين، وكتاب (تربية المرأة) لطلعت حرب، وكتاب (علم الدين) لعلي مبارك. والكتاب الأخير يقع في أربعة أجزاء ظهرت بمدينة الإسكندرية عام ١٨٨٢. وهو عبارة عن رحلة قام بها "علم الدين" وبصحبتهما كذلك مستشرق إنجليزي. ويتألف هذا الكتاب من مائة وخمس وعشرين مسامرة في مختلف مظاهر الحياة العائلية والتجارية والصناعية والزراعية والعلمية

والفنية في مصر من جهة، وباريس من جهة ثانية.

ويقول المستشرق المذكور: "إن نظرة سريعة تلقى على فهرست كتاب علم الدين تدل على أن باريس كانت محط أنظار المصريين – بله الشرقيين – وذلك حتى مطلع القرن العشرين"[١].

وقبل أن نترك الكلام عن "حديث عيسى بن هشام" يجدر بنا أن نذكر أن العقدة الفنية لهذه القصة قريبة الشبه بالعقدة الفنية في القصة المعروفة في القرآن الكريم باسم "أهل الكهف"، ولا يبعد أن يكون المويلحي قد أخذ عقدته منها مع فارق واحد؛ بينهما وهو أن المويلحي في حديث عيسى بن هشام نسي أن يعيد "الباشا" إلى قبره كما فعلت قصة أهل الكهف، ذلك أن المويلحي في الحقيقة لم يكن يشغله شيء من قصته هذه أكثر من مجرد الموازنة بين فترتين من حياة مصر؛ هما الفترة القريبة من سنة ١٨٥٠، والفترة القريبة من سنة ١٩٠٠، ولا شك أنه قد وفق في هذه الموازنة توفيقا يستحق الإعجاب والتقدير.

قصة زينب:

في الفترة التي ظهرت فيها قصة المويلحي الصغير على شكل فصول نشرت تباعا في صحيفة "مصباح الشرق" أو بعد هذه الفترة بقليل ظهرت إلى الوجود قصة مصرية اجتماعية، هي قصة زينب. كتبها "مُحَمَّد حسين هيكل" سنة ١٩١٠ وهو طالب يتلقى العلم في فرنسا. ولما عاد إلى مصر نشرها فصولا "بالجريدة" عام ١٩١٤.

وكان وهو في فرنسا كثير الشوق لبلده مصر، فجاءت هذه القصة – كما

---

(١) مجلة المكشوف العدد ٣٩٣ سنة ١٩٤٥.

يقول – "ثمرة حنين للوطن وما فيه. صورها قلم مقيم في باريس مملوء مع حنينه لمصر إعجابا بباريس وبالأدب الفرنسي".

ويبدو أن هذا الجهد الأدبي وأمثاله من الجهود الأدبية أو الصحفية الأخرى كان سببا من أسباب ظهور فكرة "المصرية" التي وضحت في الأذهان وضوحاً تاما عقب الحرب الكبرى. وهذا الشعور هو الذي جعل الكاتب الشاب ينشر "قصة زينب" في الجريدة بإمضاء "مصري فلاح". ذلك أنه كان يخشى كما كان يخشى غيره من المصريين الفلاحين إذ ذاك "من أن أبناء الذوات وغيرهم ممن يزعمون لأنفسهم حق حكم مصر ينظرون إلينا– جماعة المصريين وجماعة الفلاحين– بغير ما يجب من الاحترام" الخ[1].

على أن "زينب" لم تكن ثمرة الحنين إلى الوطن فقط، ولا ثمرة الإعجاب بالأدب الفرنسي فقط، ولا ثمرة التبشير بفكرة "المصرية" فقط، وإنما كانت في الحقيقة ثمرة لهذا كله ولتلك المقدمات الأدبية التي أشرنا إليها عند الكلام عن قصة المويلحي. ومن أهم هذه المقدمات فيما يتصل بقصة زينب تلك الضجة التي أثارها ظهور كتاب قاسم أمين "تحرير المرأة" منذ نشر على صفحات عام ١٨٨٩ "المؤيد".. وقد تأثر الشباب المصري المثقف إلى حد كبير بهذا الكتاب الجديد. وجاء هيكل الشاب فصور لنا شخصية من شخصيات قصته، هي عزيزة بصورة الفتاة التي نالت قسطا ضئيلا جدا من التعليم، ثم حبسها أهلوها في منزل قبعت فيه. وانقطعت لقراءة القصص السخيفة التي كانت تصل إليها مع ذلك بصعوبة كبيرة. وكانت النتيجة أن انحرف عقلها، وذبل جسمها، وأخذت تزداد مع الأيام ضعفاً على ضعف. "ولا يمر عام حتى تحس بحاجة شديدة لتجديد الهواء، واستعادة صحتها التي تذهب مدة الشتاء فريسة رطوبة

---

(1) قصة زينب، الطبعة الثانية ص ٧.

بيتهم الواسع الذي يعيشون فيه"[1].

من أجل هذا كتبت عزيزة إلى ابن عمها حامد تقول:

أخي حامد: هل بعد ليلة الأمس لا تزال تحبني؟ إن قلبي يوحي إلي بمقدار ما بعث به لنفسك سكوتي إلى حد التألم ساعة انفرادنا. وأحس الساعة أنني لا أستحق حبك.

وما لنا جماعة الدفينات وللحب؟ إنما نحن في ظلام نتلذذ منه بخيالات لا وجود لها "وإنها لخطيئة أن تحب من ذهب بها أهلوها إلى الدير!. ولسنا أقل تبتلا من هاتيك الراهبات، وإن كنا أقل عبادة.. لكم جمال الوجود، ولكم السماء والزرع، والماء، والليل، والقمر. فاحيوا متمتعين بها. وذرونا في صوامعنا وسجوننا![2].

وانظر إلى هيكل يقول في قصته كذلك عن "حامد" وهو أهم شخصية من أشخاص القصة:

"والواقع أن أحلام حامد وآماله في المستقبل كانت كبيرة جدا، ومهما يكن مخلصا في قوله أحيانا إن خير عملنا أن نغنم الحاضر، فإن قضية المستقبل كانت تشغل باله، وتعاوده في أوقات مختلفة، وكأنه كان يدين بمذهب أستاذه قاسم أمين: اللذة التي تجعل للحياة قيمة هي أن يكون الإنسان قوة عاملة ذات أثر خالد في العالم"[3].

تلك إحدى المقدمات الأدبية لقصة زينب. وثم مقدمة أخرى هي:

([1]) المصدر المتقدم ص ٢٢٥.

([2]) المصدر المتقدم ص ١٨٨.

([3]) المصدر المتقدم ص ٣١٥.

(الحضارة الأوروبية) أو الثقافة الغربية التي تسربت إلى المصريين عن طرق شتى. وقد حملت هذه الحضارة الأوروبية كثيراً من الشبان المصريين من (أولاد المدارس) على أن يتساهلوا نوعاً ما في تقاليد بلادهم، ويتحرروا نوعاً ما من قيود الماضي، ويتهاونوا بعض الشيء في أمور الدين، ويتبرموا أحيانا من الفضيلة!.

وقد شاء مؤلف زينب أن يجعل من (حامد) شابا من هذا الطراز؛ يسخر من التقاليد، ويقبل على الحياة إقبالا، ويلح في طلبها إلحاحا. قائلا "أن أيام الشباب أيام الحرية وعدم المسؤولية، فإن أضاعها صاحبها صريعا بخرافات العجائز، قاعدا عن أن ينال منها كل ما فيها ضاع عليه عمره، وقضى على الأرض حياة مكتئبة فاسدة، حياة محملة بالهموم من أولها إلى آخرها، حياة خير منها موت عاجل"[1].

غير أن القصة تعود فتصور لنا حامدا وقد ندم في النهاية على مسلكه هذا، وأفضى به الندم إلى محاولة الفرار من الحياة، أو يظفر بأمنيته منها؛ وهي الحصول على فتاة تملأ فراغ قلبه.

(وزينب) قصة بسيطة في ذاتها كل البساطة، هي قصة حامد من أولاد المدارس، وأحد أولاد السيد محمود من كبار الملاك المزارعين في إحدى القرى المصرية. وكان من دأب حامد أن يأتي كل صيف لقضاء أجازته في الريف حيث الماء والهواء والضياء والمزارع الخ. وحيث الجلوس إلى فتيان القرية وفتياتها ممن يعملن أجيرات في مزرعة أبيه، ويكسبن القوت من وراء ذلك. واسمع إلى حامد يقص قصته هذه على شيخ من مشايخ الطرق الصوفية زار القرية، وكان حامد

---

(1) المصدر المتقدم ص ١٧٧، ١٧٨.

في حالة نفسية أليمة حاول في أثنائها أن يتخفف منها بعض الشيء بهذه الطريقة: فجاء إلى الشيخ وقال له:

"لي ابنة عم قيل لي وأنا لا أزال في السادسة من عمري أني سأتزوجها متى كبرت. وعلى هذا كنت أحسن في نفسي لها بعاطفة غير التي أحس بها نحو بنات عمي الأخريات، فأقاسمها ما بيدي، وأحنو عليها، وأدافع عنها. ولما بلغت السادسة عشرة من عمرها ومن عمري ابتدأت أحس بغير هذا الإحساس القديم نحوها، وازداد شوقي لها، وقضيت الليالي الطوال يصحبني خيالها. وفي تلك الأيام قابلتني فتاة ريفية أظن سيدي الشيخ يعفيني من ذكر اسمها، أو أي شيء عن شخصها. قابلتني فأخذ بعيني جمالها، وبهرني منها عيون نجل، وخدود متوردة في لون جذاب وجسم خصب، وقوام غض، وخصر دقيق، وبنان رخص ومنطق عذب، ونظرات تسيل لها النفس. ولكن هيهات لفتاة – أيا كانت – أن تصل لفؤاد مقفل كفؤادي يومئذ؛ حين كنت لا أعرف غير الفضيلة المجردة. غير أني كنت أشعر بقلق كلما طالت غيبتي عنها، وأحس بدافع لا قبل لي على دفعه يجعلني أذهب إلى المزرعة التي تكون فيها، وأن أساعدها في عملها. ثم أن أرجع معها جنبا إلى جنب نتحدث في كل شيء وفي لا شيء.. وجاء اليوم الذي تزوجت فيه هذه الفتاة. والذي عاهدت نفسي فيه أن أنساها إلى الأبد. إذ ما دامت لغيري فمن الغدر الذي لا يليق بي أن أفكر فيها مجرد تفكير. ورجعت بذلك لابنة عمي التي وعدت بها. وجعلت أتخيل لها كل شيء حسن. وتبادلت معها كلمات قليلة. ولكنها انتهت – هي الأخرى– بأن تزوجت. فعراني لذلك حزن عظيم. ولكن ما أسرع ما سقطت عن كتفي أحماله، حتى لقد عرتني الغرابة كيف يمكن أن يكون ذلك شأني. ورحت بعدها في شيء من عدم الاهتمام بكل ما حولي؛ أو الأسف على شيء حصل، أو التفكير فيما سيكون. ولكن ذلك

على ما كان من لذته لم يستمر طويلا، بل غادرني وأسلمني بعده إلى نوبة فظيعة، هي التي دفعتني إليك، نوبة أحسست معها بالحاجة المطلقة إلى أن أملك الفتاة الريفية رغما عن أنها متزوجة، ورغما من كل ما سيقوله أو يقوله الناس عنا ولكن الله سلم واستطعت أن أملك نفسي في الساعة التي كنت سأضيع فيها".

تلك (خلاصة) القصة كما قصها (حامد) على الشيخ. ولكن تزداد وضوحا في أذهانكم أمضي قليلا في وصف الملامح العامة لبعض الشخصيات المهمة؛ فعزيزة فتاة بسيطة نالت – كما قلنا – قسطا بسيطا كذلك من التعليم لم يكن يزيد على "فك الخط".

وزينب هي الفلاحة التي كانت أجيرة عند السيد محمود والد حامد. وقد أتاح لها ذلك فرصة الاختلاط المستمر بهذا الشاب الذي شعر بحب لها، وشعرت هي بمثل ذلك. وإن كانت تعلم أن الفرق بينهما لا يمكن أن يسمح لهما بالزواج، ولذلك منحت قلبها في الحقيقة شابا آخر كان يعمل معها في المزرعة، وكان صديقا لحامد. وهذا الشاب هو إبراهيم. ثم شاء القدر القاسي ألا تظفر زينب بهذا الذي تحبه، لأن تقاليد الأسرة الريفية كانت لا تسمح للفتاة بأن يكون لها رأي في زواجها من رجل بعينه. وتزوجت زينب على كره منها من شاب آخر من شباب القرية طيب الأخلاق سليم الطوية، هو حسن. وبدأت زينب حياة الزوجية ولكنها لم تنس إبراهيم، ولم تفلح قط في إقصائه عن نفسها أو قلبها، بل ظل عالقا بهما إلى أن دعي إبراهيم للخدمة العسكرية، فصدع بالأمر، وترك زينب تعاني آلام الفرقة. ومازالت هذه الآلام النفسية الكثيرة تهد من كيانها، وتنال منها حتى أصابها السل، وأفضى بها السبيل إلى الموت.

ومنذ حرم حامد من (زينب) أولا، ومن ابنة عمه (عزيزة) ثانيا أحس بفراغ مائل في حياته، ولم يجد علاجه مع هذا على يد هذا الشيخ الذي سعى إليه،

وقص قصته عليه. فانتظر حتى انتهت الأجازة، وعاد إلى العاصمة. وهناك فكر في أمره طويلا فلم يجد أمامه إلا طريقا واحدا، هو الاختفاء عن العالم، فاختفى بعد أن ترك لوالده خطابا شرح فيه آلامه كلها، وذكر جميع الأسباب التي أفضت به إلى هذه النهاية:

تلك هي قصة "زينب" "لمحمد حسين هيكل" وإن أهميتها لتظهر لنا من ذكر الخصائص العامة التي تمتاز بها. ومنها – على سبيل المثال – ما يلي:

أولا– أن المؤلف كتبها بلغة غريبة على المتأدبين في عصره بعض الغرابة: كتبها بلغة عربية تغلبت عليها "الصبغة المصرية" إلى حد كبير. وكأنه بهذا الصنيع يدافع عن "المصرية" نفسها من جهة، ويعارض قصة المويلحي التي كانت في كثير من مواضعها مكتوبة بلغة تشبه لغة المقامات العربية من جهة ثانية. ونحن نعرف عن لغة المقامات أنها تقوم على السجع والجناس والطباق والاستعارة والاستشهاد بالقرآن وبالحديث وبالأشعار الخ.

أما لغة هيكل في قصة زينب فجاءت عارية من كل ذلك. ويطول بنا القول لو أردنا أن نحصي التراكيب المصرية التي وردت في هذه القصة الاجتماعية. فإنكم واجدون هذه التراكيب في كل فصل من فصولها بل في كل صفحة من صفحاتها، ومنها على سبيل المثال:

"بقيت في مكانها ساكنة لا تبدي حراكا. ثم فردت ذراعيها من جديد" الخ[1]. ولم يقل بسطت.

"جلست العائلة جميعا حول المشنة، وأكل كل منهم رغيفه بحصوة ملح.

([1]) قصة زينب ص ٩.

ثم قام الرجل وابنه إلى عملهما"[1].

"ولم ينس إبراهيم أن ينبههم إلى أن هذه الحالة أغلت من سابقتها[2]" ولم يقل أقسى أو أشد ونحو ذلك.

"وقام بمصباح ضئيل النور – لمضة خمس شمعات – يزيد نوره ضعفا ما على زجاجته من التراب".

"تقصت أيام، وزينب تذهب لنقاوة القطن تحت رياسة إبراهيم، حتى إذا جاء وقت الحصيد انتقلت هي وأختها، وأخذ الرياسة عليهم حسين أبو سعيد"[3].

بقي حامد حتى آذن الظهر أن يزول، ولم يبق للعمال إلا أن يطلعوا بلوش[4].

"وطلعت الشمس في ذلك اليوم تزيد الوجود جمالا وفرحا، وينطرح ضوؤها على هدوم الفلاحين البيضاء الخ"[5].

"وقد رأى صاحبها – أي صاحب دكان العطارة والقماش – من أجل أن يقدم خدمته للناس الذوق الخ"[6].

ذلك أمر يحتاج التبصر والاحتراس، وأن يأخذ الإنسان باله عند كل خطوة[7].

([1]) نفس المصدر ص ١٠.

([2]) نفس المصدر ص ١١.

([3]) نفس المصدر ص ١٣.

([4]) نفس المصدر ص ١٤.

([5]) نفس المصدر ص ٤١.

([6]) نفس المصدر ص ٥٦.

([7]) نفس المصدر ص ٦٤.

"فلما كان في أصيل اليوم التالي ليوم حضورها أخذ بعضه وسار حتى وصل باب منزلها[١]".

"فأخذ حصاة وحدف بها الثور" الخ[٢].

"والكل جاءت عليهم ساعة كانوا فيها أشد صمتا" الخ[٣].

"وهل من مقام حامد أن ينزل إلى مثل ما نزل إليه" الخ[٤].

"فلم تجب زينب بحلوة ولا بمرة" الخ[٥].

على أن كاتب القصة لم يكفه ذلك حتى ملأ قصته كذلك بالأمثال العامية والتراكيب المصرية المعروفة، فأضفى بذلك على قصته (اللون المحلي) الذي احتاجت إليه. ثم لم يقف الكاتب أيضا عند هذا الحد، حتى شحن قصته كذلك بطائفة من التراكيب الأجنبية التي ليست بعربية وليست بمصرية.

"أما الوجود فقانع، راض لشيب، علمه تعاقب الدهور أن الاسترسال في تحديد الغاية بخطوط الخيال جري إلى حيرة اللانهائية[٦].

"فلما صار وسط الدار، ووسط الضجة والتصفيق، ووسط السرور المجنون" الخ[٧].

---

(١) قصة زينب ص ٨٧.

(٢) ص ١٥٣.

(٣) ص ١٦٠.

(٤) ص ١٦١.

(٥) ص ٣٩٢.

(٦) ص ١٦.

(٧) ص ٣٥.

"وقد بهت الشرق مبشرا بآلهة النار والنور"[1] الخ.

"وحامد محدق لذلك الشرق البديع تسيل سماؤه ذهبا؛ ويعانق بكله النباتات"[2].

على أن تأثر الكاتب هنا بالأدب الفرنسي تجاوز التراكيب إلى نوع الأدب ذاته: فهيكل في قصة (زينب) متأثر بالأدب العاطفي أو الرومانسي الذي ظهر في فرنسا، مفتون باحتذائه في الفكرة والأسلوب، وفي العناية التامة بالتصوير النفساني ونحو ذلك.

ثانيا– من أهم خصائص القصة التي كتبها هيكل عنايته بأوصاف الطبيعة. وكأن مؤلف قصة زينب – وقد كان طالبا يتلقى العلم في باريس – لم يجد للتعبير عن حنينه إلى وطنه خيرا من أن يقضي الساعات الطوال في رسم اللوحات الفنية التي ينقل بها مناظر الريف المصري. ومن أجل هذا كثرت هذه الأوصاف في كتابة كثيرة تلفت نظر القارئ. ولو ذهب هذا القارئ يحصي أوصاف الطبيعة في قصة زينب لرأى أن هذه الأوصاف تبلغ منها مقدار الثلث تقريبا.

ومن العبث أن نحاول هنا الإتيان بمثال من هذه الأوصاف، فكلها جيدة وكلها متشابهة، وكلها تدل على شغف هذا الشاب بالطبيعة ما فيها من جمال وفتنة.

وأكبر الظن كذلك أنه تأثر في هذا بالأدب الفرنسي الذي كان من أغراضه الدعوة إلى تقديس الطبيعة، واجتلاء جمالها والاستمتاع بما أودع الخالق

---

(1) ص ١٤٧.

(2) ص ١٥٦.

المصور فيها من أسراره، والدلائل الكثيرة على وجوده.

ثالثا– العناية بالتفاصيل، والأمثلة عليها كثيرة في قصة زينب. منها وصفه (لعملية النشوق) عند الشيوخ[1] من أهل الريف، ومنها وصفه (لصلاة الجماعة في المساجد)[2] وما إلى ذلك. وكلها جميلة ودقيقة، وفيها عناية بالتفاصيل تسترعي نظر الناقد حقا.

رابعاً– صفته الواقعية، والحق أن قصة زينب صورة صحيحة من الريف المصري بمحاسنه ومساوئه في وقت معا: فأما محاسنه فآتية من جمال مناظره وبساطة أهله في معيشتهم ومن قناعتهم حتى إن أحدهم لتكفيه الكسرة من الخبز أدامها الملح.

وأما مساوئه فكثيرة، أهمها في نظر الكاتب ما يتصل بالعائلة، أو الأسرة وفهم الريفيين لها، وطريقتهم في تكوينها، وإغفالهم حق المرأة التي هي الطرف الثاني في قضية الزوجية حيال الرجل.

فهذا شاب يتزوج من فتاة لا يعرفها ولا تعرفه، ومع ذلك يطلب منهما أن يعيشا معا طول الحياة. وهذا مجتمع يرى أن كل صلة بين الرجل والمرأة – فيما عدا الزواج – صلة خسيسة دنيئة تستحق كل احتقار[3]. وهؤلاء قوم لا يفهمون معنى الأسرة. ومع ذلك ينشدون السعادة لأنفسهم عن طريق زواج أعمى تحكمت فيه تقاليد الآباء.

إن هذا كله مما يؤخذ على الحياة في الريف المصري، ويدعو إلى التبرم بها،

---

(1) المصدر المتقدم ص ٣٣.

(2) ص ١١١.

(3) قصة زينب ص ١٤٥.

والوقوع في أخطاء كبيرة بسببها. وهكذا نجد أن كاتب القصة التي نحن بصددها لم يغفل في كتاباته العناية التامة بنقد الريف المصري في كثير من عاداته الضارة، وأوهامه السخيفة ومعتقداته الزائفة.

فمن ذلك أنهم يعتقدون أن الأمراض آتية من الجن والشياطين أحيانا، أو من الحسد أحيانا، ولا مصدر لها في نظرهم غير هذين، ثم لم يكن الأبعد جهد جهيد أن أمن هؤلاء الريفيون بالطب. ثم من ذلك اعتقادهم في (مشايخ الطرق) على صورة من الصور البعيدة عن الدين. بحيث لا نرى في الريف المصري إلا شيخا يعتمد على الشعوذة في جميع الناس للطعام والشراب، والرقص في حلقات الذكر ونحو ذلك. أما العطف على الفقراء، والعمل على راحة الناس من الديون، ومن الأمراض فشيء لا يخطر لأحد من الريفيين على بال.

على أن هذا الريف المصري لم يخل من عادات اجتماعية طيبة أشارت إلى بعضها قصة زينب. ومن أهمها عادة التعاون في أوقات الشدة من مرض أو وفاة ونحو ذلك. وفي مثل هذه الظروف تبادر الأسر كلها في الريف إلى تقديم المعونة اللازمة لأهل المريض أو الميت.

ولكن يؤخذ على مؤلف زينب عدم عنايته بالمحافظة التامة على خصائص كل شخصية من شخصيات القصة على حدة، ولهذا رأيناه يحمل هذه الشخصيات على أن تقف من نفسها ومن حوادث القصة ذاتها موقفا غير طبيعي أحيانا: من ذلك موقف عزيزة – تلك الفتاة الريفية ذات القسط البسيط من التعليم – موقف الكاتب البارعة التي تنقد المجتمع نقدا يذكر بآراء قاسم أمين. ثم من ذلك موقف (حامد) – ذلك الفتى البسيط الحظ من الثقافة أيضا – موقف الشاب الذي يلوم نفسه على الشكوى إلى شيخ جاهل من

مشايخ الطرق وهكذا.

ليالي سطيح

منذ ظهرت رواية حديث عيسى بن هشام للمويلحي، وهي حديث الخاصة والعامة من أهل مصر، يقرءونها بلذة لا تعدلها لذة، ويثنون على مؤلفها بعبارات مختلفة، ويظهر أن ذلك أحدث الغيرة في قلب شاعر شاب، هو حافظ إبراهيم. ففكر في أن ينشئ – هو الآخر – قصة من هذا الطراز. وبالفعل كتب قصة صغيرة الحجم باسم (ليالي سطيح).

والحقيقة أن (ليالي سطيح) ليست إلا سيرة لحافظ إبراهيم، ولا يستطيع الناقد أن ينظر إليها على أنها قصة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة. إن هي في الواقع إلا مذكرات خاصة لهذا الشاعر، كتبها بلغة كلفة المقامة المعروفة في الأدب العربي، وحشر فيها طائفة كبيرة من الأشعار، بعضها من نظمه، وبعضها من نظم شعراء آخرين، من أهمهم أبو العلاء المعري. وفي هذه القصة – أو المذكرات – طفق حافظ إبراهيم يشرح الحوادث المزعجة التي وقعت في السودان حوالي عام ١٩٠٥– حين كان حافظ ضابطا في الجيش المصري، ثم أحيل إلى التقاعد بسبب هذه الحوادث.

وتصادف إذ ذاك أن مات الشيخ مُحَمَّد عبده وكانت الصداقة على أتمها وأكملها بينه وبين حافظ إبراهيم. منذ كان هذا الشاعر المعذب يبعث بقصائده إلى الإمام بمدينة القاهرة، يشكو فيها حاله، ويرجو النصر على يديه، ومنذ ذلك الوقت والشاعر الشاب يتخذ من الأستاذ الإمام أباً روحياً، وصديقا وفيا، ومعينا له على حوادث الزمن.

ولكن آمال حافظ إبراهيم باءت كلها بالفشل والخيبة، وجاء موت الإمام

كارثة قضت على البقية الباقية له من هذه الآمال؛ فعاد الشاعر المسكين إلى قلمه يجد فيه العزاء عن ألمه، كما يجد الموسيقى في آلته الموسيقية بعض العزاء في مثل هذه الأوقات. وكان من نتيجة ذلك كله تلك القصة التي كتبها يومئذ، وهي "ليالي سطيح". وهي قصة لا يمكن للناقد أن ينظر إليها إلا على أنها مذكرات أو خاطرات – أو ما يشبه هذه أو تلك – لا أكثر ولا أقل.

وعلى هذا فليس من الإنصاف – بوجه ما – أن نضع "ليالي سطيح" على قدم المساواة، مع قصة المويلحي، أو قصة هيكل، وإن كانت وجوه الشبه كثيرة بالفعل بين (ليالي سطيح) و(حديث عيسى بن هشام)؛ فهما شبيهتان من حيث الأسلوب. ومن حيث الموضوعات الكثيرة التي كانت مشتركة بينهما. ومن أمثلة ذلك: مشهد الخمارة، ووصف أماكن اللهو والمجون في حديقة الأزبكية، ووصف المراقص العامة. وثم وجه من وجوه الشبه بينهما؛ هو أهم من كل ما تقدمه من وجوه الشبه الأخرى، هو البطل في كلتيهما.

فالبطل في قصة المويلحي هو (الباشا) وقد بعثه المؤلف من قبره – كما رأينا – والبطل في قصة حافظ إبراهيم هو "سطيح" وهو شخص بعثه المؤلف من قبره أيضا، وسطيح كاهن معروف في الأساطير الدينية على أنه كان رجل عاش في زمن النبي مُحَمَّد ﷺ. ومع ذلك فقد أتى به حافظ في قصته، وأتاح له توجيه النقد للمجتمع المصري عن طريق العرافة والتكهن. والقصة كلها في مائة وخمس وخمسين صفحة كتب المؤلف على غلافها "الجزء الأول" وإن كان من المحقق أن الجزء الثاني لم يخرج إلى عالم الوجود، ولا فكر المؤلف في إخراجه.

وأما موضوعات (ليالي سطيح) فكثيرة لم يسردها المؤلف بطريقة فنية صحيحة، ومن هذه الموضوعات موضوع الحجاب والسفور (١٠– ١٢) وشكوى السوريين من الجفوة التي وقعت بينهم وبين المصريين (١٦– ١٩)

وموضوع الصحافة السورية وما لها من فضل على النهضة المصرية (١٢) والشكوى من الامتيازات الأجنبية (٢٤- ٢٦) وانتشار الخرافات والأوهام بين طبقات المجتمع المصري (٢٩) ومزايا الصحافة وعيوبها، والتعرض لذكر آثارها السيئة في المجتمع المصري الحديث (٣٥- ٤٥)[1]. ثم من موضوعات ليالي سطيح أولاد الذوات، وحياتهم في حديقة الأزبكية (٢٧).

وينتقل الكاتب الشاعر عن هذه الموضوعات الاجتماعية إلى أخرى أدبية وفكرية، فيوازن بينه وبين شوقي (٥٤- ٦١) ويشيد بذكر السيد جمال الدين الأفغاني ومدرسته (٦٢- ٧٠) ويخص بالذكر الأستاذ الإمام مُحَمَّد عبده، ويدافع عن اتصاله بالوكالة البريطانية بحجة أنه يريد أن يدفع عن المصريين أذى القوم (١٤٥). وقد شبه المؤلف جمال الدين الأفغاني بسقراط، ومُحَمَّد عبده بأفلاطون. ثم تحدث المؤلف عن ثورة السودان عقب حرب الترنسفال. واستغرق الحديث عن هذه الثورة ثلاثين صفحة (٨٠- ١١٠). وتحدث في أثناء ذلك عن معاملة الإنجليز للمصريين في السودان. وكيف كان الويل كل الويل للمصري حين يشكوه زنجي، ويحكم الإنجليز بينهما (١٠٣) ثم تكلم المؤلف عن قضية دنشواي (١١١- ١١٢). وهنا يستشهد في قصته بمقالات طويلة من "المؤيد" مبتدئاً إياها بقوله: ولقد أبرد غليلي ما كتبه صاحب المؤيد اليوم عن تلك الحادثة النكيرة بعنوان "السياسة الضعيفة العنيفة" ثم يأتي بالمقال كله فيشغل به من صفحات الكتاب تسع صفحات كاملة (١٢٢- ١٢١) جاء فيها قول صاحب المؤيد: والقارئ لما نشرناه اليوم – نقلا عن جريدة التيمس – يرى كيف كان مركز ناظر الخارجية البريطانية حرجا في البرلمان، وهو يسأل عن كيفية

---

[1] فمن من مساوئها أنها حبائل لصيد الأموال، وأنها سبب فساد الأخلاق؛ وأنها لا تتوخى فضلاء الناس في التحرير، بل تدخل الأسافل زمرة المحررين الخ: في

تنفيذ الحكم (١٠٨).

أما أسلوب القصة فقد قلنا أنه يشبه أسلوب المقالة العربية، ونضيف إلى ذلك أن الشاعر تأثر فيه كذلك بالقرآن الكريم، وأشاع فيه الصور البيانية التي تروق أصحاب الذوق القديم، وتبلغ من نفوسهم مبلغا عظيما في حلاوة اللفظ وجمال التعبير.

* * *

القصة الاجتماعية في لبنان

هذا كله في مصر، أما في لبنان – بنوع خاص– فإن أول محاولة للقصة الاجتماعية كانت على يد سليم البستاني (١٨٤٨– ١٨٨٤) وذلك في مجلة "الجنان" حيث يرى القارئ عددا من القصص وهي: الهيام في جنان الشام (١٨٧٠) أسماء (١٨٧٣) سامية (١٨٨٣) وقد استوحى البستاني حوادث هذه القصص، ورسم أشخاصها من البيئة اللبنانية التي ولد بها، وعاش فيها، ولازمها طيلة حياته.

ثم توالى بعده الكتاب اللبنانيون ينشئون مثله قصصا اجتماعية من هذا النوع، وينشرونها في الصحف التي صدر بعضها في لبنان، وبعضها في مصر، وبعضها في بلاد أخرى، ومن هؤلاء: سعيد البستاني، وجورجي زيدان، وفرج أنطون، ونقولا الحداد، وسليم سركيس، ويعقوب صروف، ولبيبة هاشم، ونجيب غرغور، وزينب فواز، وجبران خليل جبران[1].

وإن نظرة عجلى إلى هذا النتاج الضخم من القصص اللبناني لترينا كيف

---

(١) محمد يوسف نجم: القصة في الأدب العربي الحديث ص ٩٧– ٩٨.

أن الهدف الاجتماعي كان يغلب كل هدف آخر في كل قصة من تلك القصص. وإن اشترك كتابها جميعا في بعض صفات خاصة؛ منها الحشو، والاستطراد وذكر النصائح الاجتماعية والمواعظ الخلقية، كما اشتركوا في الاعتماد على الحيل والمفاجآت والمبالغات البعيدة الاحتمال، وفي تفكك البناء القصصي، والاتكاء على حادث الحب والغرام التي ينتهي غالبا بالزواج وفي غلبة الخير على الشر في جميع هذه القصص على اختلافها، ونحو ذلك.

واشتركت هذه القصص أيضا في أمر آخر، هو نقد المجتمع الشرقي والموازنة بينه وبين المجتمع الأوروبي. كما اشتركت كلها كذلك في الأسلوب؛ فمالت إلى السجع، والاستشهاد بالشعر. وهي في هذه الصفات الأخيرة شبيهة "بحديث عيسى بن هشام". وإن كان من الحق أن يقال إن قصة المويلحي تفوقت من حيث الأسلوب على جميع القصص اللبنانية السابقة تفوقا يعلو عن الموازنة.

* * *

(وبعد) أفليس في هذا كله ما يدل على أن القصة الفنية في مصر وغيرها من الأقطار العربية نشأت أول ما نشأت في أحضان الصحافة، وبأقلام الرجال المشتغلين بالصحافة، وأنه من أجل هذه الصحافة وجدنا القصة العربية تظهر أولا في الميدان الاجتماعي؛ وهو الميدان الذي يلائم الصحف، فقد وجدت الصحف من أجله، وعاشت من أجله. وتكلمت بلغته، ووقفت حياتها على خدمته،

القصيدة الشعرية والصحافة المصرية

رأيتم كيف كانت البيئة المصرية مشغولة بحوادثها الكثيرة إلى أواخر القرن الماضي عن القصة. ولكن هذه الأحداث الكثيرة في تلاحقها، وخطورتها، وحرارتها كانت في الوقت نفسه باعثا قوياً على إيجاد فنين آخرين من فنون الأدب وهما: فن المقالة أولا، وفن القصيدة بعد ذلك.

وكما كانت الصحافة ذات أثر بالغ في (القصة) من حيث اتجاهها، ومن حيث أسلوبها، فكذلك كانت الصحافة ذات أثر بالغ في "القصيدة" من حيث غرضها، ومن حيث لغتها، ومن حيث الدور الذي أدته للبيئة المصرية في ميدان السياسة، والأدب، والمجتمع.

ونحن نعلم أن كلا من المقالة والقصيدة أثر أدبي قصير الطول، لا يحتاج في قراءته إلى الوقت الذي تحتاج إليه القصة.

ومن ثم كان الأثران الأولان: وهما القصيدة والمقال ملائمين للبيئة المصرية في تلك الفترة أكثر من أية فترة سبقتها.

ولكي تفهموا معي الدور الذي لعبته الصحافة في ميدان الشعر لا بد أن أنتقل بأذهانكم مرة أخرى إلى شيء من الأجواء الفكرية والسياسية التي أحاطت بجميع الفنون الأدبية، وإن نظرة واحدة إلى الحركة الشعرية التي بدأت في النصف الثاني من القرن الماضي، واستمرت إلى أوائل القرن الحالي لتدلنا دلالة لا تقبل الشك على أن الشعراء كالكتاب شاركوا في جوانب النهضة المصرية: سياسية كانت أم فكرية أم أدبية أم اجتماعية.

ولكن أيهما سبق الآخر في الدعوة إلى هذه النهضة في كل ميدان من

الميادين التي تشير إليها؟ الصحافي أم الشاعر؟

لقد قلنا عن القصة المصرية أنها لم تكن حدثا مفاجئا في عالم الأدب، بل كانت لها مقدماتها التي مهدت لها، ومنها الصحافة، وكذلك نقول عن القصيدة الشعرية أنها انتقلت من طور إلى طور، ومن حال إلى أخرى بسبب الصحافة.

وهل كان هناك طريق أضمن، أو أسرع، أو أيسر من طريق الصحيفة اليومية التي تنقل الشعب – أو للطبقة المستنيرة منه على الأقل – آراء قادته وأفكار الصفوة المهذبة من مفكريه؟

إن الصحيفة ما زالت إلى اليوم هي الطريق السريع إلى شهرة الأديب، سواء كان كاتبا أم شاعرا أم فيلسوفا أم عالما. والفرق عظيم جدا بين الشاعر الذي وجد قبل ظهور الصحافة والشاعر الذي وجد بعد ظهور هذه الأداة الجديدة من أدوات التفاهم بين الناس، وهي الصحافة.

أما الشاعر القديم فكان لا يخاطب بشعره إلا طبقة بعينها؛ هي طبقة المثقفين بالثقافة الأدبية واللغوية العالية التي تعين على فهم الشعر وتذوقه. وهذه الطبقة المعينة قليلة جدا بطبيعتها في أية أمة من الأمم.

وأما الشاعر الحديث – وهو الشاعر الذي اتخذ من الصحيفة مسرحا لشعره وبوقا لنظمه – فإنه أصبح يخاطب بهذا الشعر ملايين البشر في وطنه الذي يعيش فيه، وفي غيره من الأوطان التي تتكلم لغته، وتستطيع أن تحصل على صحيفته. وإذن فقد أصبح على الشاعر الحديث أن يحسب في شعره الذي ينظمه حسابا لهذه الملايين من القراء الذين يراد لهم أن يقرءوا هذا الشعر. فإن فهموه ربح الشاعر وشعره معه، وإن لم يفهموه خسر الشاعر وشعره معه. فكأن شهرة الشاعر رهن بقرائه في الصحيفة دائما. ومن ثم وجب

عليه أن يقدم لهم في هذه الصحيفة ما يلائم عقولهم. ويتفق وأمزجتهم ويعبر عن آرائهم وأفكارهم في ميدان السياسة أو المجتمع.

وأي فرق يكون في هذه الحالة بين القصيدة والمقالة؟

إن المقالة لا تهدف إلا إلى مثل هذه الغاية.. أليست المقالة عبارة عن حديث من الأحاديث في مشكلة من المشكلات يسوقه الكاتب – لا لفائدته هو – ولكن لفائدة المجموع، ولا للتعبير عن ذاته هو، ولكن للتعبير عن ذات المجموع؟

وعلى هذا فالقصيدة الشعرية في أدبنا الحديث إنما هي مقال منظوم، لا منثور، به يخاطب الشاعر الجماهير، ويحرص على أن يكون صدى لعواطفهم ومشاعرهم، وصورة من رأيهم وفكرتهم. وبهذا وحده يضمن الشاعر لقصيدته السيرورة والذيوع، وتلك هي الغاية التي من أجلها تنشر قصيدته في الصحيفة ليقرأها أكبر عدد من الناس.

ولقد كان لهذه الظاهرة في حياة الشعر المصري الحديث نتائج خطيرة من حيث الأسلوب ونتائج خطيرة من حيث الموضوع، وذلك منذ أصبح الشاعر الحديث لا ينشر شعره في حضرة الأمير وحاشية الأمير، ويعمل حسابا لهذه الحاشية وحدها غالبا. ولكن أصبح هذا الشاعر الحديث يعنى بالجماهير، ويقدر في نفسه دائما أن شعره هذا سيجوب بلادا كثيرة، ويصل إلى آفاق بعيدة؛ فعليه إذن أن يراعي العواطف العامة، وعليه إذن أن ينسى نفسه في شعره بعض الشيء. ومعنى ذلك أن الشعر الحديث لم يعد قيثارة الشاعر الغنائي يتسلى بها، ويتخذ منها أداة للتعبير عن مشاعره هو بصرف النظر عن مشاعر الجمهور.

وهكذا فقد الشعر الغنائي الحديث – أو كاد يفقد في الحقيقة – أول

شرط من شروطه في الزمن القديم، وهو (الذاتية)، ومعناها عناية الشاعر بذاته أولا بدون نظر إلى ذوات الغير.

نعم.. كان لهذه الظواهر كلها في حياة الشعر الحديث نتائج خطيرة من حيث الأسلوب، ونتائج خطيرة من حيث الموضوع:

أما من حيث "الأسلوب" فإن لغة القصيدة، قربت قربا ظاهرا من لغة المقالة، فأوجب الشاعر على نفسه أن تكون ألفاظه سهلة قدر المستطاع، وألا تشتمل قصيدته على ألفاظ غريبة كل الغرابة، أو معان مستغلقة كل الاستغلاق.

وفي هذا المجال الأخير – مجال الغرابة في اللفظ والمعنى – كان الشعراء القدامى يتنافسون، أيهم يأتي بذلك، فهو الشاعر الذي يروع السامعين.

ثم أن القصيدة الشعرية الحديثة أصبحت توجه إلى الجماهير، وكأنها خطبة من الخطب. وبدت عليها خصائص الخطابة: من إيراد لضمائر الخطاب وأحرف النداء، إلى إكثار من أفعال الأمر وأسماء الإشارة ونحو ذلك. وسنرى أمثلة كثيرة من كل ذلك في شعر حافظ، وشوقي، وغيرهما من شعراء الحلبة التي سنشير إليها.

وأما من حيث (الموضوع) فقد أصبح كل شاعر حديث يصور عواطف الأمة المصرية قبل أن يصور عواطفه الخاصة، ويعبر عن آمالها وعن آلامها أكثر مما يعبر عن آماله وآلامه. ولذلك أصبحنا لا نفهم الشاعر الحديث إلا إذا كانت لنا ثقافة سياسية وتاريخية لا تقل عن ثقافتنا اللغوية والنقدية، وبغير هذا وذاك يبخس الشاعر حقه، ولا تتجاوب معه في كثير أو قليل.

وكذلك الشأن حين نريد أن نعلل لما نسميه في أدبنا الحديث (بشعر المناسبات)، فإن هذه المناسبات ليست غير الحوادث الجارية التي تحدث للأمة،

وتحرك أقلام الصحفيين فيها يوما بعد يوم، وتحثهم على الكتابة حثاً، ولا تمهلهم عنها حتى يفكروا طويلا أو يسترسلوا مع عواطفهم وخواطرهم ومشاعرهم، كما يفعل الشاعر أو الأديب المنقطع للأدب وحده.

وكما تثير الحوادث والمناسبات في نفس كتاب الصحف نشاطا من نوع خاص، وتدفعهم إلى الكتابة على نحو خاص، فكذلك تفعل الحوادث والمناسبات بنفوس الشعراء، فتضطرهم دائما إلى نظم القصائد في كل حادثة أو مناسبة. ويحس الشاعر في هذه الحالة أن الجمهور ينتظر منه القصيدة، كما ينتظر المقال من صاحب الجريدة.

وهكذا اشتركت القصيدة مع المقال في التعبير عما يسمى "بالرأي العام" وكفى بهذا تطورا في عالم الشعر، وانقلابا في دنيا القصيد، وكفى به داعيا إلى المساجلات الشعرية التي كثيرا ما تشبه المساجلات الصحفية، وقد لا تستغني الصحف ذاتها عن هذين النوعين من المساجلة.

لهذه الأسباب المتقدمة كلها وجدنا القصيدة الشعرية في أدبنا الحديث تسبح في نفس المحيطات التي سبحت فيها المقالة الصحفية.

ومن أهم هذه المحيطات اثنان وهما:

أولا– محيط الإصلاح الاجتماعي. ثانيا– محيط الحركة الوطنية.

وسنقف عند الموضوع الأول منهما أولا لنرى كيف كان الشعراء تابعين فيه لرجال الصحف. وكيف كان الشعراء يعتبرون أنفسهم أفرادا من أسرة الصحيفة دائما، عليهم ما على الأسرة من واجبات، ولهم ما لها من أهداف وغايات.

الشعر والإصلاح الاجتماعي

في كلامنا عن القصة الاجتماعية في مصر مهدنا لذلك بذكر مفاسد المجتمع المصري التي لحقته منذ اتصاله بالحضارة الأوروبية، وكان من ذنوب هذه الحضارة هجومها العنيف على الإسلام، وإذاعة بعض الأخلاق والعادات التي تنافي أحكامه، ولا تتفق وروحه. وقد أفضى ذلك بالمصلحين في مصر إلى أمرين:

أولهما– الدعوة إلى الاستمساك بالدين الصحيح، وتنقية هذا الدين من البدع والخرافات والأوهام التي علقت به.

ثانيهما– محاولة النظر فيما جلبته الحضارة الأوروبية على الشرق من أفكار وعادات، فما كان منها مفيدا أخذ به، وما كان منها ضارا مشينا بسمعة مصر والشرق نبذة القوم، وأقلعوا عنه.

وقد نشر المصلحون دعوتهم هذه في الصحف، واتسع صدر الصحافة يومئذ لألوان كثيرة من الإصلاح، وسنرى في الفصل الذي نتحدث فيه عن المقال كيف احتلت الدعوة إلى الإصلاح مكان الصدارة من جميع الجرائد على اختلافها، وتعدد نزعاتها.

وجاء الشعراء فألفوا من أنفسهم الصف الثاني من صفوف الإصلاح الاجتماعي في مصر. فكان كلما ارتفع صوت من أصوات المصلحين بمعنى من المعاني أو فكرة من الأفكار، سمع الناس بعد ذلك صوت الشاعر الذي يردد هذه النغمة نفسها ويستحوذ على عقول الجماهير بهذا الصدى بعينه. وآية ذلك أنك لا ترى ديوانا من دواوين الشعر الحديث إلا وفيه باب خاص باسم "الاجتماعيات". وإذا ذهبت تؤرخ لما اشتمل عليه هذا الباب من القصائد وجدت أن كل واحدة منها نشرت على أثر مقال أو مقالات في معنى هذه

القصيدة بالذات فيدل ذلك على ما سبق أن أشرنا إليه من أن الشاعر كان يعتبر نفسه إذ ذاك فردا من أفراد الأسرة الصحفية، له ما لهم، وعليه ما عليهم من الواجبات الجسام.

والآن لنستمع إلى شاعر من الشعراء، وهو (محرم) يدعو إلى الاستمساك بالدين في عصر غلب عليه المروق من الدين، وصغت القلوب على داع من الغرب يدعو إلى نبذ الديانة الإسلامية التي أصابت – في زعمه – الشرق الإسلامي كله بالهزيمة والتأخر.. يقول محرم في هذا المعنى:

تــذكر ماضــي دينــه فتوجعــا ... وأحزنــه مــا نابــه فتوجعــا

وأهلكــه مــن قومــه أن قومــه ... بعميــاء يأتي غيمهــا أن يقشــعا

هموا ضيعوا ما استودعوا من نفائس ... أراهـا بأيـدي القـوم نهبـا موزعـا

وهـم خـذلوا الـدين القـويم وزعزعـوا ... جوانبــه حــتى وهــي وتضعضــعا

هـو الـدين إن يـذهب فـلا عـز بعـده ... وإن جد ساعينا على أثر من سعى

وما زال هذا الاتجاه في الشعر يقوى مع الأيام حتى بلغ أشده عند شوقي في "نهج البردة"، "وفي الهمزية" التي مدح بها رسول الله ﷺ، وفي غيرهما من القصائد التي أصبحت في أيامنا هذه محفوظة من جميع الناس.

أما تنقية الدين من الخرافات فقد وقع العبء الأكبر في هذه الناحية من نواحي الإصلاح – كما سنرى بعد – على كتف الشيخ محمد عبده، ثم تبعه في ذلك الكتاب والشعراء:

وانظروا إلى (حافظ إبراهيم) وهو يسخر من "أضرحة الأولياء"

أحيــاؤنا لا يرزقــون بــدرهم ... وبألــف ألــف تــرزق الأمــوات

من لي بحظ النائمين بحفرة | قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الأنام لها ويجري حولها | بحر النذور وتقرأ الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى | ووسيلة تقضي بها الحاجات[1]

واستمعوا إلى "الكاشف" يصور لنا كذلك جهل الناس وأتباعهم لمشايخ الطرق:

كل يوم ترى وتسمع مهديا | ينادي في قومه اتبعوني
موهما أنه رسول من الله | أتى يستعيد مجد الدين
وهو خال من التجارب والقو | ة والعلم والهدى واليقين
فإذا التفت حوله الناس أغرا | هم بإيقاد كل شركمين
وادعى أنه بذلك مأمو | ر من الوحي كالنبي الأمين[2]

أما المفاسد الخلقية التي أتت بها الحضارة الأوروبية فقد ندبها شعراء كثيرون، كان من أشهرهم كذلك حافظ إبراهيم. وقد كانت "الأزبكية" في نظر ذلك الجيل بؤرة الفساد الذي غرق فيه الشباب المصري إلى أذنيه، وأنفق في سبيله كل ما لديه. حتى لقد قيل إن بالقطر المصري كذا مليونا من الأفدنة، ولكن قطعة صغيرة من الأرض – هي أرض الأزبكية – تبتلع ربع كل هذه الملايين من الأفدنة، واستمعوا إلى حافظ إبراهيم يخاطب الأزبكية بقوله لها:

كم وارث غض الشباب رميته | بغرام راقصة وحب هلوك

---

(1) ديوان حافظ ط دار الكتب المصرية ص ٣١٨.

(2) ديوان الكاشف ج ١ ص ٨٠.

ألبسته الشوبين في حاليهما   تيه الغنى وذلة المفلوك[1]

ويقول من قصيدة أخرى في المعنى المتقدم وفي حض الشباب على العمل وترك الكسل[2].

أنابتة العصر إن الغر   يب مجد بمصر فلا تلعبي

يقولون في النشء خير لنا   وللنشء شر من الأجنبي

أفي الأزبكية مثوى البنـ   ـين وبين المساجد مثوى الأدب؟

وكم ذا بمصر من المضحكا   ت كما قال فيها أبو الطيب

فشعب يفر من الصالحا   ت فرار السليم من الأجرب

وصحف تطن طنين الذبا   ب وأخرى تُشِنَّ على الأقرب

وقالوا: دخيل عليه العفا   ء ونعم الدخيل على مذهبي

رآنا نياما ولما نَفِق   فشمر للسعي والمكسب

ألفنا الخمول ويا ليتنا   ألفنا الخمول ولم نكذب الخ

وفي هذا المعنى الأخير، وهو الحض على العمل وترك الكسل يقول صبري قصيدته التي أولها:

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني   إذا ونى يوم تحصيل العلا واني

(1) ديوان حافظ إبراهيم ط دار الكتب ص ٣١٤.

(2) نفس المصدر ص ٢٥٧.

ومنها:

لا تقربـوا النيـل إن لم تعملـوا عمـلا فمـاؤه العـذب لم يخلـق لكسـلان
وابنـوا كمـا بنـت الأجيـال قبلكمـو لا تتركـوا بعـدكم فخـراً لإنسـان

وكان من أسوأ آثار الحضارة الأوروبية تعلق الشبيهة المصرية باللغة الفرنسية، وإيثارهم لها على اللغة العربية، ورميهم هذه اللغة بالقصور عن مسايرة الحضارة في ركبها، والعلم في تقدمه، فبرز من الصفوف حافظ إبراهيم يدافع عن العربية – لغة القرآن والسنة – وذلك في قصيدته المشهورة التي جعل فيها اللغة العربية تنعي حظها بين أهلها وتقول[1]:

رجعـت لنفسـي واتهمـت حصـاتي وناديـت قـومي واحتسـبت حيـاتي
رمـوني بعقـم في الشـباب وليتـني عقمـت فلـم أجـزع لقـول عـداتي
ولـدت ولمـا لم أجـد لعرائسـي رجـالا وأكفـاء وأدت بنـاتي
وسـعت كتـاب الله لفظـا وغايـة ومـا ضـقت عـن آي بـه وعظـات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسـيق أسمـاء لمخترعـات؟

ومن العادات القبيحة التي سرت من الأوروبيين إلى الشرقيين عادة "القمار" و"المضاربات المالية" ونحوهما من العادات الأجنبية. وقد رأيتم في الكلام عن "القصة الاجتماعية" كيف أخذت الصحف الشعبية تحارب هذه الأدواء محاربة لا هوادة فيها: وقد كان لزاما على الشعراء أن يفعلوا مثل ذلك. وهذا أحدهم، وهو الشيخ نجيب الحداد يقول في ذم القمار[2]:

---

(1) المصدر المتقدم ص ٢٥٣.

(2) عادل الغضبان: الشيخ نجيب الحداد ص ٥٧.

هـو الـداء الـذي لا بـرء منـه ... ولـيس لـذنب صـاحبه اغتفـار

تشـاد لهـم المنـازل شـاهقات ... وفي تشـييد سـاحتها الـدمار

يصـيب النـازلين بهـا سـهاد ... فـإفلاس فيـأس فانتحـار

قـد اختصـر والتجـارة مـن قريـب ... فعـدم في الدقيقـة أو يسـار

فبـئس المـال لا تحظـى يمـين ... بـه حـتى تسـلمه اليسـار

ويصف الشاعر (عائلات) المقامرين فيقول:

فكـم تركـوا النسـاء نبيـت تشـكو ... وتسـعدها الأصـيبية الصـغار

تبيـت علـى الطـوى ترجـو وتخشـى ... يؤرقهـا السـهاد والانتظـار

فبئسـت عيشـة الزوجـات حـزن ... وتسـهيد وهجـر وافتقـار الخ

* * *

وظهر كتاب قاسم أمين (تحرير المرأة)، ونشره الكاتب فصولا متتابعة بصحيفة المؤيد، وكان له تأثير كبير في الأدب كما رأينا. ومنذ ذلك الوقت والشعراء يتبعون قاسم أمين في الدعوة إلى تعليم الفتاة، وكلما أنشئت مدرسة للبنات انتهزها الشعراء فرصة لإطراء هذا الاتجاه.. من ذلك ما قاله حافظ احتفالا بإنشاء مدرسة البنات ببورسعيد عام ١٩١٠[١].

كـم ذا يكابـد عاشـق ويلاقـي ... في حـب مصـر كثـيرة العشـاق

إني لأحمـل في هـواك صـبابة ... يا مصـر قـد خرجـت عـن الأطـواق

مـن لي بتربيـة النسـاء فإنهمـا ... في الشـرق علـة ذلـك الإخفـاق

(١) ديوان حافظ ط: دار الكتب المصرية.

الأم مدرســــــة إذا أعـــــــددتها ... أعــددت شــعباً طيــب الأعــراق

الأم روض إن تعهــــــده الحيـــــا ... بالـــــري أورق أيمــــا إيـــــراق

الأم أســـــتاذ الأســـــاتذة الأُلى ... شــغلت مــآثرهم مــدى الآفــاق

ومنها:

لبســت نســاؤكمو حلــى وجــواهرا ... خـوف الضـياع نصـان في الأحقـاق

ليســـت نســـاؤكمو أثاث يقتـــنى ... في الـــدور بـــين مخـــادع وطبـــاق

تتشـــكل الأزمـــان في أدوارهـــا ... دولا وهـن علـى الجمـود بـواقي الخ

ألا– وما أشبه هذه الألفاظ والمعاني بمثيلاتها في مقالات قاسم أمين ولطفي السيد وطلعت حرب ومن إليهم.

* * *

وثم دعوة من دعوات الإصلاح ترمي إلى العطف على الطبقات الفقيرة والإنسانية المعذبة على حد تعبير الصحف في وقتنا الحاضر، كالعطف على الفلاح والعامل، والشفقة على اليتيم والمسكين، والأعمى، والأصم، والمطالبة لهؤلاء جميعا بحقهم على الحكومة وعلى الشعب، من نحو إنشاء الملاجئ والمستشفيات والمعاهد التي تعني بالشواذ من الناس ونحو ذلك.

وسأكتفي بأن أضرب هنا مثلا واحدا فقط، من شعر حافظ، وهو قوله في حفل إقامته (جمعية رعاية الأطفال) بدار الأوبرا. وذلك في ١٨ أبريل سنة ١٩١٠[1].

---

(1) المصدر المتقدم ص ٢٧٥.

شـــبحا أرى أم ذاك طيـــف خيـــال لا بـــل فتـــاة بالعـــراء حيـــالي

أمســـت بمدرجـــة الخطـــوب فمـــا لهـــا راع هنـــاك ومـــا لهـــا مـــن والي

حســـرى تكـــاد تعيـــد فحمـــة ليلهـــا نارا بأنات ذكـــــين طـــــوال

مـــا خطبهـــا؟ عجبـــا- ومـــا خطـــبي بهـــا مـــالي أشـــاطرها الوجيعـــة مـــالي؟

دانيتهـــا ولصـــوتها في مســـمعي وقـــع النبـــال عطفـــن إثـــر نبـــال

وســـألتها مـــن أنـــت؟ وهـــي كأنهـــا رســـم علـــى طلـــل مـــن الأطـــلال

فتململـــت جزعـــا وقـــال: حامـــل لم تـــدر طعـــم الغمـــض منـــذ ليـــالي

قـــد مـــات والـــدها وماتـــت أمهـــا ومضـــى الحمـــام بعمهـــا والخـــال الخ

وسرت دعوة العطف على الطبقات الفقيرة في الصحف والمجلات، وأقبل الشعراء يحتذون الكتاب في ذلك: وطفقوا يأخذون معاني الكتاب في كل ذلك. وانظر هنا إلى شعر شوقي في همزيته التي مدح بها رسول الله ﷺ إذ يقول:

الاشـــتراكيون أنـــت إمـــامهم لـــولا دعـــاوى القـــوم والغلـــواء

أنصـــفت أهـــل الفقـــر مـــن أهـــل الغـــنى فالكـــل في حـــق الحيـــاة ســـواء

فلـــو أن إنســـانا تخـــير ملـــة مـــا اختـــار إلا دينـــك الفقـــراء الخ

فأين هذا كله من معاني الشعراء القدماء؟ إن هذا لمن وحي الصحافة وحدها وإنه لمن بعض ألفاظها وأساليبها، وأنه لأبعد ما يكون من قول شاعر كجرير:

وإني لعـــف الفقـــر مشـــترك الغـــنى ســـريع إذا لم أرض داري انتقاليـــا

* * *

أما مشروع (الجامعة المصرية) – وهو أثر من آثار (دنشواي) – فقد نادى به مصطفى كامل بعد هذا الحادث إذ ما كان يهزم الإنجليز هزيمة نكراء في هذه القضية حتى تحمس الزعيم الشاب للإصلاح الاجتماعي وأمعن في مطالبه الوطنية التي كان من أهمها يومئذ مشروع الجامعة.

قال حافظ في قصيدة له ألقاها في المحفل الماسوني لمشروع الجامعة المصرية، وذلك في ١٩ مارس سنة ١٩٠٧ وفي هذه القصيدة يندد حافظ بسياسة الاحتلال التي قامت على العناية فقط بالإكثار من الكتاتيب العامة[١].

إن كنتمو تبدلون المال عن رهب ... فنحن ندعوكمو للبذل عن رغب[٢]

ذر الكتاتيب منشيها بلا عدد ... ذر الرماد بعين الحاذق الأدب

فأنشاوا ألف كتاب وقد علموا ... أن المصابيح لا تغني عن اللهب

هبوا الأجير أو الحراث قد بلغا ... حد القراءة في صحف وفي كتب

من المداوي إذا ما علة عرضت ... من المدافع عن عرض وعن نشب؟

ومن بروض مياه النيل إن جمحت ... وأنذرت مصر بالويلات والحرب؟

ومن يوكل بالقسطاس بينكمو ... حتى يرى الحق ذا حول وذا غلب؟

ومن يميط ستار الجهل إن طمست ... معالم القصد بين الشك والريب؟

فمالكم أيها الأقوام جامعة ... إلا بجامعة موصولة النسب الخ

* * *

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٥.

(٢) في هذا البيت سخرية من سياسة اللورد كرومر التي قضت بتسخير العمد والمشايخ والأعيان لجمع المال بالقوة بحجة إنشاء الكتاتيب.

وقد شغل المجتمع المصري زمانا بطائفة من القضايا السياسية والاجتماعية كتبت عنها الصحف الشعبية، وشغلت بكتاباتها الرأي العام، وأصبحت حديث الخاصة والعامة في تلك الأيام.

ومن هذه القضايا على سبيل المثال: قضية الزوجية للسيد علي يوسف(١) وقضية التلغرافات للمؤيد، وقضية المنشاوي، وقضية النديم الخ.

ونحن نقول دائما أن الشعر كان لا يسعه السكوت عن المشاركة في كل ما يتصل بالمجتمع. شأنه في ذلك شأن الصحافة سواء بسواء. وسنضرب هنا مثلا واحدا فقط من شعر حافظ في قضية الزوجية التي أشرنا إليها.

وخلاصة هذه القضية أن السيد علي يوسف – صاحب المؤيد – أراد أن يصهر إلى بيت من أعرق البيوتات المصرية، هو بيت السادات. وتم عقد الزواج في ١٤ يوليه سنة ١٩٠٤. فلما علم والد الزوجة – هو السيد عبد الخالق السادات – بهذا العقد الذي تم بمنزل السيد توفيق البكري رفع دعوة التفرقة بين الزوجين، مدعيا عدم أهلية السيد علي يوسف لابنته. ومنذ ذلك التاريخ اتخذت هذه القضية نوعا من الأهمية. وذلك لأسباب أربعة نجملها فيما يلي:

أولا– أن القضية مست من قريب أعز شيء على نفوس المصريين وهو التقاليد.

ثانيا: أن الوكالة البريطانية – لأمر ما – أقحمت نفسها في الموضوع ومالت إلى جانب السيد علي يوسف، ظنا منها أنها تكسب المؤيد إلى صفها، كما كسبت من قبل جريدة المقطم.

ثالثا: أن موقف القضاء الشرعي من هذه القضية كان أميل إلى النزاهة

---

(١) اقرأ عنها فصلا مسهبا في كتاب أدب المقالة الصحفية في مصر للمؤلف ج ٤ من ١١٠– ١٢١.

والعدل مما أثار حمية المسلمين من المصريين، وحرك إعجابهم، واستولى على مشاعرهم.

رابعا: أن التحقيق في هذه القضية تعرف لموضوع مهم يتصل بالصحافة أقوى اتصال، وهو قيمة الرجل الذي يحترف الصحافة في مصر، وهل مهنة الصحافة من المهن التي تستحق الاحترام من حيث هي؟

من أجل هذه الاعتبارات المتقدمة نظر الناس إلى هذه القضية على أنها سياسية، واجتماعية، وصحفية في وقت معاً، وأشار إليها حافظ –كما قلنا – في بعض قصائده فقال[١].

وقـــالوا (المؤيـــد) في غمـــرة ... رمـــاه بهـــا الطمـــع الأشـــعبي

دعـــاة الغـــرام بســـن الكهـــو ... ل فجـــن جنـــونا ببنـــت النـــبي

فضـــج لهـــا العـــرش والحـــاملو ... هـ وضـــج لهـــا القـــبر في يثـــرب

ونادى رجــــــال بإســـــقاطه ... وقـــالوا: تلـــون في المشـــرب

وعـــدوا عليـــه مـــن الســـينا ... ت ألوفـــا تـــدور مـــع الأحقـــب

وقـــالوا لصـــيق بنـــت الرســـول ... أغـــار علـــى النســـب الأنجـــب

وزكـــى (أبـــو خطـــوة) قـــولهم ... بحكـــم أحـــد مـــن المضـــرب[٢]

فمـــا للتهـــاني علـــى داره[٣] ... تســـاقط كـــالمطر الصـــيب

([١]) ديوان حافظ إبراهيم ط: دار الكتب المصرية ص ٢٥٨.

([٢]) الشيخ أبو خطوة هو القاضي الذي حكم في قضية الزوجية.

([٣]) الضمير عامد على السيد علي يوسف.

ومـــا للوفـــود علـــى بابـــه ... تـــزف البشـــائر في موكـــب

ومـــا للخليفـــة أســـدى إليـــه ... وســـاما يليـــق بصـــدر الأبي الخ

وخفت الصحف للكتابة في هذه القضية الشرعية لأنها مست العواطف المصرية، ولأن صاحب المؤيد تخطى فيها بعض التقاليد القومية. ثم أتى الشعراء فعز عليهم ألا تكون لهم مشاركة قوية في هذه المسألة، فأكثروا من القول فيها: منهم من كان في صف صاحب المؤيد ومنهم من وقف ضده وناصبه العداء، وأظهر فيه الشماتة. ومن هؤلاء الذين شمتوا فيه إبراهيم المويلحي صاحب جريدة (مصباح الشرق) وغيره[1].

* * *

إيه – ربة الشعر – فقد كنت في الأزمان السابقة تعيشين في قصر من ذهب وذلك في كنف أمير أو وزير أو قائد خطير، وكنت لا تنزلين إلى الدهماء في بيوتهم وأسواقهم إلا نادرا. وإذا نزلت إليهم عدوا ذلك عيبا عليك، وخطأ منك!

أما اليوم فقد خرجت – ربة الشعر – من هذا القفص، ومشيت مع العامة في النوادي والطرق، وأحسست لذة لا تعدلها لذة في هذه الحياة الجديدة التي جاريت فيها الصحف.

إيه – ربة الشعر – لقد كنت في الأزمان السابقة تكلفين بالمدح، وبالرثاء الذي هو نوع من المدح أيضا، وكنت تمدحين الأمير وحاشية الأمير وكنت كثير ما تقفين موقف الزلفى والخضوع والملق والرياء لهؤلاء جميعا.

---

(1) ومن هؤلاء كذلك إسماعيل صبري، وولي الدين يكن، وأحمد نسيم.

أما اليوم فقد أصبح للمدح أو الرثاء عندك معنى جديد، وصورة جديدة أصبحت تمدحين الفرد على أنه جزء من المجتمع، وأصبحت ترثين الفرد لأنه كذلك جزء من هذا المجتمع.

ومن ثم غدت قصيدة المدح في العصر الحديث وكأنها أشبه شيء بالخطبة التي تلقى في المحافل العامة على عدد كبير من الجمهور. وبعد أن كان المدح في العصور التي سبقت هذا العصر الحديث يراد به الحصول على المال، والزلفى إلى ذوي الجاه والسلطان أصبح المدح في العصر الحديث لا يراد به إلا إرضاء الجماهير التي تشارك الشاعر والصحافي في تقديره الزعيم، أو العظيم، أو الرجل الخطير، من أجل أنه كان يؤدي لأمته خدمة عجز عنها غيره من المواطنين القادرين.

شعر الحركة الوطنية وصلته بالصحافة

تعلمون أن الزعيم الشاب مصطفى كامل، هو بحق باعث الحركة الوطنية في مصر، وما كانت الحركات التي حدثت قبل ذلك – في واقع الأمر – إلا حركة دستورية من جانب وحركة قومية من جانب آخر، وليس أحد هذين المعنيين هو المقصود بكلمة الحركة الوطنية في محاضرة اليوم.

من أجل ذلك صحب الحركة الوطنية طائفة من الشعراء من أهمهم إسماعيل صبري، وحافظ إبراهيم، وأحمد شوقي والغاياتي، ومحرم، والكاشف. أما الشعر الذي ظهر قبل ذلك فلم يكن إلا هتافا بحب الوطن حينا، كما كان الشأن مع رفاعة رافع الطهطاوي[1] وحنينا إلى الوطن وشوقا إليه حينا آخر، كما كان الشأن مع البارودي[2] وإشادة بعظمة الوطن، وإثارة لهمم أبنائه حينا ثالثا – كما كان الشأن مع عبد الله النديم[3] وتنفيذا لسياسة إسماعيل حينا رابعا – كما كان الشأن مع صالح مجدي[4] وهو أحد تلاميذ رفاعة الطهطاوي، وليس هذا كله من الشعر المتصل بالحركة الوطنية التي بعثها مصطفى كامل. ومع هذا وذاك فلا بأس من إيراد أبيات لصالح مجدي، على سبيل المثال:

قال في إسماعيل وهو في سطوته وجبروته قبل عزله عن حكم مصر:

---

(1) عبد الرحمن الرافعي: شعراء الوطنية ص ٩.

(2) نفس المصدر ص ٢٧.

(3) نفس المصدر ص ٢٧.

(4) الاتجاهات الوطنية: لمحمد حسن ص ١٣٦.

رمـــى بلادكمـــو في قعـــر هاويـــة | مـن الـديون علـى مرغـوب جـو
والمـــرء يقنـــع في الـــدنيا بواحـــدة | مـــن النســـاء ولم يقنـــع بمليـــار[1]
ويكتفــــي ببنــــاء واحــــد ولــــه | تسـعون قصـرا بأخشـاب وأحجـار
فاســـتيقظوا لا قـــال الله عثـــرتكم | مـن غفلـة ألبسـتكم ذلـة العـار الخ

وصالح مجدي كذلك هو القائل في استنهاض الهمم ضد التدخل الأجنبي في مصر في عهد إسماعيل:

فلـــو كـــان فينـــا نخـــوة عربيـــة | لملنـــا علـــى أعـــدائنا بالصـــوارم
فيـا آل مصـــر لا تنـاموا ودافعـوا | عـن الـدين والأوطـان أهـل المحـارم
أمـن بعـدما كنـتم شمـوس معـارف | كسـفتم وأصـبحتم شـبيه البهـائم
وعشـتم بـذل بعـد جـاه وعـزة | ودارت عليكم دائرات المظالم[2]

والحق أن الحركة الوطنية في مصر بدأت عقب تولية الخديوي عباس حلمي الثاني سنة ١٨٩٢، أو عقب نشوب الخلاف بين السلطة الشرعية ممثلة في هذا الأمير، والسلطة الفعلية ممثلة في اللورد كرومر. وكان طبيعيا أن يأخذ الشعب المصري بمختلف طبقاته جانب الخديو ضد المعتمد البريطاني. وتقوى الخديو بهذا العطف الذي لقيه من الشعب، وأخذ يعارض اللورد كرومر في كثير من آرائه وقراراته أول الأمر. وشعر الأخير منذ اللحظة الأولى بذلك فكتب إلى اللورد سالسبوري – وزير الخارجية الإنجليزية يومئذ – يقول:

---

(1) لعل جوسيار اسم لأحد مستشاري إسماعيل من الأجانب.

(2) ديوان صالح مجدي ص ٢٧٥.

"إني أرى أن الخديو الشاب سيكون مصرياً بحتا"[1] ومعنى ذلك أن عباسا سيكون من طراز آخر غير طراز والده توفيق الذي كان ألعوبة في أيدي الإنجليز!

الاتفاق الودي

وبقي عباس مخلصا للحركة الوطنية إلى أن حدثت الكارثة العظمى بالاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ وفي هذا الاتفاق يقول حافظ إبراهيم معبرا عن يأسه ويأس المصريين الذين أخذوا يتذبذبون بين الأمير والسفير:

حطمــت الـــيراع فـــلا تعجـــبي ... وعفـــت البيـــان فـــلا تعتـــبي

فمـــا أنـــت يا مصـــر دار الأديـــ ... ـب ولا أنـــت بالبلـــد الطيـــب

وكـــم فيـــك يا مصـــر مـــن كاتـــب ... أقـــال الـــيراع ولم يكتـــب

(وفي هذا إشارة إلى أن الكتاب الصحفيين أصابتهم نكسة صحفية تأثر بها الشعراء في ذلك الحين).

فـــلا تعـــذليني لهـــذا الســـكو ... ت فقد ضاق بي منك ما ضاق بي

أيعجبـــني منـــك يـــوم الوفـــا ... ق سكوت الجماد ولعب الصبي

وكـــم غضـــب النـــاس مـــن قبلنـــا ... لســـلب الحقـــوق ولم تغضـــبي

أمـــور تمـــر وعـــيش يمـــر ... ونحـــن مـــن اللهـــو في ملعـــب

وهـــذا يلـــوذ بقصـــر الأميـــ ... ـر ويـــدعو إلى ظلـــه الأرحـــب

(١) عباس الثاني: كتاب لكرومر ص ٤.

وهـــذا يلـــوذ بقصـــر السفـــ ـــير ويطيـــب في ورده الأعـــذب

وهـــذا يصـــبح مـــن الصائحـــ ـين على غير قصد ولا مأرب(١)

ومنذ ذلك الوقت تنكب الأمير الشاب عن الطريق، وشعر بقوة الإنجليز، وأخذته رهبة منهم، فآثر السلامة والعافية. ولم يكتف بذلك حتى وعز إلى شاعره يومئذ (أحمد شوقي) فنشر حديثا (بالمؤيد) سنة ١٩٠٨ يعتذر فيه بلسان الأمير عن إصدار الدستور لأن الأمة لم تبلغ بعد من النضج الصحيح ما يؤهلها للدستور. ولأن الأمير أصبح لا يستطيع أن يصدر الدستور بغير رضاء الإنجليز، وإذ ذاك انبرى للأمير وشاعره معاً شاعر الوطنية المصرية يومئذ، وهو الغاياتي فقال[٢].

أعبـــاس هـــذا آخـــر العهـــد بيننـــا فـــلا تخـــش منـــا بعـــد ذاك عتـــابا

أيرضـــيك فينـــا أن نكـــون أذلـــة ننـــال إذا رمنـــا الحيـــاة عقـــابا

وأرضـــيت أعـــداء الـــبلاد وخصـــمها وأصـــليتنا بعـــد الوفـــاق عـــذاباً

رويـــدك يا عبـــاس لا تبلـــغ المـــدى ولا تســـتمع للظـــالمين خطـــابا الخ

خطبة رياض

والحق أن محنة عباس جاءته كذلك من ناحية نظاره "وكان يتولى سفينة الحكم في هذا البحر الهائج المتلاطم طائفة من النظار الذين وزروا له. وكان بعضهم يخضعه الخوف، وبعضهم يخضعه المال، وبعضهم يكتم في نفسه حسن الرأي. وكان من أولئك النظار مصطفى فهمي، ومصطفى رياض، ونوبار،

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم ص ٢٥٦.

(٢) ديوان الغاياتي (وطنيتي) ص ٦٨.

وبطرس غالي"[1].

خطب أحدهم – وهو رياض – في حفل أقيم بمناسبة إنشاء مدرسة محمد علي الصناعية خطبة طويلة أثنى فيها على اللورد كرومر، وأسند إليه وحده الفضل فيما أصاب مصر من تقدم. وعلق السيد علي يوسف في (المؤيد) على هذه الخطبة الغريبة فقال: إن العادة جرت أنه إذا شرف الاحتفال الجناب العالي أمير البلاد المعظم اقتصر الخطباء – رسميين أو غير رسميين – على ذكر العناية الإلهية التي شملت هذا المشروع من سموه. ولا تذكر يد سواها معها بالشكر والثناء.. الخ"[2].

ومنذ قرأ الناس هذا المقال بجريدة المؤيد وأصبح له صدى ما في الرأي العام انبرى الشعراء، وخاصة منهم شاعر القصر، يعبرون بقصائدهم عن هذا المعنى. وشاعر القصر إذ ذاك هو "شوقي" الذي قال بعنوان "خاتمة رياض"[3].

كبير السابقين من الكرام	برغمي أنا أنالك بالملام
لقد وجدوك مفتونا فقالوا	خرجت من الوقار والاحتشام
وقال البعض: كيدك غير خاف	وقالوا: رمية من غير رام
غمرت القوم إطراء وحمدا	وهم غمروك بالنعم الجسام
رأوا بالأمس أنفك في الثريا	فكيف اليوم أصبح في الرغام
خطبت فكنت خطبا لا خطيبا	أضيف إلى مصائبنا العظام

---

(1) أدب المقالة الصحفية في مصر ج ٤ ص ١٥.

(2) المصدر المتقدم ج ٤ ص ١٢٤– ١٢٨.

(3) الشوقيات ص ٢٥٩– ٢٦٠.

لهجـــت بالاحــــتلال ومـــا أناه وجرحـك منـه لـو أحسسـت دام

ومـــا أغنـــاه عمـــن قـــال فيــه ومـا أغنـاك عـن هـذا الترامـي

فهـــلا قلـــت للشـــبان قـــولا يليـــق بحافـــل الماضـــي الهمـــام

يبــــث تجـــارب الأيام فـــيهم ويـــدعو الرابضـــين إلى القيـــام

وكيـــف ينـــال عـــون الله قـــوم ســـراتهمو عوامـــل الانقســـام

إذا الأحـــلام في قـــوم تولـــت أتـى الكـبراء أفعـال الطغـام الخ

حادث دنشواي

ثم في حادثة دنشواي سنة ١٩٠٦ بلغت الحركة الوطنية أشدها واتخذ مصطفى كامل من محاكمة الأبرياء في هذه القضية فضيحة كبرى لإنجلترا، وكان اليأس من الاحتلال قد ملأ صدور المصريين جميعا منذ الاتفاق الودي. ومن ثم سكتت بعض الصحف الوطنية عن هذا الحادث نوعا ما. لا تستثنى منها غير جريدة اللواء وجريدة المؤيد. وكانت الأخيرة منهما تتحدث في شيء من التعقل والرزانة كعادتها. وكانت الأولى جريئة كل الجرأة. ومع هذا وذاك فقد كان للمقالات التي نشرت هنا وهناك تأثير بالغ في الشعر المصري لتلك الفترة. فكان من الشعراء من يتحدث في شعره عن دنشواي بشيء من الاحتياط أو الرجاء أو الخوف من قوة الاحتلال. ومنهم من كان يتحدث بجرأة أكثر من هذا القدر، ولكن هذه الجرأة لم تظهر إلا بعد خروج اللورد كرومر من مصر. على أن أحدا من الكتاب أو الخطباء أو الشعراء أو الأدباء لم يتحدث عن دنشواي

بحماسة وطنية بالغة كالتي تحدث بها مصطفى كامل[1]. ومن ثم سلمت له زعامة الحركة الوطنية في مصر.

فمما قاله إسماعيل صبري يصف حادث دنشواي، ويشكر الخديو على العفو الذي أصدره عن مسجوني هذه القضية[2].

وأقلـت عثـرة قريـة حكـم الهـوى	في أهلهـا وقضـى قضـاء أخـرق
وارحمتـا لجنـاتهم مـاذا جنـوا	وقضـاتهم مـا عـاقهم أن يتقـوا
مـازال يقـذي كـل عـين مـا رأوا	فيهـا ويـؤذي كـل سمـع مـا لقـوا
حـتى حكمـت فجـاء حكمـك آيـة	للنـاس طـي صـحيفة تتـألق
شـكرتك مصـر علـى سـلامة بعضـها	شـكرا يغـرب في الـورى ويشـرق
ذكـرت لـك الصـفح الجميـل ولم تـزل	ترمـي إلى أمـر أجـل وترمـق الخ

ومما قاله حافظ إبراهيم في هذه الحادثة أيضا وفيه سخريته:

أيهـا القـائمون بالأمـر فينـا	هـل نسـيتم ولاءنا والـودادا
خفضـوا جيشـكم ونامـوا هنيئـا	وابتغـوا صـيدكم وجوبـوا الـبلادا
وإذا أعوزتكمـو ذات طـوق	بـين تلـك الـربى فصـيدوا العبـادا
إنمـا نحـن والحمـام سـواء	لم تغـادر أطواقنـا الأجيـادا

---

(1) لمن أراد أن يعرف كيف كتب مصطفى كامل في هذا المعنى أن يقرأ مقالته المشهورة بعنوان: (إلى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن" وقد كتبها باللغات الأوروبية. ثم نشرها بالعربية في صحيفة اللواء بتاريخ ٢٨ يوليو سنة ١٩٠٦– راجع أدب المقالة الصحفية في مصر ج ٥ ص ١٨٢– ١٩١.

(2) عبد الرحمن الرافعي: شعراء الوطني ص ٣٢.

لا تظنــوا بنــا العقــوق ولكــن ارشــدونا إذا ضــللنا الرشــادا

جــاء جهالنــا بأمــر وجئــتم ضـعف ضـعيفة قسـوة واشـتدادا

أحسـنوا القتـل إن ضـننتم بعفـو أنفوســا أصــبتمو أم جمــادا

ليـت شـعري أتلـك "محكمـة التفتـ ـيش" عـادت أم عهـد نـيرون عـادا

كيـف يحلـو مـن القـوى التشـفي مـن ضـعيف ألقـى إليـه القيـادا

أكرمــونا بأرضــنا حيــث كنــتم إنمــا يكــرم الجــواد الجــوادا

إن عشــرين حجــة بعــد خمــس علمتنـا السـكون مهمـا تمـادى!

أمــة النيــل أكــبرت أن تعــادي مــن رماهــا وأشـفقت أن تعـادى

لــيس فيهــا إلا كــلام وإلا حســرة بعــد حســرة تتهــادى

وفي أكتوبر سنة ١٩٠٦ عاد اللورد كرومر إلى مصر من أجازته التي قضاها في إنجلترا. فاستقبله حافظ إبراهيم بقصيدة ذكر فيها حوادث دنشواي قائلا[١].

قصـر الـدوبارة هـل أتاك حـديثنا فالشـرق ربـع لـه وضـج المغـرب

أهـلا بسـاكنك الكـريم ومرحبـا بعــد التحيــة إني أتعتــب

إن ضـاق صـدر النيـل عمـا هالـه يـوم الحمـام فـإن صـدر أرحـب

أو كلمــا باح الحــزين بأنــة أمسـت إلى معـنى التعصـب تنسـب

رفقــا عميــد الــدولتين بأمــة ضــاق الرجــاء وضــاق المــذهب

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٣.

رفقا عميد الدولتين بأمة ... ليست بغير ولائها تتعذب

إن أرهقوا صيادكم فلعلهم ... للقوت لا للمسلمين تعصبوا

ولربما ضن الفقير بقوته ... وسخا بمجته على من يغضب

في دنشواي وأنت عنا غائب ... لعب القضاء بنا وعز المهرب

حسبوا النفوس من الحمام بديلة ... فتسابقوا في صيدهن وصوبوا

نكبوا وأقفرت المنازل بعدهم ... لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا الخ

ومر عام على حادثة دنشواي فنظم شوقي قصيدة في ذكراها منها قوله[1]:

يا دنشواي على رباك سلام ... ذهبت بأنس ربوعك الأيام

شهداء حكمك في البلاد تفرقوا ... هيهات للشمل الشتيت نظام

مرت عليهم في اللحود أهلة ... ومضى عليهم في القيود العام

كيف الأرامل فيك بعد رجالها ... وبأي حال أصبح الأيتام

يا ليت شعري في البروج حمائم ... أم في البروج منية وحمام؟

نيرون لو أدركت عهد كرومر ... لعرفت كيف تنفذ الأحكام

نوحي حمائم دنشواي وروعي ... شعبا بوادي النيل ليس ينام

إن نامت الأحياء حالت بينه ... سحرا وبين فراشه الأحلام

متوجع يتمثل اليوم الذي ... ضجت لشدة هوله الأقوام

---

(1) الشوقيات ج ١ ص ٣٠٠- ٣٠٢.

السـوط يعمـل والمشـانق أربـع   متوحـدات والجنـود قيـام

وعلـى وجـوه الشـاكلين كآيـة   وعلـى وجـوه الشـاكلات رغـام الخ

عزل كرومر من مصر

واستقال اللورد كرومر – أو أقيل – من منصبه عام ١٩٠٧، فكان هذا نصراً كبيراً لمصطفى كامل وللحركة الوطنية، وكان ذلك يوما عظيما قالت فيه الصحافة كلامها، وقال الشعراء فيه كلامهم كذلك.

أما الصحافة فكانت من أظهر كلماتها يومئذ مقالات السيد علي يوسف المشهورة باسم "قصر الدوبارة، بعد يوم الأربعاء". ومن جملتها رد لصاحب المؤيد على خطبة الوداع التي ألقاها اللورد كرومر في دار الأوبرا المصرية، ولعل هذه المقالات والرد على الخطبة تعتبر من أقوى المقالات النزالية في تاريخ الصحافة المصرية إلى اليوم.

وأما الشعراء فكان أجرأهم على اللورد، وأعظمهم شماتة به يومئذ شاعر مصر أو القصر أحمد شوقي. وهو صاحب هذه القصيدة التي فيها يقول:

أيامكـم أم عهـد إسمـاعيلا   أم أنـت فرعـون يسـوس النـيلا

أمـا حـاكم في أرض مصـر بأمـره   لا سـائلا أبـدا ولا مسـؤولا

يا مالكـا رق الرقـاب ببأسـه   هـلا اتخـذت إلى القلـوب سـبيلا

لمـا رحلـت عـن الـبلاد تنهـدت   فكأنـك الـداء العيـاء وبـيلا

أنـذرتنا رقـا بـدوم وذلـة   تبقـى وحـالا لا تـرى تحـويلا

أحسـبت أن الله دونـك قـدرة   لا يملـك التغيـير والتبـديلا؟

قـالوا جلبـت لنـا الرفاهـة والغـنى جحــدوا الإلــه وصــنعه والنــيلا

وحيـــاة مصـــر علـــى زمـــان محمد ونهوضـــها مـــن عهـــد إسمـــاعيلا

في كـــل تقريـــر تقـــول: خلقـــتكم أفهـــل نـــرى تقريـــرك التنـــزيلا

فارحـــل بإذن الله جـــل صـــنيعه مســـتعفيا إن شـــئت أو معـــزولا

إنا تمنينـــا علـــى الله المـــنى والله كـــان بنـــيلهن كفـــيلا

والمهم هنا أن نقول أن تلك المعاني التي عبر عنها الشعراء في ذلك الحين كانت مأخوذة أخذا دقيقا من المقالات التي كان يكتبها الزعماء الوطنيون والصحفيون. فجميع ما قيل من المعاني في حادثة دنشواي كان صدى لكلمات مصطفى كامل في اللواء. وجميع ما ورد من الأفكار في وداع اللورد كرومر أو الشماتة فيه لم يكن غير صدى للسيد علي يوسف في مقالاته المشهورة باسم: "قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء". وسأضرب لكم مثلا واحدا. يقول شوقي مخاطبا كرومر:

يا مالكـــا رق الرقـــاب بيأســـه هـلا اتخـذت إلى القلـوب سـبيلا

فإن هذا البيت ليس إلا صدى لإحدى مقالات السيد علي يوسف التي أشرت إليها. وعنوان المقالة "الطوب أم القلوب"، وسيأتي ذكرها – إن شاء الله – عند الكلام عن (الصحافة وتطور فن المقال)[1].

* * *

(1) انظر أدب المقالة الصحفية في مصر ج ٤ ص ١٥٠.

وفاة مصطفى كامل

توفي الزعيم الشاب مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ فكان موته حادثا وطنيا كبيرا حرك مشاعر الكتاب والشعراء والخطباء، وألهب حماستهم، وتنافس الشعراء منهم بوجه خاص في رثاء هذه الشخصية التي خلقت في مصر ما يسمى "بالحركة الوطنية" والرثاء بطبيعته أقرب إلى الشعر منه إلى النثر. ومن ثم أجاد الشعراء في رثاء مصطفى كامل بأكثر من أجاد الكتاب، ومن أولئك الشعراء صبري وشوقي وحافظ وخليل مطران وغيرهم.

ويطول بنا القول لو أردنا أن نأتي بجميع المراثي التي قيلت في مصطفى كامل، فحسبنا إذن أبيات قليلة من تلك المراثي على سبيل المثال: وصل جثمان الفقيد إلى مقره الأخير، فوقف الشاعر إسماعيل صبري وحاول أن يلقي قصيدة في رثائه، ولكنه لم يكد يلقي البيت الأول:

أداعي الأسى في مصر ويحك داعيا　　　هددت القوى إذ قمت بالأمس داعيا

حتى غلبه البكاء وعجز عن المضي في إلقاء القصيدة، وكان من أبياتها قوله:

ألا علـــلاني بالتعـــازي واقنعـــا　　　فـــؤادي أن يرضـــى بهـــن تعـــازيا

وإلا أعينـــاني علـــى النـــوح والبكـــا　　　فشـــأنكما شـــأني ومـــا بكمـــا بيـــا

ومـــا نافعـــي أن تبكيـــا غـــير أنـــني　　　أحـــب دمـــوع الـــبر والمـــرء وافيـــا الخ

ونشر شوقي رثاءه للفقيد بعد ثلاثة عشر يوما من وفاته، ومن قوله يومئذ[١].

(١) شعراء الوطنية: عبد الرحمن الرافعي: ص ١٤٨.

المشــــرقان عليـــــك ينتحبـــــان قاصـــيهما في مـــأتم والـــداني!

يا خـــادم الإســـلام أجـــر مجاهــد في الله مـــن خلـــد ومـــن رضـــوان

لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى في الزائـــــرين وروع الحرمـــــان

إن كـــان للأحـــلام ركـــن قـــائم في هـــذه الـــدنيا فأنـــت البـــاني

المجـد والشــرف الرفيــع صــحيفة جعلــت لهــا الأخــلاق كــالعنوان

وأحـــب مـــن طـــول الحيـــاة بذلـــة قصـــر يريـــك تقاصـــر الأقـــران

دقـــات قلـــب المـــرء قائلـــة لـــه إن الحيـــــاة دقـــــائق وثـــــواني

فـارفع لنفسـك بعـد موتـك ذكرهـا فالــذكر للإنســان عمــر ثاني الخ

ورثى الشاعر حافظ إبراهيم فقيد الوطنية المصرية بقصيدة منها:

أيا قــبر هــذا الضــيف أمــال أمــة فكــبر وهلــل والــق ضــيفك جاثيــا

عزيـز علينـا أن نـرى فيـك مصـطفى شــهيد العــلا في زهــرة العمــر ثاويا

أيا قـــبر لـــو أنا فقـــدناه وحـــده لكان التأسي من جوى الحزن شافيا

ولكنــا فقــدنا كــل شــيء بفقــده وهيهــات أن يأتي بــه الــدهر ثانيــا

فيــا ســائلي أيــن المــروءة والوفــا وأيـن الحجـا والـرأي ويحكـم هـا هيـا

هنيئــا لهــم فليــأمنوا كــل صــائح فقـد أسـكت الصـوت الـذي كـان

شــهيد العــلا لا زال صــوتك بيننــا يــرن كمــا قــد كــان بالأمــس داويا

يهيـــب بنـــا: هـــذا بنـــاء أقمتـــه فــلا تهــدموا بالله مــا كنــت بانيــا

أجــل أيهــا الــدعي إلى الخــير إننــا على العهـد مادمنـا فنـم أنـت هانيـا

وألقى الشاعر خليل مطران في رثاء الفقيد قصيدة طويلة أربت على مائة بيت ومنها.

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها	وأرى ترابك من حنين قد هفا
وكأنني بالقبر أصبح منبرا	وكأنني بك موشك أن تهتفا
مصر التي أحببتها الحب الذي	بلغ الفداء نزاهة وتعففا
حتى مضيت كما ابتغيت مؤلفا	من شملها ما لم يكن ليؤلفا
كهواك للأوطان فليكن الهوى	لا مفترى فيه ولا متكلفا(١)
فارقد رقادك أن ربك قد محا	بك ذنب مصر كما رجوت وقد

بل أن منهم من نظم قصائد كثيرة في رثاء مصطفى، وذلك فضلا عن القصائد التي كانت تظهر في يوم ذكرى وفاته من كل عام، وينتهز الشعراء هذه الفرصة ليستعرضوا أحداث الوطن، وليحثوا قادته وزعماءه على الإخلاص له والجهاد في سبيله كما جاهد ذلك الرجل.

وصف المرحوم قاسم أمين جنازة الزعيم الشاب مصطفى كامل فقال:

"هذه هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق: المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواي، والمرة الثانية يوم الاحتفال بجنازة صاحب اللواء[٢].

كان الشاعر في العصور السابقة يكتفي بأن يرثي فقيد العشيرة أو القبيلة أو المدينة أو الأمة مرة أو مرتين يفرغ فيهما كل ما في جعبته – على حد تعبير القدماء – من معاني الرثاء، أما الشاعر في العصور الحديثة فقد سن لنفسه سنة

([١]) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٥٨.

([٢]) شعراء الوطنية عبد الرحمن الرافعي: ص ١٦١.

جديدة؛ هي رثاء الفقيد في يوم ذكراه من كل عام، وإنما جاءته هذه السنة من محاكاته للصحف، وتقليده للكتاب الصحفيين.

على أن مراثي العظماء شغلت حيزا كبيرا من دواوين الشعراء، وكانت هذه الحركة في ذاتها مسايرة من الشعر للصحافة، ومجاراة لها في الميدان الوطني أو السياسي، فقد كانت الحركة الوطنية بحاجة دائما إلى من يلقي في آتونها الوقود بين الحين والحين. ليزداد الآتون لهبا، فتزداد المشاعر قوة. وكان موت عظيم أو زعيم يقع من النفوس موقعا أليما، ويزيدها بالوطن تعلقا، وإليه تلهفا وحنينا. وكثيراً ما كان هذا التلهف والحنين يزدادان قوة وسعيراً بعد قراءة المرثية النثرية أو الشعرية في صحيفة من الصحف الوطنية.

من أجل هذا كثرت قصائد الرثاء كثرة واضحة في ديوان شاعر اجتماعي كحافظ إبراهيم، وهو الذي يقول:

إذا تصفحت ديواني لتقرأه ... وجدت أن المراثي نصف ديواني

مد امتياز قناة السويس

وفي أواخر سنة ١٩٠٩ وأوائل سنة ١٩١٠ شغل الرأي العام بمسألة تتصل بحياة البلاد الاقتصادية والسياسية، وهي مشروع الامتياز الممنوح لشركة قناة السويس، ومد أجله أربعين عاما أخرى. وقد أثار هذا المشروع سخط الأمة كلها، وطالبت الأمة بعرضه على الجمعية العمومية قبل البت فيه، ونظم حافظ قصيدة في نوفمبر سنة ١٩٠٩ عبر بها عن آمال الأمة وآلامها جاء في مطلعها[١]:

([١]) عبد الرحمن الرافعي: شعراء الوطنية ص ١٣١– ١٣٢.

لقـد نصـل الـدجى فمـتى تنـام — أهـم ذاك نومـك أم هيـام

ذكـرت جلالهـا أيام كانـت — تصـول بهـا الفراعنـة العظـام

وأيام الرجـال بهـا رجـال — وأيام الزمـان لهـا غـلام

فـأقلق مضـجعي مـا بات فيهـا — وبانـت مصـر فيـه فهـل ألام؟

ومنها قوله:

فيـا ويـل القنـاة إذا احتواهـا — بنـو التـاميز وانحسـر اللثـام

لقـد بقيـت مـن الـدنيا حطامـا — بأيـدينا وقـد عـز الحطـام

وقـد كنـا جعلناهـا زمامـا — فـوا لهفـي إذا قطـع الزمـام

حمـونا ورد مـاء النيـل عـذبا — وقـالوا أنـه مـوت زؤام

ومـا المـوت الـزؤام إذا عقلنـا — سوى (الشركات) حـل لهـا الحـرام

* * *

زيارة الرئيس روزفلت لمصر

وأتى الرئيس روزفلت لزيارة مصر في مارس سنة ١٩١٠ وألقى خطبة بمدينة الخرطوم دعا فيها ضباط الجيش إلى الخضوع لحكم الاحتلال الإنجليزي ثم رجع إلى القاهرة وألقى بالجامعة المصرية خطبة أخرى في نفس هذا المعنى، فتألم لذلك الوطنيون، وضجت الصحف الشعبية، وامتلأت أعمدتها بالرد على الزعيم روزفلت.

أما الشيخ علي يوسف فإنه كتب في مؤيده خطابا مفتوحا إلى الرئيس روزفلت حمل فيه على مسلكه، وخطبته، وعلى إخلاله بواجب الضيافة.

ونشرت ترجمة هذا الخطاب في بعض الصحف الأمريكية الشهيرة. فبعث بعضها إلى الشيخ علي يوسف يطلب إليه كتابة فصل في هذا الموضوع يتحدث فيه عن روزفلت، وما كان لزيارته من الأثر في نفس الشعب المصري. فلبى الشيخ هذه الدعوة وبعث إليها بالمقال[1].

وكان لهذه الحركة صداها في الشعر المصري يومئذ. ومنه هذه القصيدة التي قالها حافظ أيضا:

أي خطيب الدنيا الجديدة شنف	سمع مصر بقولك المأثور
إنما شوقها لقولك يا (روز	فلت) شوق الأسير للتحرير
يا نصير الضعيف مالك تطري	خطة القوم بعد ذاك النكير
لم تطيقوا جوارهم بل أقمتم	في حماكم من دونه ألف سور
أنت تطريهمو وتثني عليهم	نائيا آمنا وراء البحور
ليت شعري أكنت تدعو إليهم	يوم كانوا على تخوم الثغور؟
يوم كانوا قذى بعين (نيو	يورك) وداء مستحكما في الصدور
يوم سجلتمو على صفحات الد	هر تاريخ مجدكم بالنور
وتوثبتم إلى الحياة وثوبا	ونفضتم عنكمو غبار القبور
يا نصير الضعيف حبب إليهم	هجر مصر تفز بأجر كبير الخ

* * *

(1) أدب المقالة الصحفية في مصر ج ٤ ص ١٢٩ والمقالة في نفس المصدر من ص ١٣٠- ١٤١ فليرجع إليها من أراد.

هكذا كان الشعر في مصر يسير مع الصحافة جنبا لجنب، ويجري مثلها مع حوادث المجتمع المصري، ولا يترك مناسبة من المناسبات حتى يكون له كلمة، كما للنثر الصحفي كلمة. وكثيرا ما تشترك الكلمتان في المعاني والأفكار كما قلنا. بل إن الأمر لم يقف بالشعر إلى هذا الحدث حتى أخذ يحاكي المقال في ظاهره "اتخاذ العنوان"، فقد كان الشاعر القديم إذا أراد أن ينشر شعره في ديوان وجدناه يقول مثلا: ومن شعره في الغزل كذا، ومن شعره في الزهد أو المدح أو الفخر كذا. الخ.

أما الشاعر الحديث فقد حرص على أن يكون لكل قصيدة من قصائده عنوان كما للمقالة الصحفية عنوان. والعنوان في ذاته عنصر مهم من عناصر "الفن الصحفي" اللازم لإخراج الصحيفة.

* * *

على أن لهذه الحركة الوطنية التي اشترك فيها المصريون – أقباطا ومسلمين – كانت تهددها أخطار من جهات شتى: منها النزاع الدائم بين السلطتين الشرعية والفعلية، ومنها سياسة الوكالة البريطانية التي كانت ترمي في كثير من الأحيان – وخاصة في عهد غورست – إلى التفرقة بين عنصري الأمة، توسلا بذلك إلى قتل الحركة الخ.

وبالغت الوكالة البريطانية في أساليب التفرقة بين عنصري الأمة إلى حد أنها أخذت في وقت من الأوقات تقصر الوظائف الحكومية على القبط وحدهم من المسلمين، وأحس المسلمون وقع هذا الظلم الكبير، فعبر عنه حافظ إبراهيم حيث يقول – بعد أن أعياه العثور على وظيفة حكومية يأكل بها العيش:

سعيت إلى أن كنت أنتعل الدما وعدت ما أعقبت إلا التندما

لحـي الله عهـد القاسـطين الـذي بـه تهـــدم مـــن تبياننـــا مـــا تهـــدما
إذا شـئت أن تلقـى السـعادة بيـنهم فـلا تـك مصـريا ولا تـك مسـلما

* * *

مقتل بطرس غالي:

وقتل بطرس غالي سنة ١٩١٠ ففشت الفاشية بين المسلمين وإخوانهم الأقباط من جديد وعقد الأقباط مؤتمرًا مليا لهم بأسيوط. وأجابهم المسلمون بمؤتمر مثله عقدوه بمصر الجديدة. وكادت الفتنة تودي بالحركة الوطنية؛ لولا حكمة نفر من المصريين الذين أخذوا يغيرون قليلا قليلا من لهجة الصحف، وتبعهم في ذلك الشعراء ممن أرادوا أن يقتلوا دواعي الشر يومئذ؛ ومنهم أحمد شوقي وسرعان ما حل الوئام محل الخصام، واستبدل المصريون بنغمة الفرقة العنصرية نغمة الأخوة المصرية. ويحسبنا هنا أن نشير إلى بعض أبيات لشوقي في هذا المعنى. قال في رثاء بطرس غالي:

أعهـــــدتنا والقـــــبط إلا أمـــــة في الأرض واحدة واحدة تروم مراما
تعلـــى تعـــاليم المســـيح لأجلهـــم ويـــــوقرون لأجلنـــــا الإســـــلاما
الـــــــــــدين للـــــــــــديان ﷻ لـــو شـــاء ربـــك وحـــد الأقوامـــا
هـــذي قبوركمـــو وتلـــك قبـــورنا متجـــــاورين جماجمـــــا وعظامـــــا

ألا، ما أبلغ شوقي في هذا البيت الأخير، وما أقدره على بعث معاني الألفة والتراحم والشفقة والتعاطف بين أبناء التربة الواحدة، والمقبرة الواحدة:

هـــذي قبوركمـــو وتلـــك قبـــورنا متجـــــاورين جماجمـــــا وعظامـــــا

وعن هذا المعنى ومعان قريبة منه عبر الشاعر إسماعيل صبري بقوله:

خففوا صياحكم ليس في مصر ... لأبناء مصر من أعداء

دين عيسى فبكم ودين أخيه ... أحمد يأمراننا بالإخاء

مصر أنتم ونحن إلا إذا قا ... مت بتفريقنا دواعي الشقاء

مصر ملك لنا ما تماسكـ ... ـنا وإلا فمصر للغرباء!

وعلى هذا النحو مضى الشعر موجها حديثه – كما تفعل الصحافة تماما – إلى الجمهور، معبراً عن مشاعره وميوله، مؤيدا دعوة العقلاء في الأمة إلى الإخاء والمحبة. وسرى هذا المعنى إلى الشعر الديني نفسه. ومن هنا جاءت عناية شوقي بالمسيحية "لأن قراءه في العربية لم يكونوا جميعا من المسلمين. بل كان منهم المسلم؛ ومنهم المسيحي. ومن ثم كان يقف من المسيحية موقف المعتد بها المؤمن بتعاليمها. "وكان لا يزال يشيد بالمسيح حتى في تركيا. وحين ينهزم الترك أمام الدول البلقانية المسيحية، فإنه يستل المسيح من هذا الدول ويبرئه هو وتعاليمه منهم[1]. يقول في الأندلس الجديدة:

عيسى سبيلك رحمة ومحبة ... في العالمين وعصمة وسلام

ما كنت سفاك الدماء ولا امرأ ... هان الضعاف عليه والأيتام

يا حامل الآلام عن هذا الورى ... كثرت عليه باسمك الآلام

أنت الذي جعل العباد جميعهم ... رحماء وباسمك تقطع الأرحام

* * *

---

(1) شوقي حفيف: شوقي ص ١٤٠.

شعراء مصريون ضد الحركة الوطنية

وكما كانت هناك صحف ترعى الحركة الوطنية، وشعراء يرعون هذه الحركة، فكذلك كانت هناك صحف أخذت جانب الإنجليز، وشعراء أخذوا جانبهم أيضا:

فمن الصحف التي ناصرت الإنجليز صحيفة (المقطم). كانت صحيفتان قبطيتان هما (مصر)، و(الوطن) تقفان كذلك موقفا عدائيا من الحركة الوطنية، وتدعوان في بعض الأحيان إلى أن يتخلى بعض الأقباط عن جنسيتهم المصرية، وينضووا تحت لواء جنسية من الجنسيات الأوربية[1].

ومن الشعراء الذين ناصروا (كرومر) وقتئذ شاعران مصريان هما "نسيم" و"ولي الدين يكن". وقد طفق كل منهما يهاجم الخديو عباس ويهاجم الحزب الوطني بوجه خاص، ويخدم بذلك مآربه الذاتية، وأطماعه المادية، ويعبر عن موجدته الشخصية. فقد كان بين "يكن" والسلطان عبد الحميد من الإحن ما أفضى بأولهما إلى الاحتماء بكرومر، والإشادة بفضله وعدالة حكمة، فحماه الرجل وحمى إخوانه من أعضاء تركيا الفتاة.

كان شاعر كرومر – وهو نسيم – ينتهز كل فرصة ممكنة لمدح الإنجليز والإشادة بعدلهم وفضلهم على مصر، وكان يبلغ من ذلك حد العجب. أليس عجيبا أن نجد شاعراً مصريا كنسيم يرثي الملكة فيكتوريا سنة ١٩٠١ فيختم قصيدته بتهنئة ابنها والتعريض بعباس والسخرية بكل مصري يفتخر بمجد الفراعنة[2].

---

(١) محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص ١١٣ هامش ١.

(٢) المصدر السابق ص ١٩٧.

يا قـوم مصـر ولم أنظـر لكـم أثـرا إذا المعـالي دعـت قـومي دواعيهـا

أتفخـــــرون بآثار لغيركمـــــو الظلـم شـيدها والـدهر يبليهـا

إلام تبغـون ملكـا عـز جانبـه وتبلغـون مـن الـدعوى تناهيهـا

وتفخـرون بمـا (خوفـو) بـنى لكمـو وتمـدحون مـن الأهـرام بانيهـا

فـأي فخـر لكـم فيمـا نشـاهده يا أمة نسيت في الذل ماضيها الخ

وغادر اللورد كرومر مصر، فبكاه نسيم بقصيدة طويلة جاء فيها[1]:

حاشـاك مـا أنـت بالمغصـوب منصـبه كـلا ولا أنـت مـن عليـاك معـزول

جعلـت مصـر بـلادا أمطـرت ذهبـا فترابهـا بمـذاب التـبر مبلـول

خلقتهـا ويـد الإسـعاد تكنفهـا دارا عليهـا مـن النعمـى سـرابيل

حللـت فيهـا وغـل الجـور مقعـدها ذلا وفارقتهـا والجـور مغلـول

أما (ولي الدين يكن) فلم يكن متهالكا على الإنجليز تهالك نسيم، وإنما كان يحبهم لغرض واحد فقط، هو حمايتهم له من السلطان عبد الحميد، فانتهى به ذلك إلى تأييد الاحتلال البريطاني في مصر. يقول ولي الدين يكن في رثاء الملك إدوارد السابع ملك إنجلترا معترفا بما له من فضل على جماعة أعضاء "تركيا الفتاة".

أبا الأحـــرار لا ينســاك حــر شـــبابهمو يجلـــك والكهـــول

تناديـك الشـعوب بكـل أرض فليتـك سـامع مـاذا تقـول

تنـاجي منـك حاميهـا المرجـى وصـولتها إذا قامـت تصـول

([1]) المصدر السابق ص ١٩٨.

ومهما يكن من شيء فإن هذه النغمة المرذولة لم تجد لها أذنا صاغية من المصريين الذين كانوا يلتهبون حماسة ووطنية في تلك الفترة، وكان الاحتلال الإنجليزي يثير في قلوبهم كل معاني الغضب والغيرة. ومن ثم جاء شعر هذين الشاعرين وأمثالهما نشازا في موسيقى الحركة الوطنية التي استجاب لها المصريون جميعا خلا حفنة قليلة من ذوي المآرب الشخصية والمطامع المادية.

* * *

الشعر المصري والعروبة

بقيت نغمة أخيرة في قيثارة الشعر المصري في المجال الوطني، وتتألف هذه النغمة من الشعر الذي قيل في معنى "العروبة". ونحن نعرف أن الشعور بهذه الأخيرة إنما جاء نتيجة لبقاء الاستعمار الأوروبي من جهة، والتفكير في الجامعة الإسلامية من جهة ثانية. وإن كان من الحق أن يقال أن هذه النغمة الجديدة في الشعر المصري لم تكد تقوى وتشتد، وتسير مع الشعور بالوطنية المصرية جنبا إلى جنب إلا بعد الحرب العظمى. وسرعان ما انعكس ذلك على نفوس الشعراء المحدثين، فأضافوا به لحنا جديدا إلى ألحانهم الجميلة، وأحس الشعراء منذ ذلك الحين بأن البلاد العربية كلها أسرة وحدها. لها كيانها، ولها مقوماتها، ولها تاريخها ومصائبها التي جمعت بينها. وفي ذلك يقول شوقي.

قـــد قضـــى الله أن يؤلفنـــا الجـــر ... ح وأن نلتقـــي علـــى أشـــجانه

كلمـــــا أن بالعـــــراق جـــــريح ... لمـــس الشـــرق جنبـــه في عمانـــه

وعلينـــا كمـــا علـــيكم حديـــد ... تتنـــزي الليـــوث في قضـــبانه

نحـــن في الفكـــر بالـــديار ســـواء ... كلنـــا مشـــفق علـــى أوطانـــه

وضرب الفرنسيون بقنابلهم "دمشق" فارتاع لذلك شوقي شاعر مصر

والشرق. ونظم قصيدته التي أولها:

سـلام مـن صـبا بـردي أرق ... ودمـع لا يكفكـف يا دمشـق

ومنها:

بـني سـورية اطرحـوا الأمـاني ... وألقـوا عنكمـو الأحـلام ألقـوا

نصـحت ونحـن مختلفـون دارا ... ولكـن كلنـا في الهـم شـرق!

ويجمعنـا إذا اختلفـت بـلادا ... بيـان غـير مختلـف ونطـق الخ

ويطول بنا القول أيضا لو أردنا استقصاء الشعر الذي قاله الشعراء المصريون في هذا المعنى

الصحافة المصرية وتطور فن المقال

شهدت مصر في أوائل القرن الماضي ميلاد حدث سعيد في تاريخها، وهذا الحدث هو الصحافة، وجاء ميلادها على يد الحملة الفرنسية التي أنشأت جريدتين هما جريدة (بريد مصر) وجريدة (العشريات)، غير أن هاتين الجريدتين كانتا باللغة الفرنسية التي يجهلها المصريون في ذلك الوقت، ولم يكن ينشر فيهما غير أوامر الجنرال بونابرت، وذلك فضلا عن الأخبار والمواد التي تهم الجند.

وعلى هذا فمن الخطأ الصرف أن ننظر نحن إلى هذه الصحافة الفرنسية في مصر على أنها صحافة مصرية بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة، ذلك أن المصريين لم تكن لهم صلة ما بالصحف الفرنسية التي أشرنا إليها. من أجل هذا قلت لكم أن الفرنسيين في مصر فكروا بعد ذلك في إنشاء مجلة لهم باللغة العربية، وعرض الجنرال مينو على الشيخ الخشاب من شيوخ الأزهر إذ ذاك أن يتولى تحرير هذه المجلة، ولكن هذه الأخيرة لم تخرج إلى الوجود. فقد عاجلتها النهاية التي انتهت إليها الحملة الفرنسية، والأجل الذي قضى عليها بالخروج من الديار المصرية.

ثم أتى مُحَمَّد علي وفكر في أن ينشئ في مصر ما يسمى (بجورنال الخديو) فأصدره، ثم ما زال به حتى حوله إلى ما سمي بعد ذلك "بالوقائع المصرية". وتعلمون أن الصحافة في مصر كانت في أول أمرها رسمية على هذا الوجه، وبقيت على ذلك حتى ظهرت إلى جانبها الصحافة الأهلية أو الشعبية.

كان ذلك في عهد إسماعيل الذي ظهرت حاجته الشديدة إلى الصحافة

لكي تذود عنه أضراراً كثيرة، وأخطارً محيقة، منها خطر التدخل الأجنبي أولا وخطر الباب العالي بعد ذلك.

لهذا السبب الأخير وجدت الصحافة الشعبية في مصر، وكانت صورة من الصحافة الرسمية في بادئ الأمر، ولكن سرعان ما نما هذا المولود الجديد – الذي هو الصحافة الشعبية – وأخذ يقوى ويشتد حتى جاوز دور الطفولة، ودخل في دور الشباب، وذلك على أيدي نفر من الصحافيين خطوا بها خطوات كبيرة في هذا السبيل.

وبحثت أنا من جانبي في هذه المراحل التي مرت بها المقالة الصحفية في مصر، واستطعت أن أعد من هذه المراحل ثلاثاً، سميت كل واحدة منها "طبقة" أو "مدرسة"؛ فمدرسة صحفية أولى كان من أشهر رجالها: رفاعة رافع الطهطاوي، وعبد الله أبو السعود، وميخائيل عبد السلام صاحب جريدة الوطن الخ. ومدرسة صحفية ثانية كان من أشهر رجالها: أديب إسحق، ومحمد عبده، وعبد الله النديم، والمويلحي الكبير، وبشارة نقلا صاحب الأهرام الخ. ومدرسة صحفية ثالثة كان من أشهر تلاميذها: علي يوسف، ومصطفى كامل، وأحمد لطفي السيد، وعبد العزيز جاويش الخ.

والمهم أن لكل مدرسة من تلك المدارس أسلوبها اللغوي الخاص بها في كتابة المقال، وأن لها غايتها أو هدفها الذي كانت ترمي إليه من وراء هذا المقال، وأن هذا الهدف إنما حددته لها الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي أحاطت بكل واحدة من تلك المدارس على حدة.

"فأما من حيث الأسلوب فقد كان رجال المدرسة الأولى مقيدين بقيود الماضي القريب، حين كان النثر العربي يميل إلى السجع وغيره من ألوان البديع التي فتن بها أدباء العربية منذ القرن الرابع الهجري، وحين كان هذا النثر محبوسا

في أروقة الأزهر لا يكاد يتجاوزه إلى الحياة في خارجه. ومن ثم ورث الصحفيون الأولون في القرن الماضي لونا باهتا من ألوان النثر العربي لم يكن خليقا بأن يحتذى، ولا كان جديرا بأن ينسج على منواله. ومع ذلك مضى رجال المدرسة الأولى يكتبون صحفهم بطريقة لا تبعد كثيرا عن هذه الطريقة القديمة "ولا تكاد تتحرر منها إلا في أوقات قليلة، ثم جاء الوقت الذي سئموا فيه السجع، وزهدوا فيه البديع. وكان ذلك إيذانا بمجيء المدرسة الصحفية الثانية، وهي المدرسة التي نعمت بقسط من الحرية في الأسلوب ليس شك في أنه كبير بالقياس إلى القسط الذي نعمت به المدرسة التي سبقتها".

وعلى هذا فالفرق بين المدرستين السابقتين أن الأولى كانت تكتب بالأسلوب القديم أو الموروث، وتحاول إنشاء المقال الصحفي، وتتعثر كثيرا في هذه المحاولة. وكان من أسباب ذلك عنصران واضحان هما: عنصر الوراثة الذي أشرنا إليه من جهة، وعنصر آخر مع الوراثة، وهو قصور هذه المدرسة قصورا تاما عن فهم الفرق بين لغة الكتب، ولغة الصحف من جهة ثانية.

وأما المدرسة الثانية، فإنها أخذت تتحرر – نوعا ما – من قيود الأساليب الموروثة، وأصبحت قادرة على إنشاء المقال الصحفي بلغة – هي مع ذلك – أصلح لكتابة الأدب أو الكتب منها لكتابة الصحف؛ أي أن المدرستين تشتركان في صفة، وتفترقان في أخرى.. تشتركان في أنهما لم تصلا بعد إلى تفرقة واضحة بين لغة المقال الأدبي، ولغة المقال الصحفي، وتفترقان في أن الأولى مقيدة في أسلوبها بقيود الماضي البعيد أو القريب، عاجزة في الوقت نفسه عن التعبير الحر الطليق، هابطة المستوى في مجموعها من حيث الأسلوب، في حين أن الثانية حاولت بالفعل أن تتحرر من هذه القيود، واكتسبت من المران الأدبي ما جعلها تحسن استخدام هذه الزينة أو القيود حين تريد استخدامها على سبيل

إظهار المقدرة الفنية، كما كان الشأن مع أديب إسحق من رجال المدرسة الثانية بنوع خاص.

والحق أن من يطلع على كتابات أديب إسحق لنزوعه تلك الأساليب العالية التي كتب بها في الصحف المصرية أو اللبنانية يجد أن: "مصدر الجمال في أسلوب أديب إسحق أشياء كثيرة: منها سرعة الانفعال عند هذا الشاب، مما جعل أسلوبه أدنى إلى طبيعة الشعر منها إلى طبيعة النثر. ومنها تلوين الكلام عنده بالمحسنات اللفظية والمعنوية؛ مع قدرة ظاهرة على هذا التلوين في غير تكلف ممقوت، ولا صناعة مرذولة، ثم منها الثقافة الأجنبية التي زودته بمعان كثيرة، وجعلت الفرق بينه وبين رجل كمحمد عبده كبيرا. وباختصار نرى أن أسلوب أديب إسحق يلذ الأديب أكثر مما يلذ الصحفي"[1].

وبقيت المدرسة الصحفية الثانية تكتب صحافتها بهذه الطريقة الأدبية العالية حتى جاء الأستاذ الإمام مُحَمَّد عبده فأخذ يقترب شيئا فشيئا من لغة الصحف، ثم جاء السيد عبد الله النديم واقترب كثيرا منها، وأعانه على ذلك ميله الطبيعي إليها وإلى الأسلوب الخطابي الذي برع فيه براعة منقطعة النظير. والأسلوب الخطابي بطبيعته إلى الأسلوب الصحفي أدنى منه إلى الأسلوب الأدبي.

وإلى ذلك الوقت كانت الصحف دورية، بمعنى أنها تصدر مرة في كل أسبوع أو أسبوعين أو شهر أو شهرين الخ. غير أنه منذ ظهور (المؤيد) أو قبله بوقت قليل جدا أصبحت الصحف يومية. وغدت الصحيفة تنتظر كل يوم غذاء جديدا، في وقت معين، وعلى نمط معين: وكان لهذه الحالة الجديدة أثر

(1) أدب المقالة الصحفية في مصر ج ٢ ص ٢٥.

بالغ في تطور الأساليب التي تتبع في كتابة الصحف.

نعم كانت الطريقة التي كتبت المدرسة الثانية طريقة أدبية خالصة أو كالخاصة، يتوخى فيها الكاتب بلاغة العبارة، واختيار اللفظ، وحسن الجرس، وتوشيح الكلام بالأشعار والحكم والأمثال وغيرها. ولكن الطريقة التي أصبحت تكتب بها المدرسة الثالثة طريقة صحفية خالصة. لا مجال فيها للأناقة الفنية التي توخاها الرعيل الثاني من رجال الصحف، ولا مجال فيها للزخرف الفني الذي امتازت به أساليب تلك الطبقة الثانية من طبقات الصحافة، وهكذا شرع المقال الصحفي يبتعد قليلا قليلا عن مجال التعبيرات الأدبية، ويقترب شيئا فشيئا من مجال التعبيرات الصحفية.

ولم يكد ينتهي القرن التاسع عشر حتى أصبح للصحافة في مصر لغة خاصة بها، وكان ذلك على يد الطبقة الثالثة أو المدرسة الأخيرة من مدارس الصحافة المصرية في القرن الماضي وأوائل القرن الحالي، وهي المدرسة التي بدأت بالسيد علي يوسف صاحب "المؤيد".

ولكن قبل أن نبدأ الحديث عن هذه المدرسة الأخيرة من حيث الأسلوب ينبغي لنا هنا أن نشير إلى أن المدرسة الثانية التي منها أديب إسحق وعبد الله النديم، ومُحَّد عبده ختمت في القرن الماضي بأديب ممتاز من حيث الأسلوب الأدبي، لم يكن له نظير في هذه الناحية، وهذا الأديب الذي ارتفع بالأساليب الأدبية الخالصة إلى هذه الدرجة العالية هو إبراهيم المويلحي.

فمهما ذهبت تقرأ لهذا الأديب في جريدة (مصباح الشرق) فلن تقول عنه أنه كان موهوبا في السياسة، ولكنه موهوب في الأدب، مع أنه كان على اتصال دائم بكثير من رجالات الحكم في عصره.. أجل كان إبراهيم المويلحي رجلا موهوبا في الأدب، ما في ذلك موضع لشك أو لجدل. وكانت اللغة التي يكتب

بها هذا الرجل هي العربية، والعربية لغة القرآن، وليست لغة تجارية، بمعنى أنها محدودة الغنى من الأساليب والألفاظ، وهي من أجل ذلك لا تصلح إلا أن تكون لغة الأدب في أروع صوره وأعلى مراتبه. الخ.

كانت طريقة المويلحي في الكتابة قائمة على البديع والزخرف، وعلى السخرية والاستخفاف، وعلى الإكثار من إيراد الشواهد والأمثلة من التاريخ ومن السير، وكان من أعظم كتاب زمانه قدرة على التصوير الذي نسميه اليوم "بالكاريكاتور"، وإليه انتهت رياسة الكتابة الأدبية في أواخر القرن التاسع عشر؛ ولذا ينظر التاريخ إلى إبراهيم المويلحي على أنه آخر من يمثل لهذه الطريقة القديمة في أدبنا المصري في القرن الماضي. وهي الطريقة التي بدأت تختفي في الميدان الصحفي شيئا فشيئا لتحل محلها طريقة أخرى أكثر منها ملاءمة للصحافة، هي طريقة:

المدرسة الصحفية الثالثة: وقد أحاطت بهذه المدرسة ظروف سياسية خطيرة، لا شك أن من أهمها طرف "الاحتلال البريطاني" الذي خلق في نفوس المصريين البأس مرة، وغرس في نفوسهم روح المقاومة العنيفة مائة مرة. وكان من أثر هذه المقاومة أن نشطت العقول والأقلام في مصر، واحتاج الأمر إلى ظهور طبقة جديدة من الكتاب أصبح لها أسلوب جديد يصح أن يطلق عليه اسم "الأسلوب السياسي"، وكان يمثل هذه الطبقة الأخيرة – فيما عدا السيد على يوسف صاحب المؤيد – مصطفى كامل صاحب اللواء، وأحمد لطفي السيد محرر الجريدة، ومنهم كتاب جرائد الأهرام والمقطم ومن إليهم. وعلى هذه الطريقة ذاتها – أو بتعديل يسير فيها – جرى آخرون من أمثال أمين الرافعي (صاحب الأخبار) وعبد القادر حمزة (صاحب جريدة البلاغ) وحافظ عوض (صاحب جريدة كوكب الشرق) وغيرهم.

وكما كانت هذه المدرسة الصحفية الثالثة جديدة في الأسلوب السياسي، فكذلك كانت جديدة في التفكير السياسي، والذي لا ريب فيه أن الفضل في هذا كله راجع إلى الاحتلال البريطاني؛ فقد كان هذا الاحتلال في ذاته مدرسة تعلم فيها المصريون دروسا في السياسة كيف تكتب، وفي السياسة كيف تفهم، وكيف يقنع الرجل السياسي أو الصحافي خصمه في الرأي أو الفكرة، ونحو ذلك.

وأنتم حين تطلعون على التقارير التي كتبها اللورد كرومر، أو السير غورست، أو اللورد كتشنر عن مصر تجدونها مكتوبة بطريقة عجيبة لا شك أن المصريين لم يألفوها. فقد كان الهدف من هذه التقارير السنوية إقناع المصريين بضرورة بقاء الإنجليز في البلاد المصرية.

وكان وراء كل كلمة من كلمات التقرير أكداس مكدسة من المعاني السياسية والأغراض الاستعمارية التي لم تخف على كتابنا المصريين فشرعوا يهيئون أنفسهم للرد عليها، وأخذوا يحاكون الإنجليز أنفسهم في الكتابة على هذه الطريقة.

وعلى هذا فللإنجليز في مصر فضل تدريبنا على الكتابة في الموضوعات السياسية، وإن كان هذا الفضل من النوع الذي ينطبق عليه المثل "مكره أخاك لا بطل".

من أجل ذلك نجد رجلا كصاحب المؤيد كتب مقالاته الغراء "قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء" بتلك اللغة التي يفهمها كرومر، وهي لغة المصالح التي لا صلة لها بالمشاعر أو العواطف.

وبينما كانت (المؤيد) تعالج المسائل السياسية على هذا النحو الهادئ

المؤثر في نفوس الإنجليز فضلا عن المصريين، إذ (باللواء) تكتب المقالات الحماسية التي تهيج بها الشعور، وتثير الخواطر – لا في مصر وحدها – ولكن في جميع العالم المتمدن.

وهكذا اختلفت طريقة (اللواء) عن طريقة (المؤيد) أو كانت كل منهما – في الحقيقة – مكملة للأخرى. فالمؤيد تمثل عقل مصر المفكر، و(اللواء) تمثل قلب مصر النابض، وبهما معا استطاعت الحركة الوطنية أن تسير إلى غايتها؛ لذلك نظر التاريخ إلى السيد علي يوسف على أنه "الكاتب الصحفي" بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، ونظر إلى الزعيم الشاب مصطفى كامل على أنه "الخطيب السياسي" بمعنى الكلمة أيضا. والفرق عظيم بين الرجلين، وبين المذهبين، وبين الصحافتين؛ فصحافة (اللواء) تؤثر في العواطف العامة، وتلهب المشاعر الوطنية، وهي من هذه الناحية أقرب ما تكون إلى الخطابة في جملتها، وأدنى إلى مشارب الشبيبة.

وصحافة (المؤيد) تؤثر في العقول، وتجذب الشيوخ لا الشباب، وتعتمد على المنطق، وتجري وراء المنفعة التي تتخيلها، وهي من هذه الناحية تعتبر (صحافة) بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة.

* * *

بقي أن نأتي بنماذج توضح لنا الفرق بين هذه المدارس الصحفية الثلاث من حيث اللغة وطريقة التفكير، ونحن مكتفون هنا بنموذج واحد فقط لكل مدرسة من المدارس السابقة، على أننا عاجزون أيضا عن الإتيان بهذا النموذج كاملا، بل نحن مضطرون إلى الإتيان ببعضه تاركين لكم فرصة استكمال النموذج في مصادر أخرى.

نموذج من المدرسة الصحفية الأولى

بالرجوع إلى العدد الأول من السنة الرابعة من حياة الجريدة الأهلية التي أنشأها عبد الله أبو السعود، وهي جريدة (وادي النيل) نجد مقالا للمحرر بعنوان: "حوادث أدبية سعيدة وممارسات عربية جديدة"

"إن من طالع سعدنا أن وصل إلينا بمصر القاهرة، في هذه الأيام الحاضرة، من نتائج أفكار أرباب القرائح العصريين، وثمرات أوراق أصحاب الفضل والأدب السوريين، المتوقدة أذهانهم الآن بمدينة بيروت، ولا يليق بتاريخ اللغة العربية في هذا العصر أن يلزم في حقهم السكوت، عدة نسخ متوالية، وحملة أعداد متتالية، من جريدتين أو دوريتين، وصحيفتين خيريتين، أو مجموعتين أدبيتين، بل مهرتين عربيتين أصيلتين تطبعان الآن بطبع مدينة بيروت الجميل، على هيئة كراسة صغيرة في شكل صحيفة وادي النيل. وتتراكضان بغاية إطلاق العنان في ميدان الأخبار السياسية. أي أخبار بعض الدول المجاورة، والممالك المعاصرة، من الحكومات الإسلامية والإفرنجية، وغيرها من سائر الأقطار الأجنبية، فضلا عن النكات الأدبية.

وكلتاهما من الطرافة والكياسة، وعظم الفائدة والنفاسة في درجة عالية وهيئة حالية، وكأنهما فتاتان من الجزائر الأوروبية، وقد بدئا في كنائس نصرانية، متجملتين بمآزر مشرقية عربية، أو برانس مغربية، إحداهما تنشر باسم (الزهرة) بتأليف وإدارة الأديب الأريب، والكاتب اللبيب، والآخذ من الكتابة بمجامع الفنون، المدعو بـ "يوسف الشلفون".

والثانية تظهر باسم (الجنان) جمع جنة، بقلم وإدارة المؤلف اللطيف والمصنف المتقن الظريف، أصمعي هذا العصر الثاني، المشهور باسم (بطرس البستاني) مع شبله الشاب الفهيم المعروف كذلك (بسليم)" الخ.

وعلى هذا النحو مضى محرر (وادي النيل) يحيي جريدتي (الزهرة) و(الجنان) ويقدمهما إلى جمهور القراء، وبالرغم من طول هذا المقال فإن السجع لم يفارقه من أوله إلى آخره، والتشبيه والاستعارة لا يختفيان من سطوره إلى نهايته فهو تارة يشبه الجريدتين بمهرتين عربيتين أصيلتين، وأخرى بفتاتين جميلتين غربيتين وهكذا. ولا تقل أن أبا السعود يتكلف السجع والبديع لأن المجال هنا مجال أدبي هو مجال التقديم والتحية لجريدتين من الجرائد السورية، فإنه تكلف هذا السجع حتى في كتابه الأخبار الداخلية والأخبار والخارجية في نفس هذا العدد الذي رجعنا إليه.

نموذج من أسلوب المدرسة الثانية

في أثناء الحرب الروسية التركية التي كانت بمثابة حجر الزاوية من الصحافة الشعبية، والتي قسمت المصريين قسمين: قسم يعجب بأبطال الترك، وقسم يعجب بأبطال الروس كتب أديب إسحق في جريدته (مصر) مقالا يدعو فيه إلى إعانة جرحى الحرب فقال:

"في معترك أومضت فيه بروق المرهفات، ولعلعت رعود المدافع، فقتلتها غيوث الكرات. وسكرت السيوف بخمر من الدم فعربدت في الرءوس، وعقد العثير لملك الموت سرادقا مطينا بالفناء. والخيل ساغبة تقبل ثقالا وتعود خفافا، وكأنها – وقد أعياها الفارس حيا – قد غضبت على الإنسان، فاحتجبت بحجاب الضباب. وتململت الأرض من أعماله، فزلزلت زلزالها، وكادت تخرج أثقالها. فارتعد الرعديد، وثبت الصنديد، ونادى منادي الحراب: من فر من الموت وقع، ومن كان ينوي أهله فلا رجع.. طريح على الأرض جريح، ذو كبد حري، يستجير وإحدى يديه فوق الكبد الأخرى. يذكر خليلة أو حليلة، آلمه فراقها مع أمل الرجوع. فما الظن به وقد اختفى نور ذلك الأمل، ووالدة تألمت

به جنينا، وأرضعته طفلا، وربته يافعا، وسهرت عليه حالما، ووالداً واساه في كآبته، وسلاه في حزنه، وتوجع له في مصابه. ثم تنجلي له الدنيا بزخرفها وزينتها، فيرى مرير غدا بها حلو، وكدر مشاربها صفوا.. فهذا هو الإنسان، الجريح بسلاح الإنسان، المطلوبة مساعدته من الإنسان". ثم استشهد الكاتب بهذه الأبيات:

الحـــرب أول مـــا تكـــون فتنـــة	تســـعى بزينتهـــا لكـــل جهـــول
حـــتى إذا حميـــت وشـــب شـــرارها	عـــادت عجـــوزاً غـــير ذات خليـــل
شمطـــاء جـــرت رأســـها وتنكـــرت	مكروهـــة للـــشم والتقبيـــل

فانظروا إلى أديب إسحق كيف كتب المقال بلغة أدبية راقية ومتكلفة، لا شك أنها أرقى بكثير من لغة أبي السعود، وأدل منها على الأصالة الأدبية والثقافة اللغوية والبلاغية ونحو ذلك.

ولكن يجب أن تلاحظوا هنا أن كتاب الصحافة العربية، ممن ينتمون إلى المدرستين الأولى والثانية عجزوا كل العجز عن أن يفهموا الفرق بين لغة الأدب ولغة الصحف. واستمر هؤلاء وهؤلاء على هذا النحو، حتى أخذ كل من الشيخ مُحَمَّد عبده أولا، والسيد عبد الله النديم ثانيا يدنوان من الأسلوب الصحفي شيئا فشيئا، ويمهدان لظهور المدرسة الثالثة من مدارس الصحافة المصرية رويداً رويداً. وإن كان ذلك لم يمنع قط من أن تسير الطريقة الأدبية قدما هي الأخرى، حتى بلغت أوجها ونهايتها على يد رجل كإبراهيم المويلحي في جريدة مصباح الشرق كما عرفنا.

نموذج من صحافة المدرسة الثالثة

سبق لي أن أشرت لكم أن مقالات السيد علي يوسف بعنوان (قصر

الدوبارة بعد يوم الأربعاء) – وعددها أربع عشرة مقالة – تعتبر نموذجا حسنا (للأسلوب السياسي) الذي امتازت به المدرسة الصحفية الثالثة في مصر، والحقيقة أنني لا أستطيع أن أفضل مقالة من هذه المقالات على أخرى من هذه الناحية فلأكتف بجزء من المقالة السادسة من هذه المجموعة، وهي المقالة التي كتبها السيد علي يوسف بعنوان: "التعليم ونظارة المعارف"؛ فقد استهلها الشيخ بجملة اقتبسها من تقرير كتبه اللورد كرومر عام ١٩٠٣؛ وهي قوله:

"إن التقدم في المعارف يتوقف على كون نظام التعليم وافيا بحاجات الأمة على اختلاف طبقاتها". ثم قال: "إن سياسة التعليم التي جرت عليها نظارة المعارف المصرية، وينفذها المستر دانلوب بغلظة وصلابة هي أن تكون المكاتب الابتدائية رافعة لأمية الذين يتعلمون فيها القراءة والكتابة بقدر الإمكان.

"والحكومة توهم بأنها راغبة في نشر التعليم الصناعي، وهمتها في ذلك واهية، وغاية التعليم الثانوي والعالي عندها واحدة، هي إعداد الفئة اللازمة لخدمة الحكومة بالشبان ليس إلا. فالتعليم الرسمي هنا يقتصر على حاجة الأمة من بعض وجوهها – لا كلها، ويقصر نفعه على فريق قليل منها فلا يشمل كل الطبقات.

"وقد نادى مجلس شورى القوانين حتى بح صوته في سنين كثيرة يطلب النظر في لوائح التعليم، فكان يجلب عن ذلك بأنه ليس من اختصاص مجلس الشورى نظر لوائح التعليم.

"وإنها لفظاظة لا معنى لها، فالأموال التي تنفق على التعليم من خزينة الحكومة هي أموال الأمة، والأموال التي تؤخذ أجرة للتعليم من آباء التلاميذ هي أموال الأمة، والموظفون الذين يفرضون على زمام إدارة التعليم في نظارة المعارف إنما يأخذون مرتباتهم من أموال الأمة. وكلما ارتفع صوت أعضاء

المجلس يطلب النظر في برامج التعليم قيل لهم بلسان دانلوب:

"إننا لا نراكم أهلا لأن تنظروا في نظام تعليم أنتم جهلاء به فلا تطلبوا ما لستم أهلا له، ومعنى هذا أن الحكومة لا تريد إلا ما يريده قصر الدوبارة من سياسة التعليم.

"وقصر الدوبارة بمثابة وصى على قصر أغنياء ليس لهم مجلس حسبي يراقب أعمال الوصي. ويضع حدا لرشدهم. فلا الوصي يحب أن يخرجهم من هذه الوصاية، ولا لقصر قادرون بذواتهم على الخروج، ولا رقيب فوق الوصي يحسب له الوصي حسابا. والسر كله في العلم والتعليم لأنهما ينبوع رشد القاصرين... "وأكبر لعبة أظهرتها سياسة الاحتلال في التعليم، ليبهر بها أبصار الأجانب والوطنيين "لعبة إنشاء (الكتاتيب) في البلاد. والمعيب في هذه اللعبة أنها أقرب للرياء منها لشرق القصد. ولقد نفذت بطريقة هي الرياء كله، إذ ترك لكل مدير أن يتنافس مع زملائه في حض الأعيان على إنشاء المكاتب الأولية، ومن ثم عادت للعمد سلطتهم الأولى في الضغط على الفقير لاستنزاف جلده قبل جيبه؛ فتحول الخير شرا من وجهين: وجه الرياء من جهة، ووجه الإرغام من جهة ثانية.

والخلاصة أن سياسة التعليم الجارية الآن غير مقيدة لتكوين أمة ينبغ فيها العلماء في كل فن، ولا هي سائرة للأمام قدما. لأن التقدم في المعارف والعلوم يتوقف على كون نظام التعليم وافيا بحاجات الأمة على اختلاف طبقاتها كما قال اللورد"[1].

في هذا النموذج الأخير تلاحظون معي أشياء منها:

---

(1) المصدر المتقدم ج ٤ ص ١٥٦- ١٥٧.

أولا: أن صاحب المؤيد كان يتحدث إلى اللورد كرومر في هدوء واتزان، ويجادله مجادلة تقوم على المنطق والبرهان، ويسخر من سياسة التعليم في مصر سخرية لا يناله الأذى منها، وهي في الوقت ذاته تؤدي الغرض الذي ترمي إليه.

ثانيا: أن اللغة التي كتب بها المقال أقرب إلى الصحافة بمعناها الصحيح منها إلى الأدب بمعناه الصحيح، فلا سجع، ولا استعارة، ولا مقالة، ولا مطابقة، ولا استشهاد بالشعر ونحو ذلك. بل أنه إذا كان ولا بد من الاستشهاد في هذا المجال فلا بأس أن يكون من كلام الساسة في خطبهم وتقاريرهم، كما استشهد السيد علي يوسف هنا بكلمة جاءت في تقرير كرومر، بدأ بها المقال وختمه بها كذلك.

ثالثا: أن أسلوب السيد علي يوسف في مقاله هذا لا يعتمد بنوع خاص على التشبيه. ولكن إذا كان ولا بد من هذا التشبيه فليكن مشتقا من الحياة الواقعة نفسها، أو ليكن مأخوذا من التراكيب المصرية ذاتها. خذ لذلك مثلا في هذا المقال: تشبيه السيد علي يوسف سلطة الوكالة البريطانية في مصر بسلطة الوصي على أطفال قصر، وهو تشبيه واقعي دقيق، مضى فيه الشيخ إلى نهايته كما رأينا.

* * *

تلك فكرة موجزة عن المدارس الثلاث التي مرت بها الصحافة المصرية منذ ظهورها إلى ثورة سنة ١٩١٩[1]. المدرسة الأولى: ذات المنحى الثقافي، والمدرسة الثانية: ذات المنحى الاجتماعي، والمدرسة الثالثة: ذات المنحى

---

(1) لا تتسع المحاضرة الواحدة في الغالب لتتبع الفن الواحد من الفنون الأدبية أو الصحفية التي تحدثنا عنها؛ وذلك منذ نشأة هذا الفن إلى الوقت الحاضر. ولهذا نضطر في أكثر الأحيان إلى أن نقف بهذا الفن أو ذاك عند ثورة سنة ١٩١٩. فنرجو أن يلاحظ القارئ ذلك.

السياسي. وسنفرد كل اتجاه من هذه الاتجاهات الثلاثة بمحاضرة واحدة، لنرى الظروف التي حددت هذا الاتجاه، ونرى النتائج التي حققتها البلاد من وراء هذا الاتجاه، ثم الطريقة التي سلكتها الصحافة - ومعها الأدب - في سبيل الوصول إلى هذا الاتجاه..

المقالة في الاتجاه الثقافي

منذ ولي رفاعة الطهطاوي أمر "الوقائع المصرية" وكان ذلك في الحادي عشر من شهر يناير سنة ١٨٤٢ ميلادية وجدنا له اهتماما خاصا بالجانب الثقافي لهذه الجريدة الرسمية، وقد عاشت هذه الجريدة قبله نحوا من أربع عشرة سنة وهي عاطلة تماما من هذه الناحية. يوم كانت مقصورة على أخبار الحكومة، وأعمال الوالي، وبعض الحوادث التي تجري بين الأهالي، وبعض الأخبار الخارجية القليلة من هنا وهناك.

في ذلك التاريخ – وهو ١١ يناير سنة ١٨٤٢ – صدر قرار مجلس الشورى (بأن تحال المواد المناسبة من الجرائد الأجنبية، وعلاوة بعض القطع الأدبية من الكتب الأدبية، وانتخاب أخبار الملكية، وترتيب الجريدة المصرية بصفة عامة على حضرة الشيخ رفاعة)[1].

وإذا ذهبت تتصفح عددا من أعداد الوقائع المصرية منذ أشرف عليه الطهطاوي هذا – وليكن العدد ٦٢٣ – على سبيل التمثيل، فإنك تراه مرتبا على هذا النحو:

أخبار داخلية، فأخبار خارجية، فقطعة أدبية لرفاعة نفسه عنوانها "تمهيد"، فأخرى في موضوع السلطان وأخلاق السلطان، ثم فصل عنوانه تجارة. ثم قطعة مأخوذة من مقدمة ابن خلدون. وبذلك ينتهي العدد.

ثم أتى إسماعيل فعهد إلى رفاعة الطهطاوي مهمة الإشراف على قلم

---

(1) أدب المقالة الصحفية في مصر ج ١ ص ١٢٣.

الترجمة الملحق بديوان المدارس، كما عهد إليه كذلك الإشراف على جريدة أخرى اسمها (روضة المدارس)، وقد صدر العدد الأول من أعداد هذه الأخيرة في ١٧ ابريل سنة ١٨٧٠.

"وكانت الصحيفة تصدر مرتين في الشهر، ويكتب فيها من ينتخب من ذوي المعارف، ويستحسن نشره بين الناس من الفوائد العلمية لأجل توسيع دائرة الأفكار. وتحريرها يكون بعبارة سهلة التناول وجيزة مفيدة"[١].

ومن ثم أصبحت هذه الجريدة توزع على طلبة المدارس، وأقبل هؤلاء على قراءتها إقبالا عظيما كان يصرفهم في كثير من الأحيان عن دروسهم بالمدرسة، وكانت الجريدة من الناحية الإخبارية الصرفة – تقصر عنايتها كذلك على أخبار المدارس والامتحانات وما يقال في هذه الامتحانات من كلمات افتتاحية جرى العرف بها. وكلها ثناء على الخديو الذي شجع حركة التعليم، وحركة إنشاء المدارس ونحو ذلك.

وإذا وقع لك عدد من أعداد هذه الجريدة أو المجلة وجدتها أشبه ما تكون بمجلة علمية لكلية من كليات الجامعة. فكما أنك لا تظفر في مجلة جامعية بأكثر من أبحاث لأساتذة الجامعة، عنى فيها هؤلاء الأساتذة بالحقائق العلمية وحدها، فكذلك تجد روضة المدارس. فهي ليست أكثر من معرض للكتب التي يؤلفها الأساتذة المشتركون في تحرير هذه المجلة، وهي كتب ينشرونها فصلا فصلا، أو ملزمة ملزمة"[٢]:

فملزمة أو فصل من "كتاب" "حقائق الأخبار في وصف البحار" لعلي

---

(١) عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في مصر: ج ٢ ص ٥.

(٢) أدب المقالة الصحفية في مصر للمؤلف ج ١ ص ١٤٣.

باشا مبارك. وملزمة أو فصل من كتاب "تنوير الأفهام في تغذية الأجسام" لعلي باشا مبارك أيضا، وملزمة أو فصل من كتاب "آثار الأزهار ومنشور الأفكار" لعبد الله بك فكري، وملزمة أو فصل من كتاب "بهجة الطالب في علم الكواكب" لإسماعيل بك الفلكي، وملزمة أو فصل من كتاب "المباحثات البينات فيما يتعلق بالبينات" لمحمد أفندي ندا، وملزمة أو فصل من كتاب "الصحة التامة والمنحة العامة" للدكتور مُحَمَّد بدر، وملزمة أو فصل من كتاب "غرائب النوادر المضحكات والألغاز والأحاجي والنكات" للشيخ عثمان مدوخ مدرس الإنشاء بمدرسة المساحة والمحاسبة، وملزمة أو فصل من كتاب "الروضات النفحية والمقامات الفتحية" لأحمد فتحي بك ناظر مدرسة المساحة والمحاسبة، ثم فصل من كتاب "القول السديد في الاجتهاد والتجديد" لرفاعة الطهطاوي، وفصل من كتاب "الفوائد البديعة في علم الطبيعة" لعلي أفندي عزت المدرس بالمهندس خانة، وفصل من كتاب "النبذ الانتخابية في فن الجغرافيا السياسية" لمحمد أفندي الطيب المدرس بالمدرسة التجهيزية، وفصل من كتاب "العقد النظيم في مأخذ جميع الحروف المصرية من اللسان القديم" للمسيو بروكشي – ترجمة أحمد أفندي نجيب أحد تلامذته، وفصل من كتاب "كنز اللآلئ في الحكم والأمثال" لمحمد أفندي بليغ عضو البعثة، إلى ملازم أو فصول أخرى كثيرة ومباحث طويلة في الكيمياء والميكانيكا. وكلها محلاة بصور الأجهزة التي تعين على فهم هذه المواد الجديدة – ونحو ذلك"[1].

وهكذا كانت (روضة المدارس) مجلة أدبية وعلمية ذات أقسام ثلاثة: قسم للعلوم، وقسم للآداب والإنشاء، وقسم للأخبار المدرسية، نذكر فيها المدارس التي تم إنشاؤها، وأخبار الامتحانات التي تجرى بها، مع التنويه أحيانا ببعض

---

(1) المصدر المتقدم ص ١٤٤.

الدروس التي يلقيها أمثال الشيخ حسن المرصفي بدار العلوم في موضوع الأدب بنوع خاص.

* * *

وهذا كله في مجال الصحف الرسمية التي ينفق عليها من أموال الدولة، أما في مجال الصحف الشعبية فقد وجدنا أن صحيفة (وادي النيل) لصاحبها عبد الله أبي السعود – وهو تلميذ رفاعة الطهطاوي – صورة دقيقة من الصحيفة الرسمية المعروفة باسم "الوقائع المصرية": فيها موادها، وبها العناية بالمواد الأدبية التي تفوقت فيها على الوقائع المصرية نفسها. فقد أخذت صحيفة (وادي النيل) تخصص من صفحاتها جزءا تنشر فيه فصولا من الكتب الأدبية والتاريخية القديمة على نحو ما فعلت صحيفة روضة المدارس. ولعل أول كتاب عينت صحيفة وادي النيل بنشره هو "كتاب تحفة الأنظار في غرائب الأمصار" لابن بطوطة.

* * *

ومضى زمن المدرسة الصحفية الأولى على هذا الوجه، ثم تلتها المدرسة الصحفية الثانية في مصر، فوجدنا هذه الأخيرة أقل عناية بالاتجاه الثقافي من الأولى فقد شغل رجال هذه المدرسة من أمثال مُحَمَّد عبده، وعبد الله النديم، وأديب إسحق، وسليم النقاش، وصاحب الأهرام بأمور اجتماعية وسياسية إلى جانب انشغالهم بالأمور الثقافية.

وثم فرق آخر في المجال الثقافي بين المدرستين السابقتين، وهذا الفرق هو عناية الأولى بالجانب العلمي البحت من الثقافة. وإن كان من الحق أن يقال أن الصبغة الأدبية للنهضة الثقافية إنما بدأت في مصر من عهد إسماعيل، ثم أخذت

تزداد في مصر شيئا فشيئا: ومن الحق أيضا أن يقال إن السوريين المقيمين بمصر أعانوا يومئذ على هذه الصبغة الأدبية، وكان لهم فضل في قوتها وتغلبها على الصبغة العلمية البحتة فيما بعد.

كان رجل كأديب إسحق أو سليم النقاش كثيرا ما يأخذ من معين اللغة الفرنسية وينقل إلى القراء في مصر والشرق كثيرا من أفكار الفرنسيين في السياسة والاجتماع والفلسفة والأخلاق والأدب. وذلك كله فضلا عن القصص المسرحية الكثيرة التي نقلوها من الفرنسية إلى العربية – كما أسلفنا.

لقد شرح أديب إسحق في مقالاته للمصريين والشرقيين معنى الحرية والوطن والوطنية، كما شرح لهم نظرية فصل السلطات، والحكم النيابي، وواجبات الدولة نحو الأفراد، وواجبات الأفراد حيال الدولة. ومضى الأديب السوري في هذه الكتابات حتى وصل إلى روسيا، فوصف نظم الحكم بها وتعرض لكثير من الأفكار الشائعة بين أهلها، ووازن بينها وبين الدول الأخرى في كل ذلك.

وليس شك في أن الحرب التي قامت بين روسيا وتركيا في تلك الفترة كانت الباعث الحقيقي له ولغيره من الكتاب على إنشاء هذه المقالات التي أرادوا فيها الدفاع عن الدولة العثمانية ضد الدولة الروسية مسفهين آراء الأخيرة محبذين آراء الأولى، كل ذلك في حماسة بالغة للشرق الذي هو مهبط الرسالات والذي هو الموطن الأول (للشعلة) التي انبعثت في أوربا، وهي الشعلة التي أضاءت الطريق لفرنسا ولثورتها المعروفة في التاريخ.

* * *

وأخيرا نصل إلى المدرسة الصحفية الثالثة فنراها سياسية الصيغة في الأعم

الأغلب، ولكن هذه المدرسة آمنت مع ذلك بقيمة الثقافة، وكان من نتائج هذا الإيمان العميق في نفوس أفرادها ظهور (مشروع الجامعة).

ومن الإنصاف هنا أن يقال إن أكثر أفراد هذه المدرسة الأخيرة عنوا بأمر التعليم في البلاد، وأظهروا اهتماما بسياسة التربية التي جرت عليها الحكومة في تلك الأوقات، وكان من أظهر هؤلاء في هذا السبيل أحمد لطفي السيد رئيس تحرير "الجريدة" وله في هذا الميدان بلاء لا يقل عن بلاء غيره في مجال الدين أو المجتمع أو السياسة.

"وإن نظرة واحدة إلى آراء هذا الكاتب الفيلسوف في شؤون التربية والتعليم لترينا في وضوح أنه صدر في آرائه المختلفة عن هذه القواعد الثلاث:

الأولى: أن الإنسان خير بطبعه – كما قال جان جاك روسو – وأنه قابل للتربية والتهذيب، وأن في استطاعة الأمة أن تقوم في إعداد أبنائها على أساس هذا الرأي.

الثانية: أن الغرض من التربية والتعليم هو الحصول على صفة التوازن الخلقي والنفسي في الأمة والفرد، فعلى الأمة والفرد الاهتمام بتنمية العقل وبتنمية الجسم بقدر واحد فيهما تقريبا.

الثالثة: أن الغرض من التعليم في نظر الباحث الاجتماعي هو الحصول على أكبر قدر ممكن من التشابه بين أفراد الأمة الواحدة، ذلك أن التشابه هو المصدر الحقيقي للألفة، والألفة هي السبب الحقيقي في التضامن والوحدة، والتضامن هو الطريق للتقدم الذي ينشده المجتمع[1].

مهما يكن من شيء فنحن إذ ننظر إلى المدرسة الصحفية الثالثة في

---

(1) أدب المقالة الصحفية في مصر ج ٦ ص ١٣٦– ١٣٧.

مصر– فنجد أنها تمتاز عن سابقتيها بأمور أربعة، هي: التعقيل، والتجديد في الأساليب، وهضم الثقافة الأوروبية بعد إذ تم نقل الكثير منها على يد المدرسة الأولى– والعمل على نقل الحضارة الأوروبية قصد الانتفاع بها والاسترداد منها"[١].

ويبدو لنا أن الاتصال الحقيقي في مصر بالفلسفة اليونانية بدأ على يد أحمد لطفي السيد من رجال المدرسة الصحفية الثالثة، فقد أعجب هذا الرجل إعجابا شديدا بأرسطو، وترجم له خمسة كتب وهي: كتاب الطبيعة، وكتاب الكون والفساد، وكتابان في الأخلاق بعنوان: إلى نيقوماخوس. وكتاب في السياسة. نقلها كلها عن سانت هيلير وإن قيل في هذا الأخير إنه ليس بثقة.

"وعلى قدر إعجاب الرجل بأرسطو كان شديد الإعجاب كذلك بكل من: كانت الألماني، وفولتير، وروسو من الفرنسيين، وستوارت مل الإنجليزي (صاحب مذهب المنفعة). وتولستوي الفيلسوف الروسي، وجوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسي، وغيرهم ممن قرأ لهم، وظهر أثر ذلك واضحا فيما كتب من مقالات على صفحات "الجريدة".

أما (اللواء) فكانت عنايتها بالأمور الثقافية دائما ذات هدف وطني حيناً وإسلامي حيناً آخر، ومن ثم دعت اللواء إلى الكتابة عن أبطال الإسلام وجمعت طائفة من المقالات في هذا المعنى في كتاب أطلقت عليه اسم (حمادة الإسلام) لمؤلفه مصطفى نجيب "وهو صاحب المقالات التي نشرتها هذه الصحيفة كما قدمنا.

وبمثل هذه الطريقة كانت اللواء تنشر مقالات جليلة في تراجم

---

(١) نفس المصدر ص ٥.

الشخصيات الكبيرة التي كان لها أثر في بناء النهضة الحديثة في مصر وفي الشرق.

* * *

غير أن المجلات الثقافية بعد الربع الأول من القرن العشرين دخلت في دور "التخصص"؛ فمجلة خاصة بالمحامين، وأخرى خاصة بالمهندسين، وثالثة خاصة بالمدرسين، وصحيفة تختص بالزراعة، وأخرى بالصناعة، وثالثة بالاقتصاد، ورابعة بالمجتمع، وهكذا. بل إن الاتجاه السائد الآن هو أن يكون لكل وزارة من وزارات الحكومة مجلة خاصة بها، ولكل هيئة من هيئات (الإنتاج القومي) أو السياحة مجلة خاصة بها كذلك.

ولا شك أنه مادامت هناك جهة من الجهات تستطيع الإنفاق على هذه الصحف والمجلات فإنها تضمن لنفسها البقاء، ولو في المحيط الخاص بها، وبين أفراد الفئة أو الطائفة التي يعنيها الأمر. أما الصحافة الأدبية الخالصة فهي التي أصيبت في مصر بكارثة!

نعم.. كانت مصر إلى عهد قريب تنعم بطائفة من الصحف ذات الطابع الأدبي الرفيع، ومنها على سبيل المثال: مجلات الهلال، والمقتطف، والبيان، والبلاغ الأسبوعي، والسياسة الأسبوعية، والفصول للأستاذ مُحَمَّد زكي عبد القادر، ومجلة (أبولو) التي أصدرها الدكتور زكي أبو شادي عام ١٩٣٢ وجعلها مخصصة لفن واحد فقط من فنون الأدب، هو فن الشعر. ثم صدرت الرسالة عام ١٩٢٣. وتلتها مجلة الشباب للأستاذ محمود عزمي، وجريدة منبر الشرق للشاعر الأديب علي الغاياتي، ومجلة الثقافة عام ١٩٣٩. وقد تولى رياسة تحرير هذه الأخيرة الأستاذ أحمد أمين، وكتب فيها أعضاء لجنة التأليف والترجمة

والنشر، واتصل بها أساتذة الجامعة، ووصلت إليها المقالات والأشعار من كبار الأدباء في العالم العربي كله تقريبا.

"وهكذا شهدنا في مصر حركة أدبية فكرية مباركة، غير أن اشتعال الحرب العالمية الثانية في أول سبتمبر عام ١٩٣٩ جعل المجلات الأدبية تنكمش؛ وتتضاءل بعض الشيء، كما جعل الصحف اليومية تؤثر أنباء الحرب وتطورات المعارك على أخبار الأدب والفكر. فلما بدأت المعارك تتكشف عن قرب انتصار الحلفاء على الألمان – بعد نزول قوات أيزنهاور في بلاد المغرب الإفريقي – أصدر الأمريكان طبعة عربية لمجلتهم الشهرية المعروفة باسم **Readers Digest** وجعلوا الأستاذ فؤاد صروف رئيسا لتحريرها، وصدرت تلك الطبعة العربية باسم (المختار)"[١].

غير أن مجلة (المختار) كادت تقصر عنايتها على نشر الآراء الأمريكية والأفكار التي تتفق والمذهب السياسي والاجتماعي للولايات المتحدة. ولأن أكثر مواد هذه المجلة كان مترجما – كما ذكرنا – فقد كانت لغتها بعيدة نوعا ما عن الذوق المصري الذي لم يعجبه منها غير الأفكار العملية والآراء التي تتصل اتصالا قويا بالحياة العامة.

ثم لم تكد الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها حتى ظهرت في الميدان الأدبي مجلة شهرية باسم (الكاتب المصري) تولى تحريرها الدكتور طه حسين، وكتب فيها بعض أساتذة الجامعة. وكانت هذه المجلة الأخيرة شديدة العناية بالنقد والفكر العالمي الحر. وكان الدكتور طه حسين ينشر فيها مقالاته المشهورة تحت عنوان (المعذبون في الأرض)، ومع هذا وذاك فلم تطل حياة (الكاتب المصري)

---

(١) مختار الوكيل: محاضرة بعنوان الصحافة والأدب: ص ١٠.

كما لم تطل حياة (المختار).

ثم ما هي إلا فترة قصيرة حتى ظهرت مجلة أدبية، باسم مجلة (الكتاب) للأستاذ عادل الغضبان. غير أن هذه المجلة صارت إلى ما صارت إليها الرسالة، والثقافة، والمقتطف، والمختار، والكاتب المصري، فاحتجبت عن الأنظار، وخلا الميدان الأدبي والثقافي في مصر إلا في مجلة (الهلال) التي أسسها جورجي زيدان سنة ١٨٩٢ ولم تزل باقية إلى اليوم.

فما الذي أفضى بالصحافة الأدبية في مصر إلى هذه الكارثة؟ وما أسبابها؟ وهل هناك أمل في أن تعود الصحافة الأدبية في مصر سيرتها الأولى؟ الوقع أن الآراء اختلفت في هذا الموضوع اختلافا كبيرا.

فمن قائل أنها الصحافة اليومية التي (عودت القراء كل بسيط سهل من الآراء والأفكار. وهي تغالي في هذا المضمار، فتنشر مقالات ربما أدت بالقارئ إلى لون من الجمود والتبطل الذهني. بل لعل يوما قريبا يأتي ونرى فيه القراء لا يبذلون أي جهد حقيقي لفهم ما يطالعون)[١].

ومن قائل (أن السينما أو دور الخيالة طغت على الشباب المصري، وصرفته عن القراءة في الكتب والمجلات ونحوها، وعودته الاعتماد على هذه الطريقة في كسب المعلومات، وفهم أسرار الحياة)[٢].

ومن قائل (إن العيب الأول إنما هو في كتاب الصحف أنفسهم لقلة حظهم من الثقافة الأدبية الواسعة، وفي ذلك يقول الأستاذ فؤاد إفرام البستاني عميد الجامعة اللبنانية في حديث له مع مجلة (الهاتف) العراقية:

---

(١) المحاضرة المتقدمة ص ١٢.

(٢) اذكر أن القائل بهذا الرأي هو الأستاذ عباس العقاد.

فإذا تخصص أحدهم في تحرير راوية الأدب مثلا أحس أن من واجبه أن يتحدث إلى قرائه عن الأدب الفرنسي أو الإنجليزي – وقد لا يكون ملما بشيء منهما – فيكتفي بنقل قطعة أدبية عن اللغة الأجنبية التي يعرفها على غير تعمق. فيعرض بضاعة أجنبية الأصل، ولكنها فاسدة النقل. فإذا اطلع عليها أحد العارفين عزف عنها، بل عزف عن المجلة بكاملها واحتقرها).

ومن قائل أن من أسباب اختفاء الصحف الأدبية عندنا قلة عناية أصحابها بالإخراج الفني لهذه الصحف، وعدم اهتمامهم بتزويدها بالصور الفنية وأشباهها؛ فإن في الإكثار من هذه الصحف ما يجذب القراء وبنمريهم بشراء المجلة أو الصحيفة الخ،

المقالة في الاتجاه الاجتماعي

تعرفون أن الحضارة الإسلامية في جملتها حضارة دينية المصدر والنشأة، وأن الحضارة الأوروبية الحديثة قائمة على أسس عقلية وعلمية بحتة. ومنذ التقت الحضارتان معا على أرض مصر كان من نتيجة التقائهما أن حدث تخلخل عام في الحياة المصرية، أعقبه صراع هائل في نفوس المصريين وقلوبهم أيضا. ففكر المصريون من تلقاء أنفسهم أن يملئوا هذا الفراغ الذي أحدثته هذه الحالة في عقولهم وأفئدتهم؛ فمنهم من عمد إلى الإلحاد جهره، ورأى فيه الخلاص من هذا الموقف. ومنهم من عمد إلى الإصلاح الديني على أساس جديد؛ هو عقد الصلح بين الدين والمدنية. ومنهم من فكر في الانضمام إلى المعسكر الأوروبي جملة، وحاول أن يحتذي الحياة الأوروبية نفسها بدقة. فجاءت محاكاته لهذه الحياة مجردة من المنطق، ولا نظر فيها مطلقا إلى ماضي الأمة المصرية وهكذا.

ولا غرابة في ذلك فأنتم تعرفون أن البيئة المقلدة أشد من البيئة الأصيلة تطرفا في التقليد. فإذا كانت مصر مقلدة لأوربا، حديثة العهد بعلمها وحضارتها، فمعنى ذلك أنها أشد تطرفا في الأخذ من ظاهر الحضارة الحديثة، حتى لا تتهم بالتخلف عن أوروبا في مضمار هذه الحضارة.

وتلك هي المشكلة التي واجهت المصلحين في مصر، وراحوا يفكرون في حلها، والتغلب عليها ما وسعهم التفكير في هذه المسألة.

كيف يخلق المصلحون من هذا المجتمع الذي أصابه التفكك أو التخلخل أمة قوية تصلح لمباراة الأمم الأوروبية في مجال التمدن والترقي؟

قال السياسيون: فلنحارب الاحتلال البريطاني بكل قوة، ومن هنا نشأت الحركة الوطنية، وبلغت أوجها على يد الزعيم الشاب مصطفى كامل.

وقال المفكرون من غير السياسيين: بل نحارب الاستبداد في كل مظاهره؛ كالاستبداد في الحكم، والاستبداد في الطبقات، والاستبداد في الدين. وإن كنا نعلم أن الشعب المصري من أكثر شعوب العالم كله خضوعا لحاكم مستبد، ولطبقة إقطاعية، ولدين لم يحاول أصحابه أن يخلصوه مما علق به – عبر القرون الطوال – من خرافات وأوهام؛ قبحت صورته. وأوهنت من قوته، وهبطت بروحانيته إلى الدرجة التي يرثى لها، وفي هذا الميدان الأخير – وهو محاربة الاستبداد السياسي والاجتماعي والديني – وقف رجال كثيرون من أمثال: مُحَمَّد عبده، وعبد الله النديم وعلي يوسف، ويعقوب بن صنوع، وعبد الرحمن الكواكبي الخ وكلهم أئمة الإصلاح الاجتماعي. ومنهم تألف الرعيل الأول في ميدانه. أما الرعيل الثاني فمن رجاله رفيق العظم، وعبد القادر حمزة، وعبد العزيز جاويش، وطنطاوي جوهري، ورشيد رضا الخ.

الأولون من السياسيين طالبوا بالدستور وبالجلاء، وبهذه الأشياء التي تمس سيادة الدولة المصرية. وتؤثر في كيانها السياسي في الجملة.

والآخرون من المفكرين الاجتماعيين طالبوا بالإصلاح الديني، وبالحرية الفكرية، وبالمقاومة الفعلية لكل من تحدثه نفسه من الأوروبيين بمهاجمة الدين الإسلامي، ولقد كانت الوكالة البريطانية من أخطر الجهات التي هاجمت الدين الإسلامي في تقارير كانت تصدرها كل سنة لهذه الغاية، ولغايات أخرى كذلك.

على أن فكرة الإصلاح الديني أو الاجتماعي في ذاتها صادفت هوى في نفس كرومر وخلفائه من بعده، لأنها الفكرة التي تشغل بال الرأي العام المصري عن المطالبة بالاستقلال أو الجلاء ونحو ذلك، أو لأنها الفكرة التي لو نجحت في

مهمتها أصبحت دليلا في ذاتها على نجاح الاحتلال البريطاني في مهمته، وهذه المهمة في ظاهرها هي الأخذ بيد المصريين إلى الحضارة، والسير بهم إلى حيث يلحقون بالأمم الأخرى.

والحق.. لقد كان كل من هذين الفرقين السابقين؛ فريق المصلحين السياسيين، وفريق المصلحين الاجتماعيين على صواب في نظرته إلى المجتمع المصري، وحاجات الأمة المصرية. وكان هؤلاء وهؤلاء مسيطرين يومئذ على الميدان الفكري، والميدان الأدبي. وكان من نتيجة ذلك أن اصطبغ الأدب المصري كله، والفكر المصري كله بصبغة اجتماعية في أكثرها.

ولقد وضحنا آثار ذلك عند الكلام عن القصة، وعن القصيدة، بما لا يدع مجالا للشك في صحة هذه الدعوى. وبقي أن نوضح آثاره في المقالة، متوخين الإيجاز الشديد، فهذا وذاك بعض تعرضنا له في كتابنا "أدب المقالة الصحفية في مصر".

* * *

كانت سنة ١٨٩٩ سنة ميمونة الطالع على حركة الإصلاح الاجتماعي في مصر والشرق. وذلك بما ظهر فيها من كتب مهمة أشرنا إلى بعضها، ومنها كتابان لقاسم أمين، وهما كتاب (تحرير المرأة)، فكتاب (المرأة الجديدة) وكتابان آخران لا يقلان عن الأولين شهرة، ولا تأثيرا في المجتمع المصري وهما للسيد عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٨- ١٩٠٢). وهذان الكتابان هما: (طبائع الاستبداد)، (وأم القرى). وهذان الكتابان للكواكبي عبارة عن مقالات له نشرها في صحيفة المؤيد وصحف أخرى، ثم جمعهما بعد ذلك، أولهما في نقد الحكومات الإسلامية. وثانيهما في نقد الشعوب الإسلامية.

"ولقد كان الحديث في مثل هذه الموضوعات التي مسها الكواكبي من الأشياء المحرمة، لأنها تمس نظام الحكم من قريب، وتفهم الشعوب حقوقهم وواجباتهم. وتهيئهم للمطالبة بهذه الحقوق إذا سلبت، والقيام بالواجبات إذا أهملت.. وهذا أبغض شيء لدى الحاكم المستبد، ولذلك رأينا الشرق من بعد ابن خلدون أغلق هذا الباب، ولم يفتحه أي باحث بعده، وصار كتاب ابن خلدون مقدمة بلا نتيجة"[1].

لقد كان لهذه الكتب الأربعة من جهة "ولكتابات الأفغاني ومحمد عبده من جهة ثانية، ولصحف النديم ويعقوب بن صنوع المعروفة من جهة ثالثة الفضل كل الفضل فيما نالت البلاد من تقدم وما لاح عليها من علائم الصحة العقلية والنفسية. ففي هذه الكتب والصحف التي أشرنا إليها يجد الباحث طائفة من الأفكار التقدمية والآراء الإصلاحية تكفي كل واحدة منها لأن تنقل الأمة من طور إلى طور، وتأخذ بيدها من حال إلى حال أخرى، فهذا:

محمد عبده.. كان من رأيه أن الإصلاح ينبغي أن يبدأ من الدين. فقصر همه أولا على تجديد هذا الدين، أو على تنقيته من الخرافات والبدع التي طمست على عقول المسلمين، وكانت سببا في تأخرهم؛ حتى أصبحوا سخرية الأمم الأجنبية[2].

ولا شك أن الذي يحارب البدع في أمة من الأمم يصبح عدواً لحكامها،

---

(1) أحمد أمين: زعماء الإصلاح ص ٢٥٣.

المصدر السابق ص ٢٥٦.

(2) كان من أخطر هذه البدع التي حاربها محمد عبده ما جاء عن طريق مشايخ الطرق أو الدراويش من مثل عادة (الدوسة). وهي أن يدوس حمار الشيخ ظهور مريديه وهم منبطحون على الأرض وذلك بزعمهم لتلقي البركة. من الشيخ بهذه الوسيلة.

وأولى الأمر فيها، لأن هؤلاء الحكام والولاة إنما يعيش أكثرهم في ظلام البدع والأوهام والدعايات، ويضمنون لسلطانهم البقاء في أوطان لا تعرف معنى للحرية السياسية أو الفكرية، ومن هنا كان الشيخ عدواً لعباس حلمي الثاني.

وكان للشيخ مُحَّد عبده وسائله الكثيرة إلى هذا الإصلاح ومنها:-

أولا: تفسير القرآن، وفي القرآن دعوة إلى تحرير العقل، وفيه حث على الفضيلة، وفيه بيان للعقيدة الإسلامية التي بنيت على الوضوح والبساطة.

ثانيا: التوفيق بين الدين والعلم أو المدنية، وفي هذا الميدان الأخير اشترك كثيرون مع الشيخ الإمام، وأتموا عمله في الحقيقة. ومن هؤلاء - على سبيل المثال - عبد القادر حمزة، ورفيق العظيم، وطنطاوي الجوهري، ورشيد رضا وغيرهم.

ثالثا: إصلاح الأزهر نفسه، وكان الأستاذ الإمام ينظر إلى هذا الإصلاح على أنه أكبر خدمة يمكن أن تؤدي للإسلام، ما دام الأزهر أقدم جامعة دينية في الشرق العربي كله، وما دام الأزهر موئل الدين والمعتقدات في مصر والعالم الإسلامي كله. وفي هذا السبيل تحمل الشيخ مُحَّد عبده كل ألوان الأذى، من جانب الحكومة حينا، والشعب المصري حينا، والأزهريين أنفسهم قبل هذين.

رابعا: الفتاوى، وكان الشيخ الإمام كثيرا ما يفتي في الأمور الشرعية بوحي من عقله، ودافع من ميله إلى الاجتهاد. ولو أن الاجتهاد باب أغلقه المسلمون على أنفسهم منذ قرون عديدة. ومنذ ارتضوا لأنفسهم ذلك وعقولهم مشلولة، وأذهانهم مطموسة، وتفكيرهم مصاب بالعقم والجمود: استفتاه الهنود في جواز الاستعانة بالكفار وأهل البدع والأهواء فيما ينفع المسلمين من مثل تربية الأيتام

وشفاء المرضى فأفتى بجواز ذلك[1]. واستفتاه أحد المسلمين الترنسفاليين في أمور ثلاثة، وهي: لبس القبعات، وأكل اللحوم التي يذبحها النصارى على غير طريقة المسلمين، إذ يضربونها (بالبلط) ولا يذكرون عليها اسم، وفي صلاة الشافعية العيدين خلف الحنفية، فأفتى بجواز الأمور الثلاثة. وكثيرا ما كان الإمام يختم دروسه التي كان يلقيها على طلابه في المنطق بدعوة سافرة إلى حرية الرأي.

خامسا: الرد على فلاسفة الغرب ممن كلفوا أنفسهم مهاجمة الدين الإسلامي، ومن هؤلاء الوزير الفرنسي (هانوتو)، وقد رد عليه الشيخ مُحَمَّد عبده بمقالات ست؛ انفردت كل واحدة منها بتهمة من التهم التي وجهها الوزير الفرنسي إلى الإسلام، ثم دحض الإمام الفكرة التي بنيت عليها التهمة[2].

* * *

على أن مهاجمة الإسلام لم تكن من جانب الكتاب الفرنسيين وحدهم، بل كانت – كما ذكرنا ذلك مرارا – بلهجة أشد وأسلوب أعنف من جانب اللورد كرومر وخلفائه من بعده.

يقول كرومر "إن الإسلام ناجح كعقيدة، ولكنه فاشل كنظام اجتماعي فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي. ولكنه مع ذلك لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنساني؛ فمن عيوبه أن يحرم المرأة كل حقوقها، ويعتبرها أحط من الرجل. ومن عيوبه كذلك أنه يبيح

---

(1) تاريخ الإسلام الإمام ج ١ ص ٦٤٨– ٦٦٦.

(2) راجع تعليقا على هذه المقالات:

كتاب (أدب المقالة الصحفية في مصر) ج ٢ ص ١٠٥– ١٠٨.

Modern Egypt لكرومر ج ٢ ص ١٣٤.

الرق، ومن عيوبه التعصب والتطرف الذي يبيح لأتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم في العقيدة أسرى حرب، ويكفر كل من لا يعتقد برسالة مُحَمّد الخ.

وتوالت كتابات كرومر على هذا النحو، وهو في كل مرة يعنف في حديثه عن الإسلام والمسلمين أكثر من المرة السابقة، وانتهى من أبحاثه إلى نتيجة عجيبة، وهي قوله – في غير تدبر ولا احتياط – إن المسلم غير المتخلق بالأخلاق الأوروبية لا يصلح لحكم مصر. وأكد أن المستقبل الوزاري في مصر سيكون للمصريين الآخذين بحظ من التربية الأوربية البحتة[1].

أدرك المسلمون أن مرجع هذه الآراء الفاسدة عن الإسلام ليس إلا سوء فهم لروح هذا الدين القويم، وجهل بتاريخه ومبادئه. ومن أجل هذا شمر الجميع عن ساعد الجد استعدادا للدخول في هذه المعركة التي اشتركت فيها طوائف كثيرة من المصريين. منهم طائفة الأدباء، وطائفة الصحفيين، وطائفة المترجمين، وطائفة رجال الدين، كل بطريقتها الخاصة بها.

وكم كانت هذه المعركة القلمية عنيفة في حقيقة الأمر، وكم أنفق فيها المصريون من الجهد ومن الوقت، حتى أوشكت قضية الدفاع عن الدين أن تكون معضلة في مصر على قضية الدستور نفسه، وقضية الجلاء نفسه. كنت لا تفتح جريدة، أو كتابا مؤلفا، أو آخر مترجما، أو تصغي إلى خطيب في محفل من المحافل أو ناد من الأندية حتى يكون الدفاع عن الإسلام ضد أعدائه من الأوروبيين جزءا مهماً من هذا الكتاب، أو الصحيفة أو الحديث أو الخطبة.

والعجيب أن بعض الشرقيين كانوا يتأثرون أحيانا بكلام الأوروبيين، ويردون بأن يجاهروا برأيهم في هذا الموضوع، فإذا فعلوا ذلك انبرى لهم آخرون

---

(1) راجع كتاب عباس الثاني للورد كرومر ص ٦٧.

من الشرقيين، فردوا عليهم بنفس طريقتهم.

كتب الأستاذ عبد القادر حمزة مقالا بعنوان (خطر علينا وعلى الدين) سأل فيه: هل في النداء بالدين فائدة؟ يريد بذلك أن يكون مقلدا لبعض مفكري الغرب فيما ذهبوا إليه من أن الدين هو السبب الحقيقي في تأخير المسلمين، وذلك لانقيادهم له انقيادا أعمى. وقال أن من الواجب على المسلمين ألا يقحموا الدين في كل شيء، ولو كان في هذا تقرب إلى العامة الذين استولى عليهم الهوس الديني[1].

فانبرى للرد عليه الأستاذ رفيق العظم مجيبا عن سؤاله المتقدم بقوله[2].

"لقد أخطأ الكاتب حين فهم أن المنادين بالدين كلهم يدعون إلى التمسك به على ما دخله من الحشو واللغو؛ فنحن في حاجة إلى النداء بإصلاح الدين لا النداء بالدين مطلقا الخ.

كان الأستاذ عبد القادر حمزة متأثرا في رأيه بتاريخ النهضة الأوروبية، وتاريخ الصراع بين الكنيسة والدولة؛ وهو الصراع الذي انتهى بفصل السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية، وهي فكرة جميلة كانت بعض ما أفاده المسلمون من الحضارة الأوربية الحديثة؛ كما سنشير إلى ذلك في نهاية هذا الفصل. وجاء الأستاذ رفيق العظم، فرد عليه بأن الإصلاح المدني تابع عادة للإصلاح الديني، فإذا أفلح المسلمون في العودة بدينهم إلى الحالة الأولى، فقد أفلحوا في العودة بالمجتمع والأخلاق إلى المستوى الذي كان يحمد لهم من قبل.

---

(1) المقتطف عدد مارس ١٩٠٤ ص ٣٣١- ٣٤٠.

(2) مجلة الهداية عدد أكتوبر سنة ١٩١٠- نقلا عن كتاب: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر لمحمد حسين ج ١ ص ٣٢٧.

تلك فكرة من الأفكار التي شغلت بال الرأي المصري العام إذ ذاك، وثم أفكار أخرى شغلت بال المفكرين أيضا، سنعرض لبعضها عندما نقف هذه الوقفات القصيرة مع آخرين من المفكرين، فيما عدا الشيخ مُحَمَّد عبده، ومنهم:

عبد الله النديم

ولأهمية هذا الأخير نأتي بذكره كلما سنحت الفرصة والنديم رجل يمتاز – كما قلنا – بشعبيته التي لم يكن لها نظير في مصر والشرق في القرن الماضي، كان من أقدر الناس على الخطابة، ومن أقدرهم على الانغماس في المجتمع المصري بمختلف طبقاته، ومن أعلمهم بمحاسن هذا المجتمع وعيوبه[1].

وكانت وسائل النديم في سبيل الإصلاح الاجتماعي كثيرة منها: الوسيلة الصحفية، ولعل من أهم صفحة يومئذ جريدة التنكيت والتبكيت. ومن وسائله الرواية التمثيلية. وقد كان يعنى بتأليف هذه الروايات، وينشرها في الصحف والمجلات، وكان يشترك بنفسه مع التلاميذ في تمثيلها بالمدارس التي كان يقوم بإنشائها، ويشترك كذلك في التدريس بها. ومن أهم هذه الروايات (رواية الوطن)[2]. وفيها يصور الظلم الذي كان يقاسيه الفلاح في مصر من رجال الإدارة المصرية، من لدن المدير إلى الصراف، وشيخ البلد، ومهندس الري، ومشايخ القرية الخ.

ومنها – أي من وسائل النديم – الخطبة، وقد كانت المجتمعات العامة في مصر لا غنى لها مطلقا عن النديم، حتى شاع عن مُحَمَّد عثمان المغني أنه كان إذا

---

(1) راجع زعماء الإصلاح للأستاذ أحمد أمين، وسلافة النديم لأحمد سمير وأدب المقالة الصحفية في مصر. الجزء الثاني للمؤلف.

(2) انظر سلافة النديم ج ٢ ص ٣٣.

سئل أين تغني الليلة؟ قال: في الفرح الفلاني مع عبد الله النديم[1].

ثم من وسائله الجمعيات والمدارس، وقد كان النديم مشتركا في جمعية سرية يقال لها (مصر والفتاة). وتحولت على يديه إلى (الجمعية الخيرية الإسلامية) وكان من أغراض هذه الأخيرة نشر التعليم بين الفقراء بالمجان، ولذا جمع النديم كثيرا من التبرعات لهذه الغاية.

وكان من أهم المواد التي يقوم بتدريسها في تلك المدارس مادة الإنشاء، ومادة الخطابة. ومهما يكن من شيء فلم يكن أشد على دعاة الحضارة الأوروبية والمعجبين بها من قلم النديم، وذلك منذ آل على نفسه أن يحارب الفساد الخلقي الذي نجم عن هذه الحضارة الغربية. وكانت مجلة التنكيت والتبكيت مسرحا لهذه الحرب الشعواء التي شنها الرجل على الشباب المصري بعد إذ تمتعت أخلاقه بسبب هذا القسط الضئيل الذي ناله من حضارة أوروبا[2].

وكان النديم في نفس الوقت من أشد المتعصبين للحضارة الإسلامية، واللغة العربية؛ حتى كنت المقالات الطوال دفاعا عن هذه اللغة، ودعا في جريدة (الأستاذ) إلى تكوين (مجمع للغة العربية)[3]. ولعل من أشهر مقالاته في الدفاع عن العربية مقالة له بعنوان "إضاعة اللغات تسليم الذات". نشرها في العدد الثاني من أعداد جريدة (التنكيت والتبكيت) التي مر ذكرها.

---

(1) أدب المقالة الصحفية في مصر ج ٢ ص ١٢٢.

(2) انظر حكاية (عربي تفرنج).

(3) (اللغة والإنشاء) مقال للنديم بمجلة الأستاذ بتاريخ ٢١ أكتوبر ١٨٩٢.

الكواكبي

أما الكواكبي فهو رجل من أسرة شريفة في حلب. وقف نفسه على مكافحة فكرة واحدة، لعلها من أخطر ما يشكو منه الشرق الإسلامي إلى اليوم، وهي فكرة (الاستبداد) ذلك الداء الذي قتل مواهب الأمة الإسلامية، وكانت له آثار بعيدة المدى في خلقها وتربيتها، وكان العامل الوحيد في تلف شخصيتها وضعف إرادتها إلى الحد الذي أزرى بها وبماضيها وحاضرها بين سائر الأمم!

"ومن أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب إرادة؟ وهو كالحيوان المملوك العنان، يقاد حيث يراد به. ويعيش كالريش يهب حيث تهب الريح بلا نظام ولا إرادة. وما هي الإرادة؟ هي ناموس الأخلاق. هي ما قيل فيها تعظيما لشأنها: لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة. هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النبات في تعريفه بأنه متحرك بالإرادة. وأسير الاستبداد الفاقد الإرادة مسلوب حق الحيوانية فضلا عن الإنسانية"[1].

"الاستبداد مفسد للدين وذلك في أهم قسميه – أي الأخلاق – وإما العبادات فإنه لا يمسها لأنها تلائمه في الأكثر. ولهذا تبقى الأديان في الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مجردة صارت عادات. فلا تفيد في تطهير النفوس شيئا، لا تنهى عن فحشاء ولا عن منكر. وذلك لفقد الإخلاص فيها تبعا لفقدها في النفوس.

"والاستبداد مفسد للتربية والأخلاق؛ لأنه يضطر الناس إلى استباحة الكذب والتخيل والخداع والنفاق والتذلل ومراغمة الحس وإماتة النفس الخ،

---

(1) طبائع الاستبداد ص ٩٣.

وفي الحقيقة أن الأولاد في عهد الاستبداد سلاسل من حديد يرتبط بهما الآباء على أوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق، فالتوالد زمن الاستبداد حمق. والاعتناء بالتربية حمق مضاعف، وغالب الأسراء لا يدفعهم للتوالد قصد الإخصاب. إنما يدفعهم إليه الجهل المظلم، وأنهم محرومون من كل الملذات الحقيقة كلذة العلم، ولذة المجد، ولذة الإثراء، ولذة البذل"، "والاستبداد يفسد الميول الطبيعية، والأخلاق الحسنة، ويقلب الحقائق في الأذهان، وينزل بالإنسان إلى مستوى البهائم".

ثم قال: "والاستبداد مفسد لدولاب العمل نفسه في الحكومة، فالحكومة المستبدة تكون مستبدة في كل فروعها، من المستبد الأعظم إلى الشرطي، إلى الفراش، إلى كناس الشوارع. ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقا. لأن الأسافل لا يهمهم جلب محبة الناس. إنما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته، وأنصار دولته...

"إن العقل والتاريخ والعيان: كل يشهد بأن الوزير الأعظم للمستبد هو اللئيم الأعظم في الأمة ثم من دونه من الوزراء يكونون دونه لؤما، وهكذا تكون مراتب لؤمهم حسب مراتبهم في التشريفات.. والنتيجة أن وزير المستبد هو وزير المستبد، لا وزير الدولة، كما هو الحال في الحكومات الدستورية".

ثم يقول الكواكبي بعد هذا كله: "ومن طبائع الاستبداد أن الأغنياء أعداؤه فكرا، وأوتاده عملا. فهم رباط المستبد: يذلهم فيئنون، ويستدرهم فيحنون. ولهذا يكثر الذل بين الأمم التي يكثر أغنياؤها. أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب، ويتحبب إليهم ببعض الأعمال التي ظاهرها الرأفة. يقصد بذلك أن يغتصب قلوبهم التي لا يملكون غيرها. والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءة ونذالة. فهم لا يجسرون على الافتكار فضلا عن الإنكار.

وكأنهم يتوهمون أن في داخل رءوسهم جواسيس عليهم".

هكذا تحدث الكواكبي عن الاستبداد فوضح كيف أنه مفسد لكل شيء في الأمة؛ وأن أول ما يفسده هو (الحرية) "لأنه لا ضامن للحكام أن يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد، يخنقون بها عدوتهم الطبيعية – أي الحرية".

ولكن ما السبيل إلى التخلص من الاستبداد في الأمة.. "إن الوسيلة الوحيدة لقطع دابر الاستبداد هي ترقية الأمة في الإدراك والإحساس، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم"[١].

قاسم أمين

بقيت الإشارة الموجزة إلى أمير المصلحين الاجتماعيين، وهو هنا (قاسم أمين)، وأراؤه معروفة لدى كل قارئ عربي في أيامنا هذه. وقد ضمن هذه الآراء كتابية المعروفين، وهما (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة). في الأول دعا إلى السفور ومساواة المرأة بالرجل.

"وليس في الشريعة الإسلامية نص يوجب الحجاب بالطريقة المعروفة، وإنما هي عادة عرضت للشرقيين من مخالطة بعض الأمم، واستحسنوها وأخذوا بها، وألبسوها ثوب الدين".

ومضى قاسم أمين يفسر سور القرآن الكريم بما يتفق وهذه الفكرة، واستأنس ببعض أخبار الرعيل الأول من المسلمين. فنقل عن الطبري قصة عمر

---

(١) بين كلام الكواكبي في كتاب طلائع الاستبداد ومقالات الأستاذ أحمد لطفي السيد في (الجريدة) حول موضوع التربية والتعليم، وموضوع أخلاق الموظفين شبه كبير. ومن الأمثلة على ذلك مقال لهذا الأخير عنوانه (عبادة البسالة). أدب المقالة الصحفية في مصر: الجزء السادس: قسم النماذج.

بن الخطاب حين وفد عليه ضيف، فأمر له بالغداء، ودعا زوجته (أم كلثوم) فأنت لتأكل معهما.

وعالج المؤلف في هذا الكتاب مشكلات عدة، منها حق المرأة في التعاقد الشرعي مع الرجل. ومنها حق الرجل في أن يرى خطيبته قبل الشروع في الزواج. ومنها اشتغال المرأة بالشئون العامة في المجتمع. ومنها حق المرأة في العمل بيدها لكسب العيش. ومنها تعدد الزوجات، ولماذا شرعه الإسلام عند الضرورة القصوى؟ ومنها مشكلة الطلاق، ولماذا أبيح في الإسلام؟ ومتى يكون ذلك؟

وأثار الكتاب ضجة كبرى في المجتمع المصري الذي لم يستعد بعد لتقبل هذه الدعوة. وزاد في عوامل الضجة يومئذ اشتمال الكتاب على طائفة من العبارات التي سخر فيها المؤلف من رجال الدين، ومن الجهلة المتعصبين من المسلمين، ومن الداعين إلى عدم الأخذ من العلوم الأوروبية الحديثة.

وفي الكتاب (الثاني) دعا قاسم أمين جميع المصريين إلى رفض الفكرة القائلة بأن العادات المصرية أفضل العادات، وأن ما سواها لا يستحق العناية والالتفات. لأن هذه الفكرة تسد الباب سدا أمام المصلحين الذين يريدون أن ينقلوا المصريين إلى حالة أحسن من حالتهم، ومجتمع أفضل من مجتمعهم.

ثم من هذه المقدمة انتقل الكاتب إلى النتيجة التي دعا إليها، وهي جواز الأخذ من الحضارة الأوروبية بأحسن ما فيها. قائلا:

"ولا خوف علينا من ذلك بدعوى أن الاعتراف بفضل الأجنبي مما يزيد طمعه فينا. إذا الواقع أن السبب في طمع الأجانب فينا ليس هو الاعتراف بانحطاطنا، وإنما هو ذلك الانحطاط نفسه"[1].

---

(1) المرأة الجديدة ص ١٩٤.

وينتقل الكاتب من ذلك إلى مناقشة الفكر المصري الحديث في مسائل أخرى بزعم هذا الفكر الحديث أنها صحيحة وليست بصحيحة، ومن ذلك زعم بعضهم أن المرأة مخلوق ناقص العقل والتفكير، وأنها أضعف من الرجل، وأقل منه قدرة على مقاومة المغريات التي تثير الشهوات. فيرد الكاتب على ذلك: "بأن علم التشريح ينبئ بغير ذلك. فهو يدل دلالة قاطعة على المساواة التامة بين الرجل والمرأة فيما يسمى (بالملكات)".

"وكيف نحكم على المرأة بنقصها في الملكات، ونحن لم نتح لها الفرصة الكاملة التي تظهرنا فيها على هذه الملكات"؟.

"بل كيف نحكم على المرأة بضعفها أمام المغريات والشهوات ونحن لم نسمح لها بعد بالسفور الذي يظهرنا على قدرتها أو عزيمتها من هذه الناحية؟

"إن العفة إنما تكسب بمنح الحرية للمرأة"، ولو أدرك المتزمتون ذلك لعدلوا عن كثير من آرائهم السخيفة في هذا الموضوع.

"أن السبب الحقيقي في ضعف المرأة الشرقية إنما هو سجنها والتضييق عليها، وحرمانها من لذة الرياضة من أي نوع، وزيادة الحجر عليها كلما تقدمت بها السن، والحيلولة بينها وبين مخالطة الرجال، مع أن الحرية هي منبع الخير للإنسان، وأصل ترقيته، وأساس كماله الأدبي".

"وقد عاشت الأمة المصرية أجيالا في الاستعباد السياسي، فكانت نتيجة ذلك انحطاطا عاما في جميع مظاهر حياتها: انحطاط في العقول، وانحطاط في الأخلاق، وانحطاط في الأعمال. ومازالت تهبط من درجة إلى أسفل منها، حتى انتهى بها الحال إلى أن تكون جسما ضعيفا عليلا ساكنا، يعيش عيشة النبات أكثر من عيشة الحيوان. فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها في أول الأمر

في حيرة لا تدري معها ماذا تصنع بحريتها الجديدة؟

"وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء: أول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر فيه الشكوى منها، ويظن الناس أن بلاء عظيما قد حل بهم. لأن المرأة تكون في دور التمرين على الحرية. ومع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها، وتشعر بواجباتها شيئا فشيئا، وترقى ملكاتها العقلية والأدبية، وكلما ظهر عيب في أخلاقها يداوي بالتربية حتى تصير إنسانا شاعرا بنفسه"[1].

ثم عاد الكاتب فناقش موضوع اشتغال المرأة بالأعمال العامة، وبنى ذلك على شعورها بالمسؤوليات الثلاث الملقاة على عاتقها: مسؤوليتها نحو نفسها، ومسؤوليتها نحو أسرتها، ومسؤوليتها نحو المجتمع.

فأما من حيث المسؤولية الأولى فلا ينبغي للوطن الذي يحترم نفسه أن يقصر المرأة على الأعمال الحقيرة الممتهنة؛ كالخدمة في البيوت، وبيع السلع الزهيدة في الطرقات ونحو ذلك. فمن حقها إذن أن تعد نفسها – متى أرادت – لتكون معلمة، أو طبيبة، أو مهندسة. وليس في الشريعة الإسلامية ما يحرمها كل ذلك.

وأما من حيث المسؤوليتين الثانية والثالثة فقد عول الكاتب في شرحهما، على أن السبب الأول والأخير في تأخر الأمم الإسلامية في وقتنا الحاضر إنما هو (إهمال الأسرة). وقد رد ذلك إلى شيء واحد فقط هو جهل المرأة.

* * *

والخلاصة في أثر الحضارة الأوروبية التي التقت على أرض مصر بالحضارة الإسلامية أنها – بغض النظر – عن سوآتها، قدمت للمسلمين هذه الأفكار:

---

(1) المصدر المتقدم ص ٧٠– ٧١.

أولا: فكرة الحرية الشخصية، وفكرة الوطن والوطنية وفكرة الأخوة الإنسانية، وقد روج الأوروبيون المستعمرون لهذه الفكرة الأخيرة علما منهم بأنها فكرة تقبلها الشعوب الضعيفة المظلومة. وبالفعل تقبلها الناس في هذه الشعوب، وأفادوا منها بالرغم من سوء نية الأوروبيين، وبالرغم من أنها الفكرة التي أتى بها الدين الإسلامي نفسه قبل ذلك بأكثر من ألف سنة!

ثانيا: فكرة الدستور والمطالبة بالحياة النيابية، نعم في الإسلام دعوة إلى الشورى، ولكن هذه الدعوة – كغيرها مما في القرآن الكريم – دعوة عامة ولا شك أن الغرب هو الذي أتى بهذه الصورة الجديدة للشورى إلى مصر. وقد استهوت الشرق نفسه هذه الصورة، فطفق يدعو لها، وكافح كفاحا طويلا من أجلها.

ثالثا: فكرة تحرير المرأة، وقد سبق القول بأن الإسلام آمن بحق المرأة من نواح شتى، وأن الحجاب والقيود الكثيرة التي رسخت فيها المرأة المسلمة لم تكن من صنع الدين، ولكن من صنع الأمم الكثيرة التي اعتنقت هذا الدين. وقد تنبه إلى هذا قاسم أمين فصحح الوضع بالقياس إلى المرأة المصرية، وفك بيده قيدها، ثم فتح أمامها أبواب العمل والعلم معا. وإن كان من الحق هنا أن يقال إن رفاعة الطهطاوي في النصف الأول من القرن الماضي سبق (قاسم أمين) إلى الدعوة إلى تعليم الفتاة المصرية وأقنع بذلك (ديوان المدارس).

رابعا: فكرة الأخذ من العلوم الحديثة، ولم تصادف هذه الفكرة ما صادفته الأفكار الأخرى. فانتشرت المطابع، وانتشرت الصحف وعرفت المكتبات، وعرفت المعامل؛ ودرست علوم الطب، والهندسة والكيمياء والفلك وغيرها، وأصبح لهذه العلوم على اختلافها مكان خاص من النهضة الحديثة.

خامسا: فكرة الفصل بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية؛ وهي الفكرة التي أغرت باعتناقها الكثيرين من المصريين عقب فراغهم من قراءة التاريخ

الأوروبي، ونحن نعرف أن من أروع صفحات هذا التاريخ صفحة النزاع المرير بين الدولة والكنيسة. وهل ينسى التاريخ (محاكم التفتيش)، و(صكوك الغفران)، ووقوف الملوك أذلاء بين أيدي البابوات ونحو ذلك؟

قرأ الشرقيون هذا التاريخ، وذكروا معه طغيان السلطان عبد الحميد ومن حوله من رجال الدين، وهم يسيطرون على عقله، ويدخلون في روعه أن الإسلام دعا إلى كيت وكيت، وأن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها راضون منه بكيت وكيت. وبالغ وزراء السلطان محمود من قبل في تعظيمه حتى خلعوا عليه لقب (خليفة المسلمين)؛ فأمعن السلاطين في ظلمهم، وأخذ الدجالون الدينيون يزينون لهم كثيرا من عملهم. وكان من نتائج ذلك كله في الميدانين الأدبي والصحفي ظهور كتاب "ما هنالك"[١] لإبراهيم المويلحي، وكتاب "ذكرى وعبرة"[٢] لسليمان البستاني. وموضوع الكتابين معا هو الحكم العثماني على يد عبد الحميد، وما آل إليه من فساد خطير وكلا الكتابين عبارة عن مقالات نشرت تباعا في صحف مصر وسوريا.

في تلك المجالات الاجتماعية السابقة كلها سبح كتابنا المصريون والشرقيون، واتخذوا من الصحافة ميداناً لهم، ومكاناً فسيحاً لآرائهم، ومنبراً عالياً لنشر هذه الآراء في الإصلاح.

---

(١) أدب المقالة الصحفية في مصر ج ٣ ص ١٢٠- ١٥٠.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد حسين ص ٢٦٨- ٢٧٣.

المقالة في الاتجاه السياسي

في أفق السياسة المصرية ظهرت طائفة من المسائل السياسية شغلت بال الرأي العام المصري، وتقدمت الصحف للتعبير عن هذا الرأي، وسنرى أنه كان لهذا الاتجاه السياسي – في جملته – تيارات أربعة: هي التيار التركي، والتيار الفرنسي، والتيار الإنجليزي، والتيار القومي. وبقيت هذه التيارات السياسية تصطرع في خضم الحياة المصرية حتى كتبت الغلبة للأخير منها، وهو التيار القومي.

ولكن كم كان الطريق وعراً، والجهد شاقا، والظلمة حالكة أمام الذين جاهدوا في سبيل الوصول إلى هذه الغاية الأخيرة، وإذا ذهبنا نحصي المسائل السياسية التي ناقشتها الصحف المصرية منذ نشأتها وجدنا أن أهم هذه المسائل ما يلي:

حفر قناة السويس

وقد بدأ التفكير في حفر القناة منذ أيام مُحَّد علي، ولكن شخصية هذا الرجل وصلابة عوده كانت حائلا دون الفرنسيين الذين لم يستطيعوا إقناعه بالسهولة التي اقتنع بها خلفاؤه من بعده. ثم جاء سعيد، وكان من سياسته أولا ألا يتيح للأوروبيين فرصة التدخل في شؤون مصر. ولكن سياسته تغيرت في أيامه الأخيرة؛ وذلك منذ عرض عليه (دليسبس) فكرة المشروع، فوافق عليها مبدئياً دون دراسة من جانبه، أو من جانب الرأي العام المصري لهذه الفكرة.

وفي عهد إسماعيل ظهر التدخل الأجنبي في مصر بصورة سافرة، واستطاعت كل دولة من الدول الأوروبية صاحبة المصالح الحقيقية في الديار

المصرية أن تعبر عن رأيها حيال هذه المسألة.

فأما بريطانيا فكانت تعارض المشروع مادام القائمون به، وأكثر المكتتبين فيه من الفرنسيين وحدهم. وأما فرنسا فهي التي ترى الخير كل الخير في حفر القناة، والوصول إلى المحيط الهندي، ورغبة منها في تدعيم التجارة، لا أكثر ولا أقل.

ودارت المقالات الصحفية مدة ما على هذا المحور السياسي والاقتصادي؛ فالصحف البريطانية في مصر– ومنها (البروجريه) – وهي صحيفة إنجليزية تصدر باللغة الفرنسية – كانت تؤيد وجهة النظر الإنجليزية، وتدعو السلطان العثماني إلى عدم الموافقة على المشروع، وتحرضه على الامتناع عن منح امتياز القناة للشركة الفرنسية.

والصحف الفرنسية – ومنها صحيفة النيل، ومنار الإسكندرية وغيرهما – كانت تشيد بالفوائد الجليلة التي ستجنيها مصر والعالم والإنسانية كلها من وراء هذه الفكرة.

وفي عهد إسماعيل انقسمت الصحف منذ البداية إلى قسمين: أحدهما يؤيد الفرنسيين، والآخر يؤيد الإنجليز. وإن كانت الصحف المؤيدة للإنجليز عبارة عن صحافة هزيلة ينفق عليها القنصل البريطاني في مصر.

ثم في عهد توفيق ظهرت الصحافة الوطنية بالمعنى الصحيح، وبرز في الميدان الصحفي أمثال عبد الله النديم، ومُحَمَّد عبده، فدعا الجميع يومئذ إلى ردم القناة ما دامت تجر على مصر كل هذا الويل، وتدعو الدول الأوروبية إلى التدخل المستمر في شؤون مصر.

ثم في عهد عباس حلمي الثاني أضيف إلى التيارين المتقدمين – وهما التيار

الفرنسي والتيار الإنجليزي – تياران آخران، أحدهما يدعو إلى السيادة التركية، والآخر يدعو إلى القومية المصرية.

أما السيادة التركية فدعت إليها صحف كان يعاونها السفير التركي أحمد مختار باشا الفازي قبل سحبه من مصر، وكانت هذه الصحف قليلة الأهمية وأما صحيفة المؤيد للسيد علي يوسف فكانت تدعو للخديو عباس وحده وأما اللواء لمصطفى كامل فكانت تدعو إلى الولاء للسلطان العثماني. وهما معا يبغيان التخلص من الاستعمار البريطاني. ولو أنه لم يرد في جريدة اللواء بنوع خاص، ما يتعارض والنفوذ الفرنسي الذي أخذ يقوى في مصر، ويصبح له تأثير في الميدان الاقتصادي يتفوق تفوقا ظاهراً على التأثير الإنجليزي في هذا الميدان.

وأما (الجريدة) لمحررها أحمد لطفي السيد فكانت تدعو إلى القومية المصرية، وترى في هذه الدعوة الأخيرة السبيل الوحيد إلى الاستقلال الذي تنشره الأمة، والتخلص النهائي من التدخل الأجنبي.

مسألة الدستور

كانت مسألة الدستور من أهم المسائل السياسية التي اشتغلت بها الصحافة المصرية، وللحياة الدستورية في مصر ثلاثة أطوار:

أولها: الطور الذي يمثله مجلس شورى النواب من سنة ١٨٦٨ إلى قرب الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢.

وثانيها: الطور الذي تمثله الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين ابتداء من سنة ١٨٨٢ إلى قرب قيام الحرب العظمى.

وثالثها: الطور الذي يمثله برلمان سنة ١٩٢٤.

على أن من الخطأ أن ننظر إلى الطورين الأولين كأنهما يمثلان حياة نيابية سليمة، إذ الواقع أن المصريين كانوا يتوقون إلى حياة دستورية صحيحة كتلك التي تنعم بها البلاد الأوروبية الكثيرة. ولكن الحاكم المصري الشرعي من جهة. والحاكم الأجنبي من جهة ثانية لم يتيحا لهم هذه الفرصة الطيبة، فبقيت مصر محرومة من نعمة الدستور على الوجه الصحيح، وذلك رغما من الجهاد الطويل الذي بذلوه في هذا السبيل(١).

نعم.. طالب المصريون بالدستور تشبها منهم بالأوربيين، وبالشعب العثماني الذي منحه السلطان عبد الحميد هذا الدستور. وكان من نتيجة ذلك دخول المصريين في الطور الأول من حياتهم الدستورية، وهو الطور الذي يمثله مجلس شورى النواب.

غير أن المصريين حين تبين لهم سوء قصد الخديو وأعوانه، وأنه لم يمنح مصر دستوراً بالمعنى الصحيح أخذوا يلجئون إلى طريقة أخرى؛ هي طريقة الجمعيات السرية التي طفقت تطالب بين الحين والحين بطائفة من المطالب الدستورية، كانت تصدر بها بيانات مثالية يقرؤها الشعب المصري وينفعل بها انفعالا ظاهرا.

ومن هذه الجمعيات على سبيل التمثيل: (جمعية الضباط الفلاحين) الذين شعروا بشعور واحد يومئذ، هو شعور التذمر من سوء المعاملة التي كانوا يعاملون بها في داخل الجيش المصري. فقد كان ولاة هذا الجيش يفضلون عليهم الضباط الشراكسة، لذلك اجتمع رأيهم على إنشاء هذه الجمعية. وكان رئيسها واحدا منهم اسمه (علي الروبي). وجذبت الجمعية إليها (الأمير حليم) وركزت

---

(١) راجع مقالا للمؤلف بعنوان أجواء فكرية وسياسية عاش فيها الأدب والصحافة المصرية: المجلد السادس عشر من مجلة كلية الآداب: جامعة القاهرة الجزء الأول ١٩٥٤.

حوله آمالها. ووصلت أنباء هذه الجمعية إلى مسامع الخديو إسماعيل، وفكر في البطش بها. ولكن الجمعية استطاعت فيما بعد أن تضم إليها كلا من أحمد عرابي وعبد العال وفهمي، وهم – فيما بعد – زعماء الثورة العرابية.

ومنها (جمعية مصر الفتاة) – وهي الجمعية التي كان من أعضائها أديب إسحق وعبد الله النديم وغيرهما. وهي الجمعية التي استطاع النديم – فيما سبق لنا من حديث – أن ينتقل بها من السر إلى العلن فتحولت على يديه إلى (الجمعية الخيرية الإسلامية).

ويصح أن يكون من هذا النشاط السري كذلك ما عرف في مصر باسم (المحفل الماسوني) وهو المحفل الذي انضم إليه كل من الأمير حليم، والأمير توفيق، والسيد جمال الدين الأفغاني. وعن طريق هذا الأخير تمهد الطريق لظهور (الحزب الوطني) والثورة العرابية[١].

والحق أن الثورة العرابية – وهي رمز للمقاومة الفعلية التي بدت من جانب المصريين – كانت تهدف إلى المطالبة بالدستور، وكانت ترمي إلى وقف النفوذ الأجنبي الذي تمثل – يومئذ – في الضباط الشراكسة. ولعل أهمية الثورة العرابية في تاريخنا الحديث ترجع إلى هذه الأمور، وإلى أمر آخر له دلالته وخطورته، وهو هنا شعور المصري بشخصيته، ورغبته في مقاومة حاكمه، والحد من سلطته. ولو قد نجحت الثورة العرابية لكانت لها من النتائج الخطيرة ما يدل عليه خطاب (عرابي) إلى المستر (بلنت)، وفيه يقول:

"ثم خلع إسماعيل فزال عنا عبء ثقيل. ولكنا لو كنا نحن قد فعلنا ذلك

---

(١) راجع في ذلك فصلا بعنوان الجمعيات السرية ص ٧٥ من كتاب
Parliaments & Parties in Egypt: Landon

بأنفسنا لكنا تخلصنا من أسرة محمد علي بأجمعها، ولكنا عندئذ أعلنا الجمهورية"[1].

غير أن الثورة العرابية منيت بالفشل، وجاءت بالاحتلال البريطاني الذي هو السبب الحقيقي في قيام:

الحركة الوطنية

وقد تولد عن هذه الحركة كثير من المشكلات: ومنها مشكلة عباس، وقد رأينا كيف كان هذا الأمير الشاب يتحمس للحركة أولا، ثم ينسحب منها بعد ذلك. ومنها مشكلة النزاع بين السلطة الشرعية ممثلة في كرومر، والسلطة الاسمية ممثلة في عباس. بل أن هذه المشكلة الأخيرة كانت من أقوى أسباب الحركة الوطنية في الحقيقة، كما كانت سببا من أسباب ذلك الاتجاه الوطني الذي اتجهت إليه الأمة المصرية نحو إنشاء الأحزاب السياسية، فظهر منها أولا (حزب الأمة). وبلسانه تتحدث (الجريدة)، فحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية بلسانه تتحدث (المؤيد)، فالحزب الوطني، وبلسانه تتحدث (اللواء).

وأحب الإنجليز أن يقتلوا الحركة الوطنية في مهدها، فلم يجدوا أمامهم أمضى من سلاح (التفرقة) فنفثوا سمومها في جسم الأمة، وظهرت أعراض المرض عليها بظهور (المسألة القبطية). وانقسم الشعب المصري نفسه قسمين: مسلمين وأقباط. هؤلاء يزعمون أنهم مظلومون في المجتمع المصري الحديث، وأولئك يرون أنهم هم المظلومون بسبب الاحتلال البريطاني الذي فضل الأقباط عليهم وآثرهم بوظائف الدولة. وبلغت الفتنة أقصاها عندما عقد الأقباط مؤتمراً

---

(1) محمد حسين الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص ١٤١ نقلا عن رسالة مخطوطة موضوعها (البارودي) كتبتها السيدة نفوسة زكريا للحصول على ورقة الماجستير – راجع الرسالة ص ٣٨.

لهم بمدينة أسيوط. ورد عليهم المسلمون بمؤتمر لهم بمصر الجديدة. وكان ذلك سنة ١٩١١ في وزارة رياض.

وما كادت الحركة الوطنية تفيق من هذه النكسة القومية حتى ظهرت حادثة دنشواي. فانتهزها الزعيم الشاب مصطفى كامل فرصة للتشنيع بالاحتلال في داخل البلاد وخارجها، ونجح نجاحا منقطع النظير في هذه الحملة. وربحت الحركة الوطنية ربحا عظيما من وراء ذلك.

والحق أن لهذه الحادثة المشئومة، التي هي حادثة دنشواي المشهورة الفضل كل الفصل فيما بدا على الحركة الوطنية من مظاهر القوة، وما ظفرت به من النجاح.

وإن من يتصور حالة البلاد منذ الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤، ويتمثل اليأس الذي خيم عليها منذ ذلك التاريخ ليعجب كيف أن الله تعالى يخلق من الشر خيراً، ويجعل المحنة سببا للفرج في بعض الأحيان. فلولا هذه الحادثة لما خرج اللورد كرومر من مصر، ولولا هذه الحادثة لما بدت الصحة والعافية على الصحافة المصرية في ذلك الوقت، ولولا هذه الحادثة لما خرج السيد علي يوسف في (المؤيد) بمقالاته المشهورة (قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء)، ولولا هذه الحادثة لما ارتفع صوت مصطفى كامل في خطبه وصحفه التي أصدرها باللغتين الفرنسية والإنجليزية وكتب فيها مقالات قوية، ومن أهمها مقال بعنوان: (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن).

وباختصار شديد: لولا هذه الحادثة لاستفحل داء اليأس في نفوس المصريين، وفقدوا الأمل نهائيا من التخلص من الإنجليز؛ لهذا ينظر التاريخ إلى حادثة دنشواي على أنها نقطة التحول الحقيقي في الحركة الوطنية، والنشاط المصري من حيث هو، ولا شك إن كان من أجل المطالب الوطنية التي أجمعت عليها الأمة:

مطلب الجلاء

وصحيفة المؤيد من أولى الصحف التي طالبت بجلاء الإنجليز عن الديار المصرية، وسجلت على الحكومة البريطانية نحوا من ثلاثين وعدا بالجلاء عنها، وكان الإنجليز لا يفتئون ينتحلون الأعذار الواهية لبقائهم في مصر. ولعل من أقوى هذه الأعذار في نظر العالم المتمدن يومئذ حجة الدفاع عن العرش المصري، وحجة إصلاح البلاد من جميع النواحي الاقتصادية والثقافية في ذلك الوقت. وهنا انبرى لهم السيد علي يوسف في المؤيد، وناقشهم هذه الدعوى مناقشة منطقية قوية، أشعرهم فيها بكذبهم، وأحرجهم أمام الدول الأجنبية المعادية لهم، وطفق يقول لهم:

"أحق ما تقولون من أنكم ستتركون مصر عند تمام إصلاحها؟ وما هو هذا الإصلاح الذي تعلقون عليه أمر انجلائكم؟ وهل بدأتم فيه؟ أم ثم شيء منه؟[1].

وكان من سياسة روزفلت الأمريكي في ذلك الوقت مساندة الاحتلال البريطاني في مصر. وجاء هذا الرجل في زيارة إلى مصر، وخطب بالجامعة المصرية خطبة في هذا المعنى. فرد عليه السيد علي يوسف ردودا مقنعة سمعت بها الصحف الأمريكية التي يعنيها الأمر، واستكتبت صاحب المؤيد مقالا طويلا في موضوع هذه الزيارة، وفي رأي المصريين في الاحتلال والجلاء فأجابها السيد علي يوسف إلى ذلك[2].

---

(1) راجع في ذلك منتخبات المؤيد:-

مقال بعنوان. متى تصلح مصر ص ٣٠.

وآخر بعنوان يا بني مصر ص ٤٧.

(2) أدب المقالة الصحفية في مصر ج ٤ ص ١٢٤.

وبعد ظهور المؤيد بثلاث سنوات، أعني في سنة ١٨٩٢ ظهرت جريدة (الأستاذ) أصدرها النديم، وحارب فيها الاستعمار الأوربي محاربة لا هوادة فيها، وطالب فيها بجلاء القوات البريطانية عن مصر. ولعل من أقوى ما كتب النديم في ذلك مقالا له بعنوان: "لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا"[١]

وفي هذا المقال الأخير دفاع عن عباس بوصفه صاحب السلطة الشرعية في البلاد، وهجوم على كرومر، وقد آثار ضجة كبرى ضد عباس منذ أمر بإقالة الوزارة الفهمية، وهي الوزارة التي كانت تدين بالولاء التام للاحتلال البريطاني.

وقد جاء في بعض هذا المقال الخطير نداء للنديم من قوله:

"فيا بني مصر: ليعد المسلم منكم إلى أخيه المسلم تأليفا للعصبية الدينية، وليرجع الاثنان معا إلى القبطي والإسرائيلي تأييدا للجامعة الوطنية، وليكن المجموع رجلا واحدا يسعى خلف شيء واحد؛ هو حفظ مصر للمصريين".

وفي عام ١٩٠٠ ظهرت في الميدان جريدة (اللواء)، وكانت قضية الجلاء، ومكافحة الإنجليز تشغل جزءا كبيرا منها، وطغى هذا الجزء على بقية الأجزاء الأخرى، وذلك منذ انتصر مصطفى كامل على الإنجليز انتصاره المعروف عقب حادثة دنشواي، وكان ذلك في السنة السابعة من حياة هذه الجريدة الوطنية الكبرى.

ومن المقالات المشهورة في هذا المعنى مقال بعنوان (ماذا تريد الأمة) وآخر بعنوان (لينصروا الاحتلال ويؤيدوه). وثالث بعنوان (اللورد كرومر والحركة الوطنية المصرية)، ورابع بعنوان (ذكرى دنشواي)، وقد استمر هذا العنوان الأخير إحدى عشر مرة.

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ١٨٧– ٢٥٠.

ذلك كله عدا المقالات التي نشرها مصطفى كامل في جريدة الأهرام، أعني قبل ظهور اللواء بمدة. ومن أشهرها مقال له بعنوان (صواعق الاحتلال)، وآخر بعنوان (من أين يأتي الخطر) وهكذا.

* * *

الجامعة الإسلامية

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى هذه المسألة في المحاضرة التي تحدثنا فيها عن بيئة الأدب والصحافة، وإلى هذه الجامعة كان يصبو السيد جمال الدين الأفغاني، وعنه يقول جورجي زيدان في كتابه "أشهر مشاهير الشرق":

"إن الغرض الذي كان يصوب نحوه أعماله، والمحور الذي كانت تدور عليه أماله هو توحيد الإسلام، وجمع شتات المسلمين في صورة جامعة إسلامية في ظل الخلافة العظمى"[1].

أجل كانت الجامعة الإسلامية حلما لذيذا من أحلام المسلمين، وأملا من الآمال التي اشتاقت نفوسهم إلى تحقيقها يومئذ.

ولكن بعض المفكرين الأوروبيين نظروا على أنها نذير بحرب صليبية، وغلا بعض هؤلاء في عصبيتهم الدينية أو السياسية ولم يجدوا حلا لهذه القضية إلا القضاء على المسلمين في جميع أنحاء العالم، وإبادتهم من هذه الحياة، ونبش قبر الرسول صلوات الله عليه وسلم بالمدينة، ونقل رفاته إلى متحف اللوفر بفرنسا[2]. وشاءت الأقدار أن تكون (أرض البلقان) مسرحا للصراع العنيف بين الدولة العلية والدولة المسيحية، وأن تتغذى من ذلك فكرة الجامعة

---

(1) جورجي زيدان. أشهر مشاهير الشرق ج ٢ ص ٦١.

(2) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٨٠١.

الإسلامية. وعن ذلك عبرت (مجلة العروة الوثقى) التي تولى تحريرها الشيخ مُحَمَّد عبده وهو في باريس، وإلى جانبه قطب الوحي من هذه الحركة كلها منذ ظهورها، ونعني به السيد جمال الدين الأفغاني[1].

ثم يأتي النديم فيتابع الدفاع عن الدولة العلية، ويقول في مجلة (الأستاذ) وذلك في المقال الذي أشرنا إليه من قبل بعنوان "لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا".

"لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التي هي جزء منها في الحقيقة. ولكن المغايرة وسعي أوروبا في تلاشي الدين الإسلامي أوجب هذا التحامل الذي أخرج كثيرا من ممالك الدولة بالاستقلال أو بالابتلاع. وإننا نرى كثيراً من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية، ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الإدارة وقسوة الأحكام. ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتا، وأحسنها تبصرا، وأقواها عزيمة. فإنها في نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدواني، لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثماني عشرة دولة مسيحية، عدا دول أمريكا" الخ.

أما صحيفة (المؤيد) فقد سبق أن أشرنا إلى رأيها في الجامعة الإسلامية، وهو الرأي الذي اتفقت فيه مع الصحافة الفرنسية، وقد كانت هذه الصحافة ترى أن الجامعة الإسلامية لا وجود لها إلا في أذهان المسلمين وقلوبهم فقط، وأن المسلمين لا يجدون السبيل إلى إخراجها إلى حيز العمل، وأن المعنى الحقيقي للجامعة الإسلامية إنما هو رغبة المسلمين في النهوض الخ.

وأما (اللواء) فقد عنيت بفضل مصطفى كامل عناية كبرى بالمسألة

---

(1) راجع في ذلك مقالا مشهورا بالعروة الوثقى بعنوان (الجنسية والديانة الإسلامية).

الشرقية، ومن قبل كتب الزعيم الشاب كتابا صغيرا في تاريخ هذه المسألة ذاتها، وجاء في الكتاب قوله:

"والحقيقة أن بقاء الدولة العلية ضروري للنوع البشري، فإن في بقائها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق. ولقد أحس الكثيرون في أوربا من رجال السياسة، ومن رجال الأقلام أن بقاء الدولة العليا أمر لازم للتوازن التام، وأن زوالها – لا قدر الله – يكون مجلبة للأخطار أكبر الأخطار"[١].

ومن هنا كانت عناية مصطفى كامل بمسائل الإسلام في (اللواء) غالبة على غيرها من المسائل الأخرى كلها، وذلك منذ السنة الأولى من إنشائها أعني سنة ١٩٠٠ إلى السنة السابعة من حياتها، وهي السنة التي شهدت حادثة دنشواي، وكانت هذه الحادثة الأخيرة نقطة التحول أيضا في هذه الصحيفة من الناحية الإسلامية الخالصة إلى الناحية الوطنية الخالصة أيضا.

وللقارئ أن يعود إلى مقالات: (اتحاد كلمة المسلمين)، (أوربا والإسلام)، (العلم والإسلام)، (مستقبل الإسلام) وغيرها[٢]. وأخيراً كان من الأفكار السياسية التي شغلت حيزا كبيراً في الصحف المصرية فكرة:

الجامعة القومية:

وهنا ينبغي للباحث أولا أن يفرق بين الشعور بالمصرية والشعور بالقومية، أما الشعور بالمصرية؛ فهو نتيجة للتدخل الأجنبي – أوربيا كان هذا التدخل أم تركيا – وقد غذت هذا الشعور في نفوس المصريين عوامل عدة أشرنا إليها في مواضع كثيرة من هذه المحاضرات، وجاء الكتاب والصحفيون فزادوا هذا

---

(١) مصطفى كامل المسألة الشرقية ص ١٦.

(٢) نفس المصدر المتقدم ج ٥ ص ١٤١– ١٥٢.

الشعور نفسه قوة على قوة. وسمعنا كلمة "مصر للمصريين" تدور على ألسنة الصحفيين السوريين مثل أديب إسحق وسليم النقاش، ثم تدور على ألسنة الصحفيين المصريين مثل النديم، وجرى السيد علي يوسف ومصطفى كامل على هذه النغمة أيضا.

وانظر إلى صاحب (المؤيد) كيف يعبر عن الشعور بالمصرية، ويضرب الأمثال بالأمم الأجنبية التي يشعر بعضها بالشعور العربي، وبعضها بالشعور الإنجليزي، وبعضها بالشعور الفرنسي وهكذا:

"من كان يظن أن عرب البوادي تقوم منها أمة يتحرك فيها سبعون ألف فارس لامرأة صاحت: وامعتصماه؟ أو أن الإنكليز يصبحون شعبا يقوم منه اثنا عشر ألف مقاتل للأخذ بثأر رجل منهم قتله بعض المتوحشين؟

ويقوم منهم رجال يجعلون لفظة (بريطانيا) لا تذكر إلا وعلى أثرها (العظمى)؟ وتحرق فئة منهم ثلاثين ألف مجلدا من كتاب فرنساوي ذكر فيه غلادسون بغير ما يليق به من التعظيم؟ بل من كان يظن أن الأمة الفرنساوية التي كانت بيوت أهلها مبنية من قبل على هيئة الحصون والقلاع – لما كان متسلطا عليهم من الفشل والانحلال – تدرج منها أمة تطير أفئدتها عند ذكر الألزاس واللورين (وهما مديريتان أخذتهما منها الألمان في الحرب الأخيرة) ويأبى الواحد من أفرادها أن يدخل خانا ألمانيا، أو يشتري بضاعة من ألماني، متى أمكنه أن يشتريها من فرنساوي؟

"ولقد قال بعض الحكماء: إنك إذا رأيت الغلام في المكتب يسمع سب أبيه، ولا يتميز غيظاً، فبشر الأمة التي سيكون عنصرا منها بالانحلال والدمار. ولقد رأينا مصداق ذلك في بلادنا هذه فقد نقلت إلينا بعض التواريخ أنه كان يسب المصري بلفظة (فلاح) فيقال (يقطع الفلاح ونهاره). وإذ ذاك كانت

مصر على ما لا تخفى من الانحلال والبوار"[1].

وهذه المقالات وأمثالها إنما تعبر عن الشعور بالمصرية، وهو شعور نما في المصريين منذ انتقل إليهم معنى من معاني الوطنية، وذلك على يد رفاعة الطهطاوي الذي كان من رواد النهضة في هذه الفكرة. ثم تبعه آخرون في ذلك، حتى كان العهد بأديب إسحق فنقل إلى المصريين شيئا من بذور الثورة الفرنسية، ونقل إليهم كذلك تفسيرا لكلمات الوطن والوطنية الخ. وكذلك فعل علي مبارك في كثير من كتبه المعروفة، ومنها (الخطط التوفيقية).. أما (القومية المصرية) فيقصد بها إلى تلك الحركة التي جاءت لمناهضة (الجامعة الإسلامية) بعد إذ تبين للمصريين أن عليهم أن يتركوا فرنسا وإنجلترا والدولة العلية، وأن يعتمدوا على أنفسهم فقط في الحصول على حقهم في الاستقلال، وحقهم في الحرية.

"ولقد صادفت هذه الفكرة هوى من نفوس الإنجليز الذين كان يعنيهم انفصال المصريين عن تركيا، كيما تتاح لهم فرصة الانفراد بالسيطرة التامة على مصر. وحمل ذلك بعضهم على الظن بأن فكرة الجامعة المصرية – كفكرة إلغاء الامتيازات الأجنبية – هما معاً من وحي الإنجليز لمصلحتهم الذاتية في مصر، وهي المصلحة التي تحقق لهم جزء كبير منها بالاتفاق الودي سنة ١٩٠٤"[2].

واشتهر بهذه الدعوة الأخيرة – وهي الدعوة إلى (الجامعة القومية) بدل (الجامعة الإسلامية) – أحمد لطفي السيد محرر (الجريدة)، فنادى بها وكان من أشهر مقالاته في هذا الباب: مقال له بعنوان "عليكم أنفسكم" جاء فيه "أن من

---

(1) منتخبات المؤيد– من ٨١– مقالا بعنوان (حياة الأمم).

(2) أدب المقالة الصحفية في مصر ج ٦ ص ١٥.

غير الصواب أن يعمل بعضنا لفناء شخصية المصري في شخصية العثماني. لأن هذا الرأي مع بعده عن الصواب لا يتفق مطلقا مع مصلحة مصر، ولا يتفق كذلك مع اعتبار مصر إقليما ممتازا مستقلا.. فمتى نصرف عنايتنا كلها إلى بلدنا؟ ومتى نقتنع بأننا مصريون قبل كل شيء؟"[١].

ومنها مقال بعنوان (غرض الأمة هو الاستقلال)[٢] جاء فيه: "إن أول معنى للقومية المصرية هو تحديد الوطنية المصرية (نريد الوطن المصري) والاحتفاظ بها والغيرة عليها غيرة التركي على وطنه، والإنكليزي على قوميته، لا أن نجعل أنفسنا وبلادنا على المشاع وسط ما يسمى (بالجامعة الإسلامية) – تلك الجامعة التي يوسع بعضهم معناها، فيدخل فيه أن مصر وطن لكل مسلم" الخ.

كانت هذه الكلمات وأمثالها سببا في تغيير السياسة المصرية، والتفكير المصري، والشخصية المصرية. ومنذ ذلك الوقت والعناية بادية من جانب الكتاب والأدباء ورجال الصحف بهذه "المصرية" حتى أصبحت عنصرا لا غنى عنه في المثالية الجديدة التي آمن بها الجيل المصري الجديد. ثم سرعان ما اختفت من الوجود المصري فكرة (الجامعة الإسلامية) وتحلل الناس من قيود هذه النظرية، وأحسوا منذ يومئذ بنعمة الحرية، وشعروا بأن الطريق انفسح أمامهم لكي يسيروا فيه بهدى جديد؛ هو مصباح الجامعة القومية. فكان هو الطريق الوحيد لتنمية عقيدة الاستقلال في نفوس المصريين.

تلك هي المجالات التي سبح فيها المقال السياسي منذ ظهوره على مسرح

---

(١) الجريدة بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٠٩.

(٢) الجريدة بتاريخ ٢ سبتمبر ١٩١٢– واقرأ المقال في أدب المقالة الصحفية ج ٦ ص ٢١٨.

الصحافة المصرية إلى وقت نشوب الحرب الكبرى.

ولا تتسع المحاضرة الواحدة – كما رأيتم – للوصول بالأفكار السياسية في أفق الحياة المصرية إلى الوقت الحاضر. فليكن ذلك – إن شاء الله – في فرصة أخرى غير فرصة هذه المحاضرات التي نلقيها الآن..

مستقبل الأدب في ظل الصحافة

نحن نعرف أن الأدب الذي وجد قبل ظهور الصحافة كان أدباً قبلياً في جملته، وأرستقراطيا في صبغته، وكان هذا الأدب يمتاز بطابعه الحماسي في الحالتين، ونقصد بالطابع الحماسي هنا ذلك الطابع العاطفي الذي يهدف دائماً إلى تمجيد البطولة، أو عبادة البسالة، على حد تعبير الأستاذ أحمد لطفي السيد في الجريدة.

فالأدب الجاهلي عند العرب والأدب الأموي، وكثير من الأدب العباسي عندهم، والأدب اليوناني القديم، والأدب الروماني القديم كلها آداب حماسية تمجد الأبطال، وتخلق منهم أنصاف آلهة. أما الأدب الأوروبي في العصور الوسطى فأدب (رومانسي) أو خيالي يدور حول موضوعات خيالية، ويعبر عن عواطف مصنوعة، ويتحدث أحيانا عن السحر، ويبنى على كثير من الوهم. وإنما ذلك كله نتيجة للحكم المطلق، ولنظم الإقطاع، ولسيطرة الأقوياء على الضعفاء، ولتملق الناس للطبقة الحاكمة، ورفعهم إياها إلى مستوى أعلى من مستوى البشر، واعتمادهم في ذلك على اللغة المملوءة بالمبالغات والاستحالات، يصوغون منها مدائح للحكام، لا يقبلها العقل مطلقا ولكن تقبلها العواطف الكاذبة والأذواق المريضة التي هيأها الأدباء لقبول الأساليب الحادة، والتهويل في العبارة، والغموض فيها أحياناً إلى حد السحر، والجنوح بهذه العبارة صوب الرصانة والجزالة والضخامة والانطلاق والقوة؛ وما شابه ذلك من الصفات التي تلائم الممدوح!

أما الأدب الحديث فقد استطاع أن يخلع عن نفسه رداء (الرومانسية)

الخيالية، وأن يتخذ لنفسه رداء (الواقعية). وهذا أول الفروق الواضحة بين الأدبين. وإذا ذهبت تبحث عن الأسباب الرئيسية التي جعلت الأدب الحديث يعدل عن (الرومانسية) ويصبو إلى الواقعية لم نجد لذلك إلا سببا واحدا فقط؛ هو ظهور الصحافة. والصحافة مدرسة كبرى جذبت إليها الأدباء فتدرب فيها هؤلاء تدريبا أكسبهم كثيراً من الخبرات الخاصة، والتجارب النفسية والفكرية واللغوية التي غيرت من وجه الأدب، ورسمت للأدباء طريق الزعامة الأدبية التي يطمحون إليها في المجتمع. والصحافة في ذاتها تجربة أدبية لها خطرها من هذه الناحية لأنها أول تطبيق عملي للتحول من (الرومانسية) إلى (الواقعية). ثم جاء الأدب نفسه بعد ذلك فشارك في هذه التجربة وكان عليه إذ ذاك أن يضحي بالفن في سبيل الفكرة، ويهمل القيم الجمالية من أجل القيم الاجتماعية أو التطبيقية الجديدة.

ذلك بالضبط ما فعله الكاتب الإنجليزي (ديفو) وأغضب به رجال الأدب في زمانه، وأثار سخطهم عليه، حتى وجدنا كاتباً آخر هو (سويفت) يشير دائماً إلى ديفو بقوله: (هذا الكاتب الأمي الذي أنسى اسمه دائماً)!

وفرق آخر من الفروق الواضحة بين الأدب القديم والأدب الحديث؛ هو هذه النزعة (الديمقراطية) التي اتصف بها الأخير، وحلت فيه محل النزعة (الأرستقراطية) التي كان يتصف بها الأول، فبعد أن كان موضوع الأدب هو الحديث عن الملوك والأمراء والسادة أصبح موضوع الأدب هو التحدث عن هؤلاء، وعن السوقة، وعن اللصوص والخادمات، والساقطات، والأشخاص المجهولين كل الجهل من المجتمع في العادة. ومن هنا كان رأينا في (الجاحظ) دائما أنه صحفي عصره بالمعنى المراد بهذه الكلمة عند إطلاقها.. ولست أدري لم لم ينجح هذا الاتجاه الصحفي في الأدب العباسي، ويصبح له تلاميذ ومريدين؟

إن مرد ذلك عندي هو الصبغة العامة لذلك العصر، وهي الصبغة الأرستقراطية لا الصبغة الشعبية. والحق أنه ليس في نزوع الأدب الحديث نحو الديمقراطية وجه من وجوه الغرابة ما دامت الشعوب الحديثة أصبحت موضع رعاية الحكومة – أيا كان مذهبها السياسي – وما دامت شخصية الفرد في المجتمعات الحديثة قد نمت، وجاءت الصحافة نتيجة لنمائها في الحقيقة. ثم جاء الأدب فكان عليه أن يجاري الصحافة في عنايتها بالأفراد – أو بعبارة أخرى – بالطبقة الوسطى من طبقات المجتمع.

وهذا الذي يقال في الأشخاص يقال مثله في الأحداث، فبعد أن كان الأدب لا يعنى إلا بالأخبار الضخمة، أصبحت له رعاية بالأخبار الصغيرة التي لا ترقى إلى خبر زلزال، أو بركان، أو معركة فاصلة في ميدان قتال، ونحو ذلك. وكذلك اتسعت الصحف للأخبار جميعها، لا فرق بين كبيرها وصغيرها، وكذلك تخلصت الصحافة أيضا في المبالغة في إيراد الخبر أياً كان.

وهذا الذي قيل في الأشخاص والأحداث يقال مثله أيضا في الأسلوب أو اللغة. فبعد أن كانت الأساليب القديمة تمتاز بالصنعة وبالزخرف، وبالجلال، وبالحكمة أصبحت تمتاز باللطف وبالخفة، وبالإيناس، وبالرقة وبتلك الصفات التي تجذب الجماهير إلى قراءتها.

على أن تطور الأساليب الحديثة لم يقف عند هذه الحدود بل تعداها إلى الموضوع، فأصبح الكتاب المحدثون يعالجون موضوعات جديدة، كان ينظر القدماء إليها على أنها موضوعات تافهة وحقيرة، فهذا هو (ديفو) يكتب في مثل هذه الموضوعات: هل يبعث الزنوج يوم القيامة؟ هل من حق الزوج أن يضرب زوجته؟ هل يمكن أن تقوم صداقة بريئة بين الرجل والمرأة؟ وذلك بعد أن كان القدماء يكتبون في موضوعات الموت والحياة، وموضوع الجبر والاختيار،

وموضوع الدين والإلحاد. وغيرها من الموضوعات الجادة القيمة.

وكلكم تذكرون تلك الموضوعات الصغيرة، والعناوين التي تبدو كأنها حقيرة، وهي عناوين المقالات التي كتبها صحفي معروف، هو (المازني) وخاصة في كتابه "صندوق الدنيا"، ومن هذا القبيل مقال كتبه الأستاذ أحمد أمين في مجلة الثقافة بعنوان "صندوق الكتاكيت"

وإذن فكما حلت البساطة في الأخبار محل التهويل فيها، فكذلك حلت البساطة في المقال محل الجدية والجزالة، وأصبح كل موضوع في الحياة – مهما قل شأنه – صالحا لأن يكون مادة صحفية، متى صادف هذا الموضوع كاتباً ماهراً يحيله إلى مادة أدبية أو صحفية لها حظ من الجذب أو الطرافة، وذلك كله أثر من آثار المقال الصحفي والخبر الصحفي في كتاب الأدب.

أما التحقيق الصحفي– والمعروف أن ديفو هو أول من ابتكر هذا الفن من فنون الصحافة – فإنه يمتاز بالدقة، والواقعية، والاهتمام بالحقائق الملموسة والعناية بالشواهد المأخوذة من الحوادث الجارية، وبالصياغة التي لاحظ لها من الجمال في أكثر الأحيان. وجميع هذه الخصال من شأنها أن تنحو بالأساليب الكتابية ناحية واقعية موضوعية.

ويؤكد النقاد الإنجليز أن فن التحقيق الصحفي هو السبب الأول في ظهور الروايات الواقعية التي كتبها أمثال: ديفو، وديكنز، وثاكاري، وإميل زولا، ومن إليهم من كتاب الرواية الواقعية في كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا.

وأما الحديث الصحفي – ويقال كذلك إن ديفو يرجع إليه فضل السبق في هذا الفن – فكثيرون من النقاد يرون فيه بذور الرواية التي تعنى باللصوص والخدم، والساقطين من الرجال، والساقطات من النساء، وهؤلاء الأشخاص

الذين كان الأدب القديم يأنف من التحدث عنهم أو التحدث إليهم.

تلك أهم الفروق الواضحة بين الأدب القديم والأدب الحدي، وهي فروق مرجعها إلى هذا الحديث الجديد في تاريخ الآداب في العالم، وهو ظهور الصحافة.

* * *

وقد سبق لي أن حدثتكم عن السمات العامة التي سرت من الصحافة إلى القصة المصرية أولا، والقصيدة الشعرية ثانيا، والمقال الصحفي في اتجاهاته الثلاثة: الاتجاه الثقافي، والاتجاه الاجتماعي، والاتجاه السياسي..

ففي (الشعر) رأينا كيف كانت القصيدة الشعرية – بفضل الصحف – أشبه شيء بالمقالة المقفاة. وكيف كانت الألفاظ الشعرية أدنى إلى السهولة التي لا تحمد إلا في النثر. وكيف كان شعر المناسبات عبارة عن مقالات يتطلبها هذا الظرف أو ذاك الخ. وأكثر من هذا وذاك أن الشعر الحديث – مجاراة منه للصحافة – اتجه إلى القصة الشعرية القصيرة – فضلا عن المسرحية الكبيرة – حتى يمكن أن تجد هذه القصة الشعرية مكاناً لها في الصحف والمجلات. ومن الشعراء المجيدين في هذا الميدان شاعر كخليل مطران، وذلك في كثير من قصصه الشعرية المعروفة. ومنها (فتاة الجبل الأسود) و(مقتل بزرجمهر) و(الجنين الشهيد) وغيرها.

وفي (القصة) رأينا في الاتجاه الأول الذي اتجهت إليه للقصص العربية كلها كان اتجاها اجتماعياً صرفا، وأوضحنا أسباب ذلك بتفصيل تام، ومثل ذلك حدث في الأدب الأوروبي، وذلك منذ ظهر أمثال: ديكنز، وثاكاري وويلز، وغيرهم.

ولكن الأمر لم يقف هناك عند هذا الحد، بل وجدنا القصة الأوروبية تتخذ أشكالا أخرى، منها شكل القصة التي تكتب على هيئة رسائل يتبادلها بطلان من أبطالها أو شخصان من أشخاصها. ولا ريب أن هذا الشكل من أشكال القصة في الأدب الأوروبي مأخوذ من نظام الرسائل التي يبعث بها القراء إلى رئيس التحرير في الجريدة حول فكرة من الأفكار أو مسألة من المسائل.

على أن القصة القصيرة في الآداب الحديثة تعتبر كذلك أثرا من آثار الصحافة ونحن نعلم أن الصحيفة تفضل غالباً أن تكون القصة من القصر بحيث تنشر كلها في عدد واحد من أعدادها دفعة واحدة. ومنذ التفت الأدباء المحدثون إلى هذه الظاهرة الأخيرة أوجبوا على أنفسهم أن يكتبوا قصصهم على هذا النمط.

وفي ميدان القصة أيضا يلاحظ الباحث عناية الأديب القاص بخلق الجو الاجتماعي للقصة دائماً، وهو أثر من آثار المقال الصحفي، والتقرير الصحفي، والتحقيق الصحفي، على النحو الذي أشرنا إليه.

ومع هذا وذاك فقد عرفت القصة الطويلة طريقها كذلك إلى الصحف، فنشرت فيها مسلسلة، ولكن بأسلوب صحفي توفرت فيه جميع الشروط السابقة، من حيوية دافقة، إلى رشاقة ظاهرة، إلى عناية بتصوير الشخصيات، إلى تحليل نفسي لهم، ووصف للظروف المحيطة بهم الخ.

ولقد أجمع النقاد كذلك على أن أهم تأثير للصحافة في الأدب هو خلق هذا الفن الجميل من فنونه، وهو فن الرواية أو القصة بمعناها الحديث. ولا غرابة في هذا، فمنذ ظهرت الصحافة تهيأت العناصر والوسائل اللازمة لتكوين الرواية الواقعية الجديدة. ومن هذه الوسائل أو العناصر تصوير الشخصيات الاجتماعية، كما ظهرت في صحف ستيل، وأديسون، وسويفت، وفيلدنج،

وجولد سمث. ومنها – أي من هذه الوسائل – خلق الجو الاجتماعي اللازم لإنشاء القصة الواقعية ومنها العناية بالأفراد كأفراد، وشرح نواحي الانحراف النفسي عند هؤلاء جميعا. ولو كانوا لصوصا أو جناة، أو كانوا خدما وسوقه وأخيراً من هذه الوسائل الحوار الاجتماعي الفكه، ونحو ذلك.

وإذا كانت الصحافة هي التي خلقت فن الرواية الواقعية بأحداثها وأشخاصها وموضوعاتها وأجوائها فقد كانت ذات أثر كبير في قوالبها الفنية كذلك.

وتأملوا معي رواية كرواية (روبنسن كروزو) تجدوا أنها كتبت بأسلوب المتكلم، وهي في ذلك أقرب شبها بأسلوب المخبر الصحفي، أو مراسل الجريدة ونحوهما.

وفي الرواية السابقة تنويه بمقدرة الفرد على مكافحة الطبيعة، ووصف لشجاعته وحسن تصرفه في مواجهة كل موقف من مواقف الإنسان الذي هو (ابن الطبيعة)، ومن أجل ذلك رأينا (روسو) يدعو في كتابه (أميل) إلى دراسة هذه الرواية وهي عندنا شبيهة بقصة (حي بن يقظان) المعروفة في الأدب المصري، وفي ذلك ما فيه من العناية (بالفردية) التي ظهرت بوضوح تام في المجتمعات الحديثة.

* * *

(أما في المسرح) فقد وجدنا ظاهرة خليقة بالتسجيل في الأدب الأوروبي، وهي أن المسرحيات التي ظهرت تدور كلها حول (المذاهب السياسية) و(المذاهب الاجتماعية) و(العلاقة بين العلم والدين) و(الآراء الحديثة في علم النفس) ونحو ذلك.

والذي لا شك فيه أن هذا الاتجاه أثر من آثار المقال الصحفي الذي عالج هذه الموضوعات الفكرية على اختلافها.

خذ لذلك مثلا (برنارد شو) – ونحن نعرف من سيرته أنه كان صحفياً، وناقداً اجتماعياً وفنياً، وهو يعترف صراحة بأثر هذه الحقيقة في فنه وأسلوبه – قد علمته الصحافة كيف يكتب بالأسلوب الصحفي "وعلمته الصحافة كيف تدور الواحدة من رواياته المسرحية غالباً حول مشكلة من المشكلات الاجتماعية أو النفسية.

فمن هذه الروايات التي كتبها (شو) روايته المعروفة باسم (كانديدا) **Candida**، وروايته المشهورة باسم (الأسلحة والإنسان) ورواية (الإنسان العادي والإنسان العالي) **Man and Snperman**. في الأولى يتحدث عن حقوق المرأة، وفي الثانية يهاجم الرومانسية ويدافع عن الواقعية. وفي الثالثة يعبر عن تفاؤله وإيمانه بتقدم البشرية. وهذه كلها موضوعات اجتماعية، بل هي مما يشغل بال الرأي العام في إنجلترا إلى اليوم. حتى أن الباحث ليحار حقا في فن (برنارد شو)، أهو صحافة أم أدب مسرحي؟

وآية ذلك أنك ترى هذا الكاتب العبقري يتوخى دائما أن يكتب لكل رواية مسرحية من رواياته مقدمة طويلة، لا نستطيع أن نفرق بينها وبين المقال الصحفي بحال ما.

والعجب فوق ذلك أن (شو) في روايته "جزيرة جون بول الثانية" يتحدث عن حادثة دنشواي بوجه أخص، ويأتي في حديثه بأسماء الفلاحين المظلومين الذين اعتدت عليهم (المحكمة المخصوصة) في ذلك الحين. ويصف وقائع دنشواي وصفاً مؤيداً بالإحصاءات والأقوال، ويتم له بذلك خلق الجو

الاجتماعي اللازم لفهم الحادثة[1].

ولا ننسى أن (شو) يمتاز بالنزعة العقلية في الكتابة، وبالحرية، وبالذكاء وسرعة الخاطر وحضور البديهة، وبالميل الظاهر إلى التهكم واللذع والسخرية الخ. وتلك كلها صفات الأسلوب الصحفي الذي يحمل في طياته عناصر القوة والحيوية والشهرة والذيوع، والاستهواء لأكبر عدد ممكن من القراء في العالم.

وهذا الذي قيل في مسرحيات (شو) وتأثرها بالأجواء التي خلقتها الصحافة هو بعينه ما يمكن أن يقال بالقياس إلى أستاذه (إبسن) النرويجي الذي كان هو الآخر صاحب صحيفة أصدرها بنفسه، فضلا عن اشتراكه في كثير من الصحف الأخرى. ومن ثم اقترب (إبسن) في أسلوبه كثيرا من أسلوب الصحافة، وظهر عليه كثير من خصائصها. وقد عالج (إبسن) في مسرحياته بعض المشاكل الاجتماعية، كمشكلة المرأة، ومشكلة الفرد في المجتمع، ومشكلة العامة بين المثال والواقع الخ.

وهكذا لم يعد الأدب الحديث أدبا يراد به التسلية وحدها بل غدا أدبا حيا لصيقا بالمجتمع، يهتم بالواقع، ويزيد الأفراد علما بنفوسهم، وطباعهم وحياتهم، وحكوماتهم، ويزيدهم علماً بالنظريات والآراء التي تصدر عنها هذه الحكومات في قيادة الجماهير. ومن ذا الذي يماري في أن هذه الأفكار كلها ثمرة من ثمرات الصحافة؟.

معنى ذلك أن الصحافة كانت ولا تزال نعمة على الأدب وعلى الفكر معاً.

* * *

---

(1) لفت نظري إلى هذه الرواية المهمة من روايات شو صديقي الأستاذ إبراهيم إمام المدرس بكلية الآداب جامعة القاهرة. فله الشكر.

ولكن هل صحيح أن الصحافة نعمة على الأدب أو على الفكر؟.. كلا، فإن الناظر إلى الأدب والفكر في أمة من الأمم يرى الغبن الذي وقع عليهما بسبب الصحافة، وقد أشرنا إلى هذا الغبن من ناحية الأدب، وقلنا أن الصحافة أفقدته كثيراً من القيم الجمالية التي كان يفخر بها في العصور المتقدمة. شأن الأدب في ذلك بالضبط شأن الصناعة التي كانت تدار بالأيدي في الأزمنة الأولى، فأصبحت تدار بالآلات في الأزمنة الأخيرة. كان الصانع القديم يقضي في إخراج القطعة الواحدة من نتاجه أوقاتا طويلة يبذل في أثنائها كل ما وهبته الطبيعة من فن ومهارة. فإذا تم له ذلك واستوت القطعة الفنية أمامه نظر إليها وتأمل فيها، وأحدثت له هذه النظرة وهذا التأمل لذة نفسية كبيرة؛ هي كل ما تلقاه من أجر على ما بذل من جهد، وأضاع من وقت.

أما الآن فإن المصانع التي تدار بالآلات البخارية والكهربائية تخرج مئات آلاف القطع في أقل من دقيقة، وتجعل من الصانع أو العامل آلة صماء، أو زرا من أزرار الكهرباء، لا يحس لذة من اللذائذ القديمة عدا لذة الكسب والحصول على لقمة الخبز.

ذلك كله في الأدب البحت، وأما الفكر فقد خسر هو الآخر خسارة هي في نظري أكبر من خسارة الأدب، ولقد نظرت وتأملت في جميع النهضات الفكرية والمذهبية التي قامت في بلاد الغرب فوجدت الكثير منها كان نتيجة لازمة لدراسات عميقة، وجهود كبيرة من جانب الكتاب والمفكرين، لا أصحاب الصحف خاصة.

إن (الكتاب) – لا (الجريدة) – هو الذي يستطيع أن يؤثر في عقول الشيوخ وعقول الشبيبة. وفي مدى جيل واحد أو جيلين على أكثر تقدير تظهر نتيجة هذا الأثر الذي أحدثه الكتاب. وهذا هو الفرق بينه وبين الجريدة.

للأخيرة التأثير القوي السريع، وللأول التأثير النافع البطيء. الأخير أداة الحكومات والجماهير. والأولى أداة الفلاسفة والمفكرين. وعلى هؤلاء في الواقع يقع العبء الأكبر في بناء الأمة، أو في تحويلها من طور إلى طور، والانتقال بها من حال إلى حال، والارتفاع بها إلى المنزلة التي ينبغي أن تكون لها بين الأمم الأخرى.

فأين الكتاب الذي كتبه مصري أو شرقي في فلسفة الحكم؟ وأين الكتاب الذي كتبه مصري أو شرقي في فلسفة الدين؟ إن صح هذا التعبير؟ وأين الكتاب الذي كتبه مصري أو شرقي في مشكلة الحضارة الأوربية الحديثة، بعد أن عشنا معها كل هذا العمر الطويل؟

وأنتم ترون الحياة المصرية أو الشرقية مملوءة بالمشكلات الاجتماعية والدينية والفكرية، وترون المصري أو الشرقي صريعا لشتى الرواسب النفسية، وأنتم حين تطوون السنين القهقرى أمامكم لا تجدون واحدا من الكتاب أو المفكرين شغل نفسه جديا بمشكلة من تلك المشكلات، وتوفر جديا على بحثها. لا أكاد استثني من هؤلاء غير أشخاص يعدون على أصابع اليد الواحدة. منهم جمال الدين الأفغاني، ومُحَمَّد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، وقاسم أمين. وأكثر هؤلاء إنما أتاحت لهم الصحف أن يكتبوا كتبهم على شكل فصول نشرت تباعا، ثم جمعت بعد ذلك على شكل كتب، وقرأها الناس جيلا بعد جيل وتأثروا بها. وهذا ما لا تسمح به الصحف في وقتنا الحاضر.

وأنتم تعلمون أن الثورات المجيدة في التاريخ إنما خرجت من دائرة الأدب الأصيل، وميدان الفكر الإنساني العميق؛ فالثورة الفرنسية نفسها أثر من كتابات روسو وفولتير ومنتسكيو، ونزعة السلام والديمقراطية خرجت من أدب تولستوي، ودولة الباكستان لم تكن سوى حلم للشاعر إقبال، وبلزاك

بشخصياته الفنية المتكررة كان يسبق الحياة الأوروبية في القرن التاسع عشر، وهيجل – بدون شك – كان وراء الفاشية والنازية. ووراء تحرير العبيد في أمريكا قصة (كوخ العم توم)، وروايات بول سارتر الأديب تلهب خيال الوجوديين، وتجعلهم يسيرون في الشوارع بشعورهم الطويلة، ولحالهم المرسلة، وملابسهم المزركشة، ومظهرهم الغريب!

إن كل حركة من حركات الغرب إنما هي ثمرة جهود عنيفة بذلها أهله في سبيل الوصول إليها. وحين وصلوا إليها كان من السهل عليهم أن يهضموها ويتمثلوها جيدا، ويدخلوها في كيانهم الاجتماعي. فإذا انتقلت إلينا هذه الحركات بسرعة البرق بدون أن يكون لها من تاريخنا الثقافي أو الاجتماعي رصيد ما، أو بدون أن تسبقها عندنا جهود تمهد لها تمهيدا ما، لم نجن من ورائها إلا الحيرة والارتباك! ولعل قادتنا ومفكرينا أن يدركوا هذه الحقيقة، ولعلهم يبذلون من ذوات نفوسهم جهودا عنيفة، ويتحررون أولا من إغراء صاحبة الجلالة الصحافة!

لقد كان تأثر الأدب المصري بالصحافة سببا في بعد الأدب المصري عن صفة العمق، كما ابتعد من قبل عن صفة الفن. ولينظر الباحث هنا فيما عمدت إليه بعض الصحف والمجلات في أيامنا هذه. فقد رأى أصحابها أن العلم أصبح مقصورا على طائفة معينة. هي تلك الطائفة التي تقوم بتدريسه في داخل المدارس الجامعة. أما سواد الشعب فإنهم لا ينالون من العلم إلا قشورا بسيطة. هي كل ما تستطيع الصحيفة أن تجود به عليهم في شكل مقالات علمية أو أدبية. وهنا فكر هؤلاء الصحفيون في طريقة عملية لتبسيط العلم. فأخرجت كل صحيفة مشهورة سلسلة من الكتب في الأدب والاجتماع والتاريخ وعلم النفس والفلسفة والصحة والطب ونحو ذلك، ومن الأمثلة عليها في وقتنا هذا:

سلسلة (اقرأ) وتخرجها مجلة الهلال كل شهر. وسلسلة (كتاب اليوم) وتخرجها جريدة أخبار اليوم كل شهر. وسلسلة (كتاب الشهر) وسلسلة "كتابي" الخ.

أجل.. لقد طال خضوع الأدب للصحافة، ومن الخير أن يسترد هذا الأدب بعض حريته واستقلاله عن الصحافة، ولن يكون ذلك إلا إذا أصبح الأدباء والعلماء من القوة بحيث لا يأخذهم بريق الصحف، فيتهافتون عليها رغبة في الحصول على الشهرة لا أكثر ولا أقل!

ويوم يستطيع (الكتاب) أن يزاحم (الجريدة) على هذا النحو تقول إن الأدب في طريقه إلى الحصول على استقلاله الصحيح عن الصحافة. وعلى هذا فمستقبل الأدب الحديث في يده هو. إن أراد الأدباء لأنفسهم الشهرة وحدها، فعليهم أن يتعلقوا بالصحف. وإن أراد الأدباء والعلماء لأنفسهم التأثير البعيد المدى في الأجيال المقبلة كلها، وأرادوا المشاركة الحقيقية في بناء الأمم التي أنجبتهم ورفعتهم إلى هذه المنزلة، فعليهم أن يفرغوا بعض الشيء للعلم والأدب، ويستغلوا مواهبهم استغلالا صحيحا من هذه الناحية.

إن الناس بحاجة في هذه الأزمنة الحاضرة إلى الأدب العاطفي، أو الأدب (الرومانسي) الذي يكون برداً وسلاماً على أفئدتهم، وغذاء صحيحا لعواطفهم وأحاسيسهم، وعونا لهم على احتمال مكاره الحياة، وراحة لهم من عنائها الذي لا ينقطع!

وقد أحس أديب كبير وصحفي مشهور في أيامنا هذه – وهو هنا الدكتور طه حسين – بالخطر الذي يتهدد الأدب. فنشر في صحيفة الجمهورية (بتاريخ ٥ فبراير سنة ١٩٥٤) مقالا جاء فيه: "ولا بد للأديب من أن يروض نفسه، ويسوسها حتى تألف الجهد والعناء والمشقة، وترى أنها أيسر ما يجب لإنتاج الأدب الرفيع الذي يستحق أن يسمى أدباً. ولا على الأديب أن يغضب

أصحاب المطبعة إن أبطأ به الإنتاج عما ضربوا له من موعد. فذلك كله خير له من أن يتعجل، فيرضي الصحيفة والمطبعة، ويسخط الفن ويفسد الأدب، وقد يفسد معه ذوق كثير من القراء. وهنا تنكر الصحف وتثور، فهي لا تستطيع أن تنتظر الأديب حتى يتقن إنتاجه، ويصبح نشره شيئا لا حرج فيه.

"فمن أراد أن يكتب لها على شرطها فليفعل، ومن أبى إلا أن يكتب على شرط الأدب فليلتمس لنفسه مذهباً آخر من مذاهب النشر".

وأكثر من هذا وذاك أن من المفكرين والنقاد من حذروا الشباب أخطار الصحافة من الناحية الخلقية الخالصة. وصرح بعضهم "بأن قراءة المجلات الاستعراضية لمجرد التسلية– لا للعلم، أو تغذية العقل وتنمية الوجدان– كان لها أكبر الأثر في انحطاط الأخلاق في أمريكا.

* * *

(والخلاصة) أن المستقبل الحقيقي للأدب هو في العودة إلى الحالة الأولى قبل نشوء الصحافة، أعني حالة الحرية والانطلاق، أو الحالة التي وصفها بعضهم بقوله "الفن للفن"، ولقد بذر البذور الأولى للعودة إلى الطبيعة في الأدب الأوروبي روسو في فرنسا، وجوته في ألمانيا، وبليك في إنجلترا، ولقد كانت الحركة الرومانسية في ذاتها تحطيما لأغلال العقل، وانطلاقا مع دواعي الروح، والنفس، والعاطفة، والقلب.

* * *

لا تنسوا أبدا أيها الشباب أن الأدب الحقيقي هو الذي تقرءونه في مثل الشعر الجاهلي، والغزل الأموي، وكليلة ودمنة لابن المقفع، ورسالة الغفران للمعري، وحي بن يقظان لابن الطفيل، وقصائد دانتي، ومسرحيات شكسبير،

والفردوس المفقود لملتون، وثورة الإسلام لشبلي، ففي هذا الأدب نشعر دائماً بالانطلاق من مشاغل النفس، ومطالب البدن، وهموم الحياة. والإنسان في حاجة دائماً إلى ما يصرفه عن نفسه وشواغله. وتلك هي الوظيفة الأولى للأدب، والواجب الأول على الأدباء، وهذا هو معنى قولنا إن مستقبل الأدب هو في العودة به إلى الحالة الأولى. ولست أريد بالحالة الأولى هنا العودة بالأدب إلى نزعته القبلية الارستقراطية التي أشرت إليها في أول هذا الحديث، فقد قلت عنها إنها أفسدت الأدب من كل ناحية.

ولا تنسوا أبدا أيها الشباب أن الكتاب – لا الجريدة – هو الأقدر على تهيئة الأمم للتقدم الذي تنشده، وإعداد الأجيال المستقبلة للنهوض بها إلى المستوى الذي تتطلبه، فإذا أرادت الأمم بأبنائها خيراً فلتتح الفرصة كاملة للأدباء المفكرين من ناحية، والعلماء المخترعين من ناحية ثانية. أولئك يقدمون لها أدباً خصباً قوياً حياً يغذي فيها الشعور، وينمي فيها العواطف ويكون فيه النعيم المقيم للعقول المجهدة، والنفوس الحائرة، والقلوب المعذبة. وهؤلاء – أي العلماء – يقدمون لها المخترعات الحديثة التي تشارك بها الأمة في ركب الحضارة. وهذا وذاك لا يكون دائما عن طريق الكتب.. وتلك هي الوظيفة الثانية من وظائف الأدب. ونعني بها تقديم الأفكار التقدمية للمجتمع. إن النزول إلى مستوى القراء معناه دائماً تدهور الذوق أولا، وإرضاء الجماهير على حساب الفن ثانياً، والفكر ثالثاً، والمجتمع في نهاية الأمر..

عبد اللطيف حمزة

الفهرس